# الأسطورة

تأليف

عبد الرحمن سعيد الوليلى

obeikandl.com

obeikandl.com

**طبعة ٢٠١٧**

الوليلى، عبد الرحمن سعيد.

الأسطورة/ عبد الرحمن سعيد الوليلى – .- الجيزة: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ٢٠١٦ .

٣٥٢ ص ,٢٠ سم

تدمك: ٤ ٥١٦ ٣٩٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية القصيرة

أ - العنوان

٨١٣,٠١

# الأسطورة

تأليف

عبد الرحمن سعيد الوليلى

obeikandl.com

رئيس مجلس الإدارة

**عادل المصرى**

عضوا مجلس الإدارة

المهندس

**نوران المصرى**

**رقم الإيداع**

**٢٠١٦/٢٧٤٢٣**

**الترقيم الدولى**

**٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٥١٦-٤**

**الطبعة الاولى**

**طبعة ٢٠١٧**

**الكتاب : الأسطورة**

**المؤلف : عبد الرحمن سعيد الوليلى**

**الغلاف : إسلام البلاط**

**الناشر: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ش.م.م**

**٢٥ ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة**

**atlas@innovations-co.com**

**www.atlas-publishing.com**

**تليفون : ٠٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥**

**فاكـــس : ٣٣٠٢٨٣٢٨**

****


obeikandl.com

obeikan.com

obeikandl.com

## شكر وإهداء

الشكر لله أولًا وآخرًا...

ويقول ﷺ: "مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ، لَمْ يَشْكُرِ اللهَ"[1].

لذا أتقدم بخالص الشكر والعرفان إلى:

والدي الحبيب - حفظه الله وأطال في عمره بالصالحات -،

وزوجتي الحبيبة الغالية (أم خديجة)،

ثم إلى أساتذتي ومشايخي الفضلاء.

كما أهدي هذه الكلمات إلى نبض الفؤاد:

أمي الحبيبة – رحمها الله -، وإخوتي الأعزاء، وابنتي وريحانتي وقرة عيني وحبيبتي... (خديجة)،

ثم لكم أيها الأكارم...

عبدالرحمن الوليلي

---

١- رواه أحمد (٧٥٠٤) والترمذي (١٩٥٥) وصححه الألباني.



obeikandl.com

obeikandl.com

## المقدمة

الحمد لله وصلَّى الله وسلَّمَ وباركَ على نبينا محمد عليه أفضل الصلوات والتسليمات، وبعد/ ففي هذا الزمان الذي كَثُرَتْ فيه المُغْرِيَات، وتَفَشَّتْ فيه فتَنُ الشهوات والشُبُهَات، واندثرتْ فيه القيَمُ والأخلاقيَّات، واختلطتْ المُسَمَّيَات، وغابَتْ المُثُلُ والقُدُوات، كان لزَامًا أن نُعيدَ الحسابات، وأن نُبْرِزَ هذه الأزَمَات، ونَكْشفَ الحقائقَ المؤلِمات، ونُواجِهَ هذه التَّحَدّيَات، لا أنْ نَدْفِنَ رؤوسَنَا في التراب كالنَّعَامَات، ثم أن نُحاول الإصلاحَ والتغييرَ فيما هو آت، لذا فكرتُ في كتابة مِثْلِ هذه الكلمات...

عبدالرحمن الوليلي

obeikandl.com

## كيف كانت البداية؟!

منذ فترةٍ ليست بالبعيدة بدأت تنتشر وتتردد في الأصداء كلمةٌ مألوفة معروفة يطلقها كثيرٌ من الناس على كثيرٍ من الناس، وعلى كثيرٍ من الأفعال، دون أدنى انتباه لمعناها أو لقيمتها، وذلك لأنها أصبحت كلمةً دارجة، ألا وهي كلمة (الأسطورة).

وكعادتها تستعد القنوات الفضائية كل عامٍ بكامل طاقتها لدخول الماراثون الرمضاني الرهيب، وذلك بالتنافس في شراءِ العدد الأكبر من المسلسلات، وبالأخص المسلسلات كثيرةِ النجوم - كما يسمونهم –، غالية المهور والأجور، وذلك لتنافس به القناة في هذا الماراثون للحصول على المركز الأول، أو على الأقل لتضمن لنفسها الحصول على مركزٍ متقدمٍ في الإعلانات ونِسَبِ المشاهدة.

وكان من بين هذه المسلسلات مسلسلٌ حاز الإعجاب، وحصد الألقاب، وأظنه حصل على أعلى نِسَبِ المشاهدةِ من بين المتسابقين، لكن ليس هذا هو الإشكال، وإن كان هذا من أهم الإشكالات، لكنَّ الأهم أن هذا المسلسل كان بعنوان (الأسطورة)!.

ذلك الاسم الذي زاد من شعبية هذه الكلمة، لتتدنى في قيمتها، وتعلو في شهرتها، وهنا انقلبت المفاهيم والموازين، واختلطت الألفاظ والمسميات، وانتكست القامات والقدوات، وقام مكانها اللاشيء، نعم اللاشيء، فهو أفضل تعبير يطلق على ما قام مقام ما كان، ولست في الحقيقة أتحامل على أحد ولا أعني أحدًا ولا أذم أحدًا، كما أنني لست بصدد الحديث عن المسلسل أو تقييمه أو نقده أو غير ذلك، فأنا أصلًا لم أشاهده، ولا يعنيني ذلك.

وفي هذه الأثناء أو بعدها بقليل، كانت تُلعبُ بطولاتُ القارات لكرة القدم، فبينما أطالع أحد المواقع الرياضية، قرأت مقالًا بعنوان (هل يكون رونالدو أسطورة الجيل؟!)، ولست كذلك بصدد الحديث عن تفاصيل المقال، لكن الشاهد أن كاتب المقال زعم أن لقب (الأسطورة)، أو بتعبيرٍ أدق (أسطورة الجيل) لا يُطلق إلا على من فعل شيئًا لم يفعله أحدٌ من أبناء جيله، وهذا الفعل ما كان ليتم إلا به، وإلا فلا يُعدُّ أسطورة، فهذا ربما يكون في نظر البعض أعطى الكلمة شيئًا من القيمة أو الأهمية، ربما اصطلاحية أو كروية أو تأليفية، لا يهم.

لكنَّ المصيبة.. بعدها بأيام وأنا أطالع بعض الصحف، لفتت انتباهي الكلمةُ التي تكرر ذكرها في حديثي معكم، وهي (الأسطورة)، لكن هذه المرة ليست في كرة ولا مسلسل ولا حتى شخص أصلًا، بل لوصف شيءٍ لا أعرف إن كان يصح ذكره هنا أم لا، لكن كما تقول القاعدة: ناقل الكفر ليس بكافر، كان عنوان المقال أو الخبر في هذه الصحيفة الرسمية (البكيني الأسطورة)!!.

نعم المقصود به البكيني، ذلك الشيء، عفوًا اللاشيء الذي يُلبس، كما ذكرتُ هذه اللفظة – اللاشيء – من قبل لأكون محقًا فيها، فقد راجعت نفسي وأعدت النظر، فربما أخطأت، قرأت المقال لأَكَذِّب نفسي وفهمي، فربما حتى يكون عن (البط البكيني) مثلًا فمن المعقول أن يكون أسطورة، لكن الطامة أنه بالفعل كان المايوه البكيني، والذي يحتفل الفرنسيون بيومه فيما يعرف بـ(البكيني الأسطورة)!.

نعم ونسيت أن أقول لكم، فبعد هذا المسلسل، والذي جسَّد أو عبَّرَ عن (الأسطورة) بالقوة والشجاعة والفتوَّة على طريقته، وبصرف النظر عن أصدائه الواسعة، بدأت

كلمة (الأسطورة) تنتشر انتشار النار في الهشيم، على صفحات التواصل الاجتماعي، وعلى أسماء المحلات والمقاهي والقنوات والملابس والمأكولات وحتى الملابس الداخلية، بل وليطلقها الأشخاص على أنفسهم، فضلًا عن غيرهم من الأشخاص ممن لا يستحق حرفًا منها!.

ومن ساعتها بدأت الكلمة تطاردني، في كل ما يُسمَعُ أو يُشاهَدُ أو يُقرَأ، بل حتى يُأكلُ أو يُشرَبُ أو يُلبَس...

ففكرتُ أن أَسُوق لنفسي أولًا ثم لكم بعضًا من النماذج الأسطورية الحقيقية القوية المنتقاة، التي تستحق هذا اللقب عن جدارةٍ واستحقاق بلا مغالاة، بل هو في حقها لا شيء - لأنها أعظم من ذلك بكثير -، لنعيش معها ولأترك لكم الحكم بعد الاطلاع لتحكموا بأنفسكم من هم الأساطير؟!.

وقد راعيتُ في ذكري لهم التنوعَ في أسلوبِ طرحِ قصصهم بين الاختصار والزيادة، مُرَاعِيًّا كذلك التنوعَ في أعمالهم وبطولاتهم وإنجازاتهم المُسْتَحِقَّةِ للإشادة، وذلك دفعًا للملل خشيةَ التكرار والإعادة، وطلبًا للإمتاع والإشباع والإفادة، وإن كانت قصصهم لا تحتملُ حتى ذلك بأدنى شهادة، لأنها في الواقع ليست إلا تجسيدًا لتشويقٍ وإثارةٍ وعظمةٍ وريادة، ومما يبعث في النفوس الحماس وعلو الهمة وقوة الإرادة، ومما يحمل الإنسان على العمل والمثابرة والإجادة، كما أنها مُعرِّفةٌ بعظمة هؤلاء ومكانتهم في الصدارة والسيادة.

كما راعيت كذلك أن يكون معظمهم من غير المشاهير، حتى يكون من قبيل الإضافة والإثراء والتغيير، ومن باب التعرف على عظماء هذه الأمة الأساطير، كما حرصتُ على أن يكون ما قام به هؤلاء الأساطير من أعمال أسطورية، نابعًا من محض

الإرادة والهمة والكينونة البشرية، بعد إرادة وعون وتوفيق الله رب البرية، فلم أذكر فيها كراماتٍ لأولياء، ولا معجزاتٍ لأنبياء، حتى لا يكون ذلك حُجَّةً ومُبرِّرًا للبلداء، فيتحججوا بأنها خصيصةٌ أو استثناء.

كما راعيتُ في سردي الموضوعية والحياد ما استطعتُ إلى ذلك سبيلًا، لتقرأ ثم تحكمَ بنفسك، وجعلتها فيما يشبه الرواية متعددة الفصول، في خمسين فصلًا، وأُذَكِّرُ خِتامًا أن هذه النماذج التي أذكر إنما هي على سبيل المثال لا الحصر، وإلا فأنَّى لمثلي فضلًا عن غيري أن يحصي هؤلاء العظماء!.

وبعد انتهائي من جمع وتأليف هذا الكتاب، توقفت كثيرًا لأفكر في كيفية ترتيب فصوله وعلى أيِّ أساسٍ أرَتِّبُ أساطيره؟!

هل على أساسٍ زمنيٍّ فيكون من الأقدم إلى الأحدث مثلًا؟ أم على حسب مضمون قصصه وحجم التشويق والإثارة في كلٍ منها؟ أم ترتيبًا هجائيًا على الحروف الهجائية؟ أو غيرها؟!

وفي النهاية فضلت أن يكون الترتيب ترتيبًا عشوائيًا، خير خاضعٍ لعاملٍ ثابت، وذلك حتى لا يرتبط القارئ بزمنٍ أو اسم أو قصة أو عاملٍ معين، وحتى يشعر بالتنوع بين الأجيال والأزمان والبطولات والأساطير وبالتفاوت في درجات التشويق والإثارة، وحتى ينتقل بين حِقَبِ وعصورِ التاريخ المختلفة مسافرًا من جيل كلِّ أسطورةٍ إلى جيلِ أخرى، ثم يعود إلى نفس الجيل بعده بفصول، مقتطفًا من كل حديقةٍ من حدائق الأساطير الغناء زهرةً فيحاءَ عاطرة الشذى والرائحة.

والآن أترككم مع هذه الرحلة الشيقة مع هؤلاء الأساطير...

# أبو بكر الصديق

«وَيَأْبَى اللَّهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلاَّ أَبَا بَكْرٍ».

محمد ﷺ

فليكتب من شاء ما شاء، وليقل من أراد ما أراد، فالأمر حسمه النبي ﷺ حتى لا يقول قائل ولا يتمنى متمنٍّ...

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَرَضِهِ: "ادْعِي لِي أَبَا بَكْرٍ، أَبَاكِ، وَأَخَاكِ، حَتَّى أَكْتُبَ كِتَابًا، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَتَمَنَّى مُتَمَنٍّ وَيَقُولُ قَائِلٌ: أَنَا أَوْلَى، وَيَأْبَى اللَّهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلاَّ أَبَا بَكْرٍ"(١).

وإن كان هذا الحديث في الخلافة، إلا أنه يجعل من أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه مُقَدَّم ورأس هذه الأمة في كل شيء بعد نبيها، لذلك لم أستطع أن أبدأ بغيره، أو أن أقدم عليه أحدًا، وإن كنت أخرت في بقية الكتاب كثيرًا ممن هم خيرٌ ممن قدمتُ عليهم، وذلك لأنه أبو بكر...

صِدِّيقُ أَحْمَدَ صَاحِبُ الغَارِ الَّذِي .. هُوَ فِي المَغَارَةِ والنَّبِيُّ اثْنَانِ
أَعْنِي أَبَا بَكْرٍ الَّذِي لم يَخْتَلِفْ .. مِنْ شَرْعِنَا فِي فَضْلِهِ رَجُلَانِ
هُوَ شَيْخُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ وَخَيْرُهُمْ .. وَإِمَامُهُمْ حَقًّا بِلَا بُطْلَانِ
وَأَبُو المُطَهَّرَةِ الَّتِي تَنْزِيهُهَا .. قَدْ جَاءَنَا فِي النُّورِ وَالفُرْقَانِ

١- رواه مسلم ٦٢٥٧-(١١-٢٣٨٧) وأحمد (٢٥١١٣).

هو خيرُ الأمة بعد رسول الله، بل هو خير خلق الله بعد رسل وأنبياء الله، فرضي الله عنه وأرضاه...

ولست بصدد الحديث عن مناقبه وفضائله وشرفه ومكانته، وإلا فالحديث يطول، وحسبه قرآن الله الذي نزل فيه:

«أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ»[1].

«ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ»[2].

«الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى»[3].

ولأننا نسلط الضوء على الشجاعة كما هو الحال في غالب مادة الكتاب، ألقي بعض الضوء على عظيم شجاعة هذا الأسطورة العظيم..

قال ابن القيم رحمه الله: وكان الصديق ﷺ أشجع الأمة بعد رسول الله... برز على الصحابة كلهم بثبات قلبه، في كل موطن من المواطن التي تزلزل الجبال، وهو في ذلك ثابت القلب، ربيط الجأش، يلوذ به شجعان الصحابة وأبطالهم، فيثبتهم ويشجعهم، ولو لم يكن له إلا ثبات قلبه يوم الغار، وليلته، وثبات قلبه يوم بدر، وهو يقول للنَّبي: يا رسول الله كفاك بعض مناشدتك ربك، فإنه منجز لك ما وعدك، وثبات قلبه يوم أحد، وقد صرخ الشيطان في النَّاس بأن محمدًا قد قتل، ولم يبق أحد مع رسول الله إلا دون عشرين في أحد، وهو مع ذلك ثابت القلب ساكن الجأش، وثبات قلبه يوم الخندق وقد زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وثبات قلبه يوم الحديبية، وقد قلق فارس الإسلام عمر بن الخطاب، حتى إنَّ الصديق ليثبته ويسكنه ويطمئنه، وثبات قلبه يوم حنين حيث فر النَّاس وهو لم يفر، وثبات قلبه حين النازلة التي اهتزت

١- (النور: ٢٢).

٢- (التوبة: ٤٠).

٣- (الليل: ١٧، ١٨).

لها الدنيا أجمع، وكادت تزول لها الجبال، وعقرت لها أقدام الأبطال، وماجت لها قلوب أهل الإسلام ،كموج البحر عند هبوب قواصف الرياح، وصاح لها الشيطان في أقطار الأرض أبلغ الصياح، وخرج النَّاس بها من دين الله أفواجًا، وأثار عدو الله بها أقطار الأرض عجاجًا، وانقطع لها الوحي من السماء، وكاد لولا دفاع الله لطمس نجوم الاهتداء، وأنكرت الصحابة بها قلوبهم، وكيف لا وقد فقدوا رسولهم من بين أظهرهم، وحبيبهم، وطاشت الأحلام، وغشي الآفاق ما غشيها من الظلام، واشْرَأَبَّ النفاق، ومد أهله الأعناق، ورفع الباطل رأسًا كان تحت قدم الرسول موضوعًا، وسمع المسلمون من أعداء الله ما لم يكن في حياته بينهم مسموعًا، وطمع عدو الله أن يعيد النَّاس إلى عبادة الأصنام، وأن يصرف وجوههم عن البيت الحرام، وأن يصد قلوبهم عن الإيمان والقرآن، ويدعوهم إلى ما كانوا عليه من التهود، والتمجس، والشرك، وعبادة الصلبان، فشمَّر الصديق ﷺ من جده عن ساق غير خوار، وانتضى سيف عزمه الذي هو ثاني ذي الفقار، وامتطى من ظهور عزائمه جوادًا لم يكن يكبو يوم السباق، وتقدم جنود الإسلام فكان أفرسهم إنَّما همه اللحاق، وقال والله لأجاهدن أعداء الإسلام جهدي، ولأصدقنهم الحرب حتى تنفرد سالفتي، أو أفرد وحدي، ولأدخلنهم في الباب الذي خرجوا منه، وَلَأَرُدَّنَّهُمْ إلى الحق الذي رغبوا عنه، فثبَّت الله بذلك القلب الذي لو وزن بقلوب الأمة لرجحها جيوش الإسلام، وأذلَّ بها المنافقين، والمرتدين، وأهل الكتاب، وعبدة الأصنام، حتى استقامت قناة الدين من بعد اعوجاجها، وجرت الملة الحنيفية على سننها ومنهاجها، وتولَّى حزب الشيطان وهم الخاسرون، وأذَّن مؤذن الإيمان على رؤوس الخلائق: "فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ"[1].

---

١- (المائدة: ٥٦).

هذا وما ضعفت جيوش عزماته، ولا استكانت ولا وهنت، بل لم تزل الجيوش بها مؤيَّدة ومنصورة، وما فرحت عزائم أعدائه بالظفر في موطن من المواطن، بل لم تزل مغلوبة مكسورة، تلك لعمر الله الشَّجَاعَة التي تضاءلت لها فرسان الأمم، والهمَّة التي تصاغرت عندها عليات الهمم، ويحق لصديق الأمة أن يضرب من هذا المغنم بأوفر نصيب، وكيف لا وقد فاز من ميراث النبوة بكمال التعصب![1].

وعن أبي هريرة ﷺ، قال: لما توفي رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر بعده وكفر من كفر من العرب، قال عمر بن الخطاب لأبي بكر: كيف تقاتل النَّاس وقد قال رسول الله ﷺ: "أمرت أن أقاتل النَّاس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله"؟!. فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه إلى رسول اللهﷺ لقاتلتهم على منعه. فقال عمر بن الخطاب فوالله ما هو إلا أن رأيت الله عزَّ وجلَّ قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنَّه الحق[2].

وعن عروة بن الزبير، قال: سألت ابن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنَّبي ﷺ، قال: بينا النَّبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه، عن النَّبي ﷺ وقال: "أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ" الآية[3][4].

وعن محمد بن عقيل بن أبي طالب، قال: خطبنا علي بن أبي طالب، ﷺ، فقال:

---

١- الفروسية (٥٠٢).

٢- رواه البخاري (٦٨٥٥) ومسلم ٣٢-(٣٢-٢٠).

٣- (غافر: ٢٨).

٤- رواه البخاري (٣٦٤٣).

أيها النَّاس، أخبروني بأشجع النَّاس، قالوا: لو قلنا أنت يا أمير المؤمنين، فقال: أما إني ما بارزت أحدًا إلا انتصفت منه، ولكن أخبروني بأشجع النَّاس؟ قالوا: لا نعلم، فمن؟ قال: أبو بكر الصديق، إنا لما كان يوم بدر جعلنا لرسول الله ﷺ عريشًا فقلنا: من يكون مع النَّبي ﷺ لا يهوي إليه أحد من المشركين؟ فوالله ما دنا منا أحدٌ إلا أبو بكر شاهرًا بالسيف على رأس رسول الله ﷺ، لا يهوي إليه أحد إلا هوى إليه، وهذا أشجع النَّاس، قال علي: فلقد رأيت رسول الله ﷺ أَخَذَتْهُ قريش فهذا يجؤُّه، وهذا يتلتله، وهم يقولون: أنت الذي جعلت الآلهة إلهًا واحدًا!، قال: فوالله ما دنا منه إليه أحد إلا أبو بكر، يضرب هذا، ويجأُ هذا، ويتلتل هذا، وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله!، ثم رفع عليٌّ بردة كانت عليه فبكى حتى أخضل لحيته، ثم قال علي: أنشدكم الله، أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر؟ قال: فسكت القوم، فقال: ألا تجيبوني؟ والله لساعة من أبي بكر خير من ملء الأرض مثل مؤمن آل فرعون، ذاك رجل يكتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه![1].

الله أكبر

فلله درك يا صاحب ويا خليفة رسول الله ﷺ.

---

١- رواه البزار (١٤/٣) (٧٦١).

obeikandl.com

## محمد الفاتح

## (محطم أسطورة دراكولا)

في هذا الفصل نتحدث عن القصة المشوقة التي ربما بحثت أو تبحث عنها بين طيَّاتِ الكتاب، نعم قصة أسطورة (دراكولا)، لأن بطل هذا الفصل هو بالفعل (محطم أسطورة دراكولا)، ولكن قبل ذلك، والأعظم من ذلك، لأنه لا شرف ولا عظمة تداني ذلك، وذلك في الأوليين غيرُ ذلك، هو (فاتح القسطنطينية)، الذي قال عنه سيد البشرية، عليه صلوات وسلام رب البرية: «لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ، فَلَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا، وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ»(١).

هو سابع سلاطين الدولة العثمانية، وفاتح القسطنطينية، القاضي على الإمبراطورية البيزنطية، ومدمر أسطورة دراكولا الدموية...

إنه السلطان الأسطورة محمد الفاتح...

الذي كان شجاعًا قويًا، مِقدامًا أبيًا، حكيمًا ذكيًا، عبقريًا ألمعيًا، ونحسبه كان عند ربه مرضيًا!.

فهو صاحب بشارة رسول الله ﷺ في فتح القسطنطينية، ذلك الفتح الذي سأذكره بشيء من التفصيل، حتى يزول عنك الإحساس الذي قد يخطر لك بأنني بالغت في وصف هذا العملاق الأسطوري...

---

١- رواه أحمد (١٨٩٥٧) والحاكم وصححه، وضعفه الألباني.

هذا العملاق الذي فتح القسطنطينية وهو لم يكن قد تجاوز الثالثة والعشرين من عمره!.

فتح القسطنطينية، وما أدراك ما القسطنطينية؟ إنها تلك المدينة التي كتب عنها (نابليون بونابرت) في مذكراته من منفاه في جزيرة (سانت هيلينا) أنها عاصمة العالم بأسره إذا ما كان العالم دولةً واحدة، بل إنها المدينة التي حظيت باهتمام شخصي من رسول اللَّه ﷺ على عظمته وقدره، ليس من أجل جمال طبيعتها الخلابة وموقعها الاستراتيجي الخطير بين أوروبا وآسيا، بل لأن القسطنطينية كانت هي عاصمة الكفر في العالم آنذاك، ولتقريب الصورة أكثر فإن القسطنطينية كانت بمثابة (الفاتيكان) قبل فتح المسلمين لها، بل إن اسم القسطنطينية مشتق من اسم الإمبراطور الروماني (قسطنطين) واضع أسس الديانة المسيحية الحديثة التي تعتقد بألوهية المسيح عليه السلام، أضف إلى ذلك أن رسول اللَّه ﷺ قد مدح فاتح القسطنطينية بنفسه عندما قال: "لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش"، لذلك أراد كل قائدٍ عظيم من عظماء المسلمين أن ينال هو شرف فتحها ليكون صاحب بشارة رسول اللَّه ﷺ، فحاصرها المسلمون إحدى عشرة مرة، فكان أولهم هو يزيد بن معاوية رحمه اللَّه، ثم حاول القائد الأموي البطل مسلمة ابن عبد الملك بن مروان رحمه اللَّه الكرة مرتين على القسطنطينية، الأولى في عهد الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، والثانية في عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز[1].

وعلى الرغم من أن فتح القسطنطينية وحده يؤهل السلطان محمَّد الفاتح لكي ينضم إلى قافلة الأساطير، إلّا أن الفاتح لم يكتفِ بذلك، فعظمة السلطان محمَّد

---

١- مائة من عظماء الإسلام للترباني (٢٢١، ٢٢٢) بتصرف.

الفاتح لا تكمن فقط في كونه هو الرجل الذي فتح القسطنطينية فحسب، بل تكمن فيما فعله لفتح هذه المدينة العظيمة، وما فعله كذلك بعدها:

فقد بذل السلطان محمد الفاتح جهودًا خارقة في مجال التخطيط لفتح القسطنطينية، كما بذل جهودًا كبيرة في دعم الجيش العثماني بالقوى البشرية، حتى وصل تعداده إلى قرابة ربع مليون مجاهد. وهو عدد كبير إذا قُورن بجيوش الدول في تلك الفترة، كما عُنيَ بتدريب تلك الجموع على فنون القتال المختلفة، وبمختلف أنواع الأسلحة، التي تؤهلهم للجهاد المنتظر. كما اعتنى الفاتح بإعدادهم إعدادًا معنويًا قويًا، وغرس روح الجهاد فيهم، وتذكيرهم بثناء الرسول ﷺ على الجيش الذي يفتح القسطنطينية، وعسى أن يكونوا هم هذا الجيش المقصود بذلك.

وفي الناحية التكتيكية العسكرية بدأ محمد الفاتح خطوة عملية كبيرة حين صمَّمَ على إقامة قلعة روملي حصار في الجانب الأوروبي على مضيق البسفور في أضيق نقطة منه مقابل القلعة التي أسست في عهد السلطان بايزيد في البر الآسيوي.

وقد حاول الإمبراطور البيزنطي إثناء السلطان الفاتح عن عزمه في بناء القلعة مقابل التزامات مالية تعهّد بها، إلا أن الفاتح أصرَّ على البناء؛ لما يعلمه من أهمية عسكرية لهذا الموقع، حتى اكتملت قلعةً عاليةً ومحصنةً، وصل ارتفاعها إلى ٨٢م، وأصبحت القلعتان متقابلتين، ولا يفصل بينهما سوى ٦٦٠م تتحكمان في عبور السفن من شرقي البسفور إلى غربيِّه، وتستطيع نيران مدافعهما منع أي سفينة من الوصول إلى القسطنطينية من المناطق التي تقع شرقها مثل مملكة طرابزون، وغيرها من الأماكن التي تستطيع دعم المدينة عند الحاجة[1].

---

١- الدولة العثمانية للصلابي (١٠٦ : ١٢٥)، تاريخ الدولة العلية لمحمد فريد (١٦١)، الفتوح الإسلامية لعبدالعزيز العمري (٣٥٩، ٣٦٠).

كما اعتنى السلطان بتطوير الأسلحة اللازمة لهذه العملية المقبلة، ومن أهمها المدافع، التي أخذت اهتمامًا خاصًا منه؛ حيث أحضر مهندسًا مجريًا يُدعى (أوربان) كان بارعًا في صناعة المدافع، فأحسن استقباله، ووفّر له جميع الإمكانيات المالية والمادية والبشرية، وقد تمكن هذا المهندس من تصميم وتنفيذ العديد من المدافع الضخمة، كان على رأسها المدفع السلطاني المشهور، والذي ذكر أن وزنه كان يصل إلى مئات الأطنان، وأنه يحتاج إلى مئات الثيران القوية لتحريكه.

كما أعطى الفاتح عناية خاصة بالأسطول العثماني؛ حيث عمل على تقويته، وتزويده بالسفن المختلفة ليكون مؤهلاً للقيام بدوره في الهجوم على القسطنطينية، وهي مدينة بحرية لا يكمل حصارها دون وجود قوة بحرية تقوم بهذه المهمة، وقد ذُكر أن السفن التي أعدت لهذا الأمر بلغت أكثر من أربعمائة سفينة[1].

**ثم كان الزحف ...**

ثم زحف السلطان محمد الفاتح على القسطنطينية فوصلها في (٢٦ربيع الأول ٨٥٧هـ - السادس من إبريل سنة ١٤٥٣م)، فحاصرها من البر بمائتين وخمسين ألف مقاتل، ومن البحر بأربعمائة وعشرين شراعًا، فوقع الرعب في قلوب أهل المدينة؛ إذ لم يكن عندهم من الحامية إلا خمسة آلاف مقاتل، معظمهم من الأجانب، وبقي الحصار (٥٣ يومًا)، لم ينفك العثمانيون أثناءها عن إطلاق القنابل[2].

ومن الخطوات القوية التي قام بها الفاتح، قيامه بتمهيد الطريق بين أدرنة والقسطنطينية؛ لكي تكون صالحة لجرّ المدافع العملاقة خلالها إلى القسطنطينية، وقد تحركت المدافع من أدرنة إلى قرب القسطنطينية في مدة شهرين؛ حيث تمت

١- الفتوح الإسلامية عبر العصور للعمري (٣٦١) بتصرف.

٢- مصر والعالم سنة صدور الهلال العام المائة (٣١٤، ٣١٥).

حمايتها بقسم من الجيش حتى وصلت الأجناد العثمانية يقودها الفاتح بنفسه إلى مشارف القسطنطينية، فجمع الجند، وكانوا قرابة مائتين وخمسين ألف جندي، فخطب فيهم خطبًا قوية حثهم فيها على الجهاد، وطلب النصر أو الشهادة، وذكَّرَهم فيها بالتضحية، وصدق القتال عند اللقاء، وقرأ عليهم الآيات القرآنية التي تحثُّ على ذلك، كما ذكر لهم الأحاديث النبوية التي تبشِّر بفتح القسطنطينية، وفضل الجيش الفاتح لها وأميره، وما في فتحها من عزٍّ للإسلام والمسلمين. وقد بادر الجيش بالتهليل والتكبير والدعاء، وكان العلماء ينبثون في صفوف الجيش مقاتلين ومجاهدين معهم؛ مما أثر في رفع معنوياتهم، حتى كان كل جندي ينتظر القتال بفارغ الصبر؛ ليؤدي ما عليه من واجب.

ومن ثَمّ قام السلطان محمد الفاتح بتوزيع جيشه البريِّ أمام الأسوار الخارجية للمدينة، مشكِّلاً ثلاثة أقسام رئيسية تمكنت من إحكام الحصار البري حول مختلف الجهات، كما أقام الفاتح جيوشًا احتياطية خلف الجيوش الرئيسية، وعمل على نصب المدافع أمام الأسوار، ومن أهمها المدفع السلطاني العملاق، الذي أقيم أمام باب طوب قابي. كما وضع فرقًا للمراقبة في مختلف المواقع المرتفعة والقريبة من المدينة، وقد انتشرت السفن العثمانية في المياه المحيطة بالمدينة، إلا أنها في البداية عجزت عن الوصول إلى القرن الذهبي؛ حيث كانت السلسلة العملاقة تمنع أي سفينة من دخوله، بل وتحطم كل سفينة تحاول الاقتراب.

### التحدي الكبير، والحيلة العبقرية...

وكان هذا القرن الذهبي وسلسلته هو التحدي أمام العثمانيين، فالحصار بالتالي لا يزال ناقصًا ببقاء مضيق القرن الذهبي في أيدي البحرية البيزنطية، ومع ذلك فإن

الهجوم العثماني كان مستمرًا دون هوادة؛ حيث أبدى جنود الانكشارية شجاعة عجيبة وبسالة نادرة، فكانوا يُقدِمون على الموت دون خوف في أعقاب كل قصف مدفعي. وفي يوم ١٨ إبريل تمكنت المدافع العثمانية من فتح ثغرة في الأسوار البيزنطية عند وادي ليكوس في الجزء الغربي من الأسوار، فاندفع إليها الجنود العثمانيون بكل بسالة محاولين اقتحام المدينة من الثغرة، كما حاولوا اقتحام الأسوار الأخرى بالسلالم التي ألقوها عليها، ولكن المدافعين عن المدينة بقيادة (جستنيان) استماتوا في الدفاع عن الثغرة والأسوار، واشتد القتال بين الطرفين دون جدوى.

**فماذا كانت الحيلة؟!**

لكن الله ألهم السلطان الفاتح طريقةً يستطيع بها إدخال سفنه إلى القرن الذهبي دون الدخول في قتال مع البحرية البيزنطية متجاوزًا السلسلة التي تغلق ذلك القرن، وهذه الطريقة تتمثل في جرّ السفن العثمانية على اليابسة حتى تتجاوز السلسلة التي تغلق المضيق والدفاعات الأخرى، ثم إنزالها مرة أخرى إلى البحر. وقد درس الفاتح وخبراؤه العسكريون هذا الأمر، وعرفوا ما يحتاجونه من أدوات لتنفيذه، والطريق البرية التي ستسلكها السفن، والتي قدرت بثلاثة أميال. وبعد دراسة دقيقة ومتأنية للخطة اطمأنّ الفاتح للفكرة، ولقي التشجيع من المختصين لتنفيذها، وبدأ العمل بصمتٍ على تسوية الطريق وتجهيزها، دون أن يعلم البيزنطيون الهدف من ذلك، كما جمعت كميات كبيرة من الأخشاب والزيوت.

وبعد إكمال المعدات اللازمة أمر الفاتح في مساء يوم ٢١ إبريل بإشغال البيزنطيين في القرن الذهبي بمحاولات العبور من خلال السلسلة، فتجمعت القوات البيزنطية منشغلة بذلك عما يجري في الجهة الأخرى؛ حيث تابع السلطان مدّ الأخشاب على

الطريق الذي كان قد سوِّي، ثم دهنت تلك الأخشاب بالزيوت، وجرت السفن من البسفور إلى البرّ؛ حيث سحبت على تلك الأخشاب المدهونة بالزيت مسافة ثلاثة أميال، حتى وصلت إلى نقطة آمنة فأنزلت في القرن الذهبي، وتمكن العثمانيون في تلك الليلة من سحب أكثر من سبعين سفينة وإنزالها في القرن الذهبي على حين غفلة من العدو، بطريقٍ لم يُسبَق إليها السلطان الفاتح في التاريخ كله قبل ذلك.

وقد كان القائد محمد الفاتح يشرف بنفسه على العملية التي جرت في الليل بعيدًا عن أنظار العدو ومراقبته. وفي صباح ٢٢ إبريل استيقظ أهل المدينة على صيحات العثمانيين وأصواتهم يرفعون التكبير والأناشيد التركية في القرن الذهبي، وفوجئوا بالسفن العثمانية وهي تسيطر على ذلك المعبر المائي، ولم يعد هناك حاجز مائي بين المدافعين عن القسطنطينية وبين الجنود العثمانيين!.

**طرقٌ مبتكرة...**

وقد لجأ العثمانيون في المراحل المتقدمة من الحصار إلى طريقة جديدة ومبتكرة في محاولة دخول المدينة؛ حيث عملوا على حفر أنفاق تحت الأرض من أماكن مختلفة إلى داخل المدينة، التي سمع سكانها في ١٦ مايو ضربات شديدة تحت الأرض أخذت تقترب من داخل المدينة بالتدريج، فأسرع الإمبراطور بنفسه ومعه قُوّاده ومستشاروه إلى ناحية الصوت، وأدركوا أن العثمانيين يقومون بحفر أنفاق تحت الأرض(١).

وإلى جانب ذلك لجأ العثمانيون إلى طريقة جديدة في محاولة الاقتحام، وذلك بأن صنعوا قلعة خشبية ضخمة متحركة تتكون من ثلاثة أدوار، وبارتفاع أعلى من الأسوار، وقد كسيت بالدروع والجلود المبللة بالماء لتمنع عنها النيران، وشحنت تلك

---

١- الفتوح الإسلامية للعمري (٣٦٤، ٣٧٢) بتصرف.

القلعة بالرجال في كل دور من أدوارها، وكان الذين في الدور العلوي من الرماة يقذفون بالنبال كل من يطل برأسه من فوق الأسوار.

وقد عمد السلطان محمد الفاتح إلى تكثيف الهجوم، وخصوصًا القصف المدفعي على المدينة في ظل سيطرته البحرية الكاملة، حتى إن المدفع السلطاني الضخم انفجر من كثرة الاستخدام، وقتل المشغّلين له، وعلى رأسهم المهندس المجري أوربان، الذي تولى الإشراف على تصميم المدفع. ومع ذلك فقد وجّه السلطان بإجراء عمليات تبريد للمدافع بزيت الزيتون، وقد نجح الفنيون في ذلك، وواصلت المدافع قصفها للمدينة مرة أخرى، بل تمكنت من توجيه القذائف بحيث تسقط وسط المدينة، إضافةً إلى ضربها للأسوار والقلاع.

وفي يوم الأحد ١٨جمادى الأولى الموافق ٢٧ من مايو وجّه السلطان الجنود إلى الخشوع، وتطهير النفوس، والتقرب إلى الله تعالى بالصلاة، وعموم الطاعات والتذلل، والدعاء بين يديه؛ لعل الله أن ييسر لهم الفتح. وانتشر هذا الأمر بين عامة الجند المسلمين، كما قام الفاتح بنفسه ذلك اليوم بتفقد أسوار المدينة، ومعرفة آخر أحوالها، وما وصلت إليه، وأوضاع المدافعين عنها في النقاط المختلفة، وحدّد مواقع معينة يتم فيها تركيز القصف المدفعي.

وفي ليلة ٢٩ مايو نزلت بعض الأمطار على المدينة وما حولها، فاستبشر بها المسلمون خيرًا، وذكّرهم العلماء بمثيلتها يوم بدر، أما الروم فقد طمعوا أن تشتد الأمطار فتعرقل المسلمين، ولكن هذا لم يحدث، فقد كان المطر هادئًا ورفيقًا.

وعند الساعة الواحدة صباحًا من يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى ٨٥٧ هـ/ ٢٩ مايو ١٤٥٣م بدأ الهجوم العام على المدينة بعد أن أعطيت إشارة البدء للجنود، فعلت

أصوات الجند المسلمين بالتكبير وهم منطلقون نحو الأسوار، وفزع أهل القسطنطينية وأخذوا يدقون نواقيس الكنائس، وهرب إليها كثير من الناس، وكان الهجوم العثماني متزامنًا بريًا وبحريًا في وقت واحد حسب خطة دقيقة رسمت سابقًا، وطلب كثير من المجاهدين الشهادة، ونالها أعداد كبيرة منهم بكل شجاعة وتضحية وإقدام، وكان الهجوم موزعًا في العديد من المناطق، ولكنه مركّز بالدرجة الأولى في منطقة وادي ليكوس بقيادة السلطان محمد الفاتح نفسه.

**ثم كان الفتح العظيم...**

ومع ظهور نور الصباح في يوم ٣٠ مايو ١٤٥٣م أضحى المهاجمون يتمكنون من تحديد مواقع العدو بدقة أكثر، وأخذوا في مضاعفة الجهد في الهجوم؛ مما جعل الإمبراطور (قسطنطين) يتولى شخصيًا مهمة الدفاع في تلك النقطة، يشاركه في ذلك (جستنيان الجنويِّ) أحد القادة المشهورين في الدفاع عن المدينة.

وقد واصل العثمانيون ضغطهم في جانب آخر من المدينة؛ حيث تمكن المهاجمون من ناحية باب أدرنة من اقتحام الأسوار والاستيلاء على بعض الأبراج، والقضاء على المدافعين فيها، ورفع الأعلام العثمانية عليها، وتدفق الجنود العثمانيون نحو المدينة من تلك المنطقة. ولما رأى الإمبراطور البيزنطي الأعلام العثمانية ترفرف على الأبراج الشمالية للمدينة، أيقن بعدم جدوى الدفاع، وخلع ملابسه حتى لا يُعرف، ونزل عن حصانه، وقاتل حتى هلك في ساحة المعركة. وكان لانتشار خبر موته دور كبير في زيادة حماس المجاهدين العثمانيين وسقوط عزائم البيزنطيين؛ حيث تمكنت بقية الجيوش العثمانية من دخول المدينة من مناطق مختلفة، وفر المدافعون بعد انتهاء قيادتهم. وهكذا تمكن المسلمون من الاستيلاء على المدينة.

ولم تأت ظهيرة ذلك اليوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى ٨٧٥هـ الموافق ٢٩ من مايو ١٤٥٣م، إلا والسلطان محمد الفاتح في وسط المدينة يحف به جنده وقواده وهم يرددون: ما شاء الله! فالتفت إليهم وقال: لقد أصبحتم فاتحي القسطنطينية، الذين أخبر عنهم رسول الله ، وهنَّأَهم بالنصر، ونهاهم عن القتل، وأمرهم بالرفق بالناس، والإحسان إليهم. ثم ترجل عن فرسه، وسجد لله على الأرض شكرًا وحمدًا وتواضعًا، ثم قام وتوجه إلى كنيسة (آيا صوفيا)، وقد اجتمع بها خلقٌ كبير من الناس ومعهم القُسُسُ والرهبان، الذين كانوا يتلون عليهم صلواتهم وأدعيتهم، فلما اقترب من أبوابها خاف النصارى داخلها ووجلوا وجلاً عظيمًا، وقام أحد الرهبان بفتح الأبواب له، فطلب من الراهب تهدئة الناس وطمأنتهم والعودة إلى بيوتهم بأمان، فاطمأن الناس، وكان بعض الرهبان مختبئين في سراديب الكنيسة، فلما رأوا تسامح محمد الفاتح وعفوه، خرجوا وأعلنوا إسلامهم![1].

وقد أعطى السلطان للنصارى حرية إقامة الشعائر الدينية، واختيار رؤسائهم الدينيين، الذين لهم حق الحكم في القضايا المدنية، كما أعطى هذا الحق لرجال الكنيسة في الأقاليم الأخرى.

وهكذا نجح محمد الفاتح بعمل أسطوري يكاد يكون عملاً خارقًا.. وباعتمادٍ كامل على الله، وبعزيمة لا تعرف اليأس، وإصرار عجيب على أن يكون هو المقصود بحديث الرسول محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، الذي يخبر فيه عن فاتح القسطنطينية بأنه «نِعْم الأمير»، وبأن الجيش الذي يفتحها «نِعْم الجيش، وكان التاريخ كذلك شاهدًا على حلم ورحمة وإنسانية الفاتح، في لحظة الانتصار الكاسح![2].

١- الدولة العثمانية للصلابي (١٢٤ : ١٤٥) بتصرف، الفتوح الإسلامية للعمري (٣٧٣ : ٣٩٠).
٢- محمد الفاتح – من مدونة د. عبدالحليم عويس بتصرف.

**وماذا بعد الفتح؟!**

قام الفاتح رحمه اللَّه بتحويل اسم (القسطنطينية) إلى (إسلامبول) أي (مدينة الإسلام)، ثم حُرِّفت بعد ذلك إلى (إسطانبول)، وكما ذكرتُ آنفًا، أمر هذا الخليفة المسلم بالعفو عن جميع النصارى في القسطنطينية، وأمَّنهم على أرواحهم وممتلكاتهم، وأمر بترك نصف عدد الكنائس للنصارى وتحويل النصف الآخر إلى مساجد يذكر فيها اسم اللَّه، على الرغم من أن قانون الحرب في ذلك الزمان يتيح للفاتح أن يفعل ما يراه في البلد المفتوح، ثم دعا الفاتح السكان الهاربين - من أرثوذكس وكاثوليك ويهود - إلى العودة إلى بيوتهم بالمدينة وأمنّهم على حياتهم، كذلك أطلق السلطان محمَّد الفاتح سراح السجناء من جنود وسياسيين، ليسكنوا المدينة ويرفعوا من عدد سكانها، وأرسل إلى حكَّام المقاطعات في الروملي والأناضول يطلب منهم أن يرسلوا أربعة آلاف أسرة لتستقر في العاصمة، سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهود، وذلك حتى يجعل من مجتمعها مجتمعًا متعدد الثقافات. وأمر ببناء المعاهد والقصور والمستشفيات والخانات والحمامات والأسواق الكبيرة والحدائق العامة، ولم يكتفِ هذا الأمير الإسلامي الأسطوري بفتح القسطنطينية التي تكفل له الخلود في صفحات التاريخ الإنساني...

بل قام أيضًا بفتح بلاد الأفلاق (رومانيا)، وبلاد البوشناق (البوسنة والهرسك)، وبلاد البغدان (مولدافيا)، وبلاد القرم (أوكرانيا)، وبلاد القرمان (جنوب تركيا)، وفتح الفاتح بلاد الفلاخ الرومانية بعد أن هزم ملكها السفاح (دراكولا)!!!.

نعم (دراكولا) مصاص الدماء الشهير، ولنا معه وقفة ليست بالقصيرة، ولكن أختم بها، بعد استكمال فتوحات هذا الفاتح العظيم.

وفتح الفاتح (بلغاريا) و(ألبانيا) و(المجر) و(ألبانيا) و(مقدونيا) و(الجبل الأسود - مونتينيغرو) و(كرواتيا) و(صربيا) و(سلوفينيا) و (سلوفاكيا)، وفتح الفاتح بلاد الإغريق (اليونان) مُحَافِظًا على تراثها القديم، كما فتح الفاتح (المجر) وأجزاء من (روسيا) وحاصر (رودس)، وفتح جنوب (إيطاليا) لكي ينال شرف فتح القسطنطينية وروما في آن واحد، وفعلا تقدم نحو روما، إلا أن اللَّه سبحانه وتعالى أراده إلى جواره بعمر ٥٣ سنة فقط قضاها في نشر دين اللَّه في أصقاع أوروبا، ولكي تنتهي بذلك قصة أسطورة إسلامية عظيمة، احتفل بابا روما شخصيًا ثلاثة أيام بموته.

وقال عنه المؤرخ الفرنسي الشهير (جي بيه): ينبغي على جميع النصارى في العالم أن يدعو الرب ألا يظهر مرةً أخرى رجلٌ في صفوف المسلمين مثل السلطان محمَّد الثاني[1].

**تحطيم أسطورة دراكولا...**

ومن هنا ألتقط طرف الخيط لأعود إلى قصة الأسطورة الحقيقية محمد الفاتح، مع الأسطورة الوهمية الدموية المزيفة الشهيرة بـ(دراكولا)...

تلك القصة التي زيَّفَها الغربيون، وزوَّرُوا بها تاريخهم المأفون، وشوَّهوا بها الحقيقة التي منها يتنصَّلون، يكذبون ويُدَلِّسون، وللواقع يُبَدِّلُون، وللأحداث يُحَرِّفون، وللحقائقِ يطمِسُون، والطامةُ أن أكثر شبابِ المسلمينَ بها مفتونون، لأنهم في الحقيقة مخدوعون، ليظهرَ في النهاية أننا بنظرية المؤامرة موَّهُومُون، ووالله وبالله وتالله إنكم لمستهدفون!.

تلك القصة التي صوَّرَها أو بتعبير أدق نكَّسَها الغرب في الفيلم الهوليودي عظيم الإنتاج (القصة غير المروية عن دراكولا - Dracula Untold).

---

١- مائة من عظماء الإسلام للترباني (٢٢٢ : ٢٢٤) بتصرف.

هذا الفيلم الذي جاء بعد سلسلة من الأفلام التي تصور (دراكولا) بمصاص الدماء الشرير، والتي سُبِقَتْ برواية الكاتب الأيرلندي (برام ستوكر) عام ١٨٩٧م بعنوان (الذي لا يموت)، ثم جرى تعديلها عقب ذلك إلى (دراكولا)، والتي لا يوجد منها سوى نسخة واحدة طرحت قبل عدة سنوات في مزاد علني.

صوَّر الفيلم (دراكولا) مصَّاص الدماء، على أنه البطل الشرير الذي استطاع أن ينقذ أهله وبلده من الأتراك الأشرار بالتعاون مع الشيطان نفسه ليصبح ابن الشيطان.

فالشرير الذي تحول على مرَّ الزمن إلى حكايات يخاف منها الصغار، صار في هذا الفيلم أقلَّ شرًّا مما كان عليه في الأفلام السابقة، لأنه سيمثل هنا دور الخير، وسيكون هناك من هو أشرُّ منه، وسيكون هو هنا مدافعًا عن أهله مقابل الشرير الحقيقي، فاتح القسطنطينية وسلطان المسلمين: محمد الفاتح، الذي يصوره الفيلم على أنه شريرٌ يقتلُ وينهب بلا ضمير باسم الإله (الله)، لينتصر (دراكولا) في نهاية الفيلم.

والحقيقة أن (دراكولا) شخصية حقيقية، تولى حكم رومانيا في القرن الخامس عشر، اعتبره الرومانيون بطلًا قوميًا أنقذ أوروبا من الغزو العثماني، بينما هو في الحقيقة مجرمٌ أفَّاك أنهى حياة أكثر من ١٠٠ ألف شخص دون شفقةٍ أو رحمة.

اسمه الحقيقي (فلاد الثالث)، حكم رومانيا لفترات متقطعة امتدت إجمالاً لسبع سنوات بين ١٤٥٥ و١٤٧٨م، ولُقب بـ(دراكولا)، لانضمامه لما يُسمى بـ(عصبة التنين)، التي كانت اتحادًا سريًا ضم مجموعة من أمراء ونبلاء أوروبا الوسطى والشرقية للوقوف ضد المد العثماني، ويعني اسم (دراكولا) باللاتيني (ابن التنين)، أما في الرومانية الحديثة فتعني (ابن الشيطان).

**الحقيقة القبيحة للأسطورة الخبيثة (دراكولا) ...**

فترة حكم (دراكولا)، كما أشرتُ، لم تتجاوز إجمالًا السبعة أعوام وهي مدة قصيرة جدًا مقارنة بأعداد البشر الذين قتلهم، والذين ناهز عددهم المائة ألف إنسان، أغلبهم من الأتراك والبويار.

لقد ابتدع له خياله المريض في وسائل القتل أفانينَ شتى لا تخطر حتى ببال إبليس، إلى درجة أنه لُقِّبَ بـ(فلاد المخزوق) لاستخدامه (الخازوق) - وهي إدخال الرمح المدبب في المؤخرة حتى يخرج من الفم - في القضاء على خصومه، واخترع آلات خاصة لتقطيع أوصال الناس وتفريمها ثم سلقها بالماء، كما اخترع أوعية أخرى كبيرة يسلق فيها من يشاء علي نار هادئة!.

لقد كان من أحب الأشياء إلي نفسه أن يتملَّى وينظر إلي مشاهد التعذيب والآلام ويطرب لسماع أنَّاتِ المعذبين، وكان لا يتناول طعامه مع رجاله إلا وحوله أعمدة الخوازيق، والناس منصوبون عليها يئنُّون حتى الموت!.

ذُكِرَ أنه لقيَ ذات يوم راهبًا يركب حمارًا وأعجبه هذا المنظر، فأمر بخوزقتهما معًا بالخوازيق وتثبيتهما معًا علي هذه الصورة، كما خوزق ٥٠٠ شخص من المنتسبين إلى الأسر العريقة، ويقال إنه استمتع عندما خوزق ٦٠٠ تاجر أجنبي، كما رمى ٤٠٠ طالب في نارٍ كبيرة أشعلها لهذا السبب، وأجبر الأطفال على أكل لحم أمهاتهم اللاتي قَتَلَهُنَّ، وقطع ثدي بعض الأمهات، وخاطَ محلها رؤوس أولادهن، كما جمع كل متسولي البلد وقدم لهم الطعام والشراب، ثم قام بإحراقهم شَيًّا، وسلخ جلود أرجل الأسرى الأتراك ثم مسحها بالملح، وجعل الأغنام تلحسها!.

وجاءه مرة جماعةٌ من التتار ليطلبوا منه العفو عن رجلٍ منهم كان قد سرق وحُكِمَ عليه بالشنق، فما كان من (دراكولا) إلا أن أمرهم أن يقوموا هم أنفسهم بتعذيبه، فلما اعتذروا أمر بطبخ السارق وأكره أصحابه على أن يأكلوا من لحمه، وزاره ذات يومٍ ضيفٌ فأخذا يتنزهان فمرا ببعض الجثث وقد نتنت وأفسدت الهواء، فقال له (دراكولا): ألا تشم هذا العبير؟ فعجب صاحبه وأجاب نفيًا، فغضب ونصبه علي خازوق أطول من الخوازيق العادية حتي لا تصل إليه هذه الرائحة الكريهة!.

وغير ذلك من الجرائم، التي قتل من خلالها بين عشرين وثلاثين ألف إنسان، فقط للاستمتاع، ولذلك أطلق المؤرخ (دورسون بك)، المعاصر للسلطان محمد الفاتح، عليه اسم (حجاج الكفار).

كما هاجم (دراكولا) مدينة (براشوف) الرومانية، معقل البويار، للانتقام منهم، وأعدم قرابة ٣٠,٠٠٠ من تجار المدينة وقادتها خزقًا صبيحة الاحتفال بعيد القديس (برثولماوس) في ١١ يونيو ١٤٥٩م، بعد اتهامه إياهم بالفساد والتآمر على (والاكيا)، بعدها خلد إلى الراحة وتناول الغذاء وسط الجثث المعلقة على الخوازيق، تاركًا إياها للتعفن، تحذيرًا منه لكل من تُسوِّل له نفسه الخروج عن طاعته، كما أغار على مدينة (سيبيو) بترانسيلفانيا عام ١٤٦٠م وأعدم ١٠,٠٠٠ من أهلها.

علم السلطان محمد بأن أمير الفلاخ (دراكولا) قد ارتكب بحق المسلمين في بلاده من التجار وغير التجار، فظائع رهيبة من قتل وسبي ونهب للأموال، فأسرع السلطان محمد لقيادة جيشه وسار به لتأديب هذا المتمرد، ولما اقترب من حدود إقليم الفلاخ (رومانيا)، أرسل (دراكولا) وفدًا عرض على السلطان محمد الخضوع، ودفع جزية سنوية قدرها عشرة آلاف دوكا، والالتزام بكافة الشروط التي نصت عليها معاهدة

سنة ١٣٩٣م، والتي كانت قد أُبرمت بين أمير الفلاخ إذ ذاك وبين السلطان مراد، فقبل السلطان محمد، وعاد بجيوشه، ولكن سرعان ما تبين أن العرض الذي تقدم به (دراكولا) إلى السلطان محمد لم يكن إلا وسيلةً لكسب الوقت، وإكمال استعداداته القتالية، وتنسيق التعاون بينه وبين ملك المجر لحرب المسلمين، وعلم السلطان محمد باتفاق (دراكولا) وملك المجر على حربه، فأرسل مندوبين من قِبَلِه لاستيضاح حقيقة الموقف، فما كان من (دراكولا) إلا أن ألقى القبض عليهما، وقتلهما بوضعهما على عمود خشبي محدد (خازوق)، وأغار بعدها على بلاد (بلغاريا) التابعة للدولة العثمانية فقتل وسبى ونهب وعاث في البلاد فسادًا، وعاد ومعه خمسة وعشرون ألف أسيرٍ من المسلمين. فأرسل إليه السلطان محمد يدعوه إلى الطاعة، وإخلاء سبيل الأسرى.

بعث السلطان محمد الفاتح رسلًا لمفاوضة (دراكولا) فلما مثلوا أمامه أمرهم بخلع عمائمهم، فأبوا ذلك، فقال لهم (دراكولا): حسنًا، سأكفيكم مؤنة هذا العمل إلى الأبد، وأمر بدقٍّ عمائمهم على رؤوسهم بالمسامير وهم أحياء حتى ماتوا من شدة الألم.

وأمر بالأسرى الأتراك الخمسة وعشرين ألفًا بأن يُخوزقوا بالخوازيق، ويُعلقوا في الصحراء.

حينما رأى السلطان محمد الفاتح هذا المنظر المروع هاله هذا الأمر ولم يملك دفع أثره عن نفسه، فقد شهد أمامه فضاء يمتد نحو نصف فرسخ مليء بالخوازيق نصب عليه أكثر من عشرين ألف شخص من الأتراك والبلغار، وقد تميز من بينها خازوق طويل علا في الجو يحمل على قمته (حمزة باشا) صديقه وقائده الذي أرسله بالجيش لقتاله، وكانت خوازيق أخرى نُصبت عليها أمهات وإلى جانبهن أطفالهن،

وقد افترست النسور أحشائهم، ولم يملك السلطان إلا أن صاح بقوله: كيف نستولي علي بلدٍ من رجلٍ لا يتورع من هذه الأفاعيل؟ إن شخصًا كهذا لا يستحق التقدير.

ثم كانت نهاية (دراكولا) علي يد البطل السلطان محمد الفاتح وليس مستذئب كما تقول الأفلام...

لم يستطع الجيش العثماني مواصلة المطاردة بسبب انتشار الأوبئة والأمراض نتيجة للجثث المتعفنة، فأرسل مجموعة من خيرة جنود الانكشارية والسباهية على رأسها الأمير (رادو) أو (راؤول) شقيق (دراكولا) الذي أسلم وظل مخلصًا مع السلطان محمد الفاتح لملاحقة (فلاد دراكولا).

حاصر (رادو) بجيش الانكشارية المتمرس قلعة (دراكولا)، فعلم (دراكولا) أنه لن ينتصر في المواجهة المباشرة، ففر هارباً لوحده بمساعدة الغجر.

جلس (رادو) على عرش ولاشيا بعد هرب (دراكولا) ، وأرسل للفاتح يبشره بالنصر، أما (دراكولا) فوقع في أسر المجر، وفجأة توفي (رادو) عام ١٤٧٥م، فأطلق المجريون (فلاد دراكولا) من الأسر ودعموه بقوة من الجيش لاسترداد (ولاشيا) من العثمانيين وفوراً تحرك الجيش العثماني الرهيب وجرت المعركة بالقرب من (بوخارست) وأباد الجيش العثماني الجيش المجري عن بكرة أبيه، ودمَّر السلطان الأسطوري العظيم (محمد الفاتح)، أسطورة الخزي والعار (فلاد دراكولا) وأرسل رأسه إلى (إسلامبول)، وأمر الفاتح بدفن جثته بغير جنازة وتعليق رأسه على خازوق، ليكون عبرةً لغيره. والعجيب أن بعض الرومانيين لا زالوا ينظرون لـ(فلاد دراكولا) أنه بطل قومي رغم كمية الخوازيق التي أهداهم إياها[1].

---

١- انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد بك، بتصرف.

كلُّ هذا وغيره الكثير والكثير، ثم بعد ذلك يكون (دراكولا) هو الأسطورة المنقذ، ممثلًا لقوى الخير، ويكون السلطان (الفاتح) هو الجاني والظالم والمجرم الذي عُدِم الإنسانية ممثلًا لقوى الشر!.

ولكن هيهات هيهات...

والله لو قام النصارى كُلُّهُم .. طمعًا لحَجْبِ الشمسِ ليست تُحْجَبُ

والله لو جاؤوا بكلِّ عتادهم .. ليُشَوِّهُوا وجهَ الجمالِ لَخُيِّبُوا

والذي لا يعرفه الكثير عن سيرة هذا الأمير الإسلامي العظيم، أنه لم يكن بطلًا عسكريًا فحسب، بل كان شاعرًا من أعظم شعراء المسلمين على مر التاريخ، وله ديوان في غاية الروعة والبلاغة، كما كان هذا العملاق التركي حافظًا لكتاب اللَّه، عاملًا بسنة رسوله ﷺ، مُعظمًا للعلم والعلماء، وكان يتقن إلى جانب اللغة التركية، عددًا من اللغات وهي: الفرنسية، اللاتينية، اليونانية، الصربية، الفارسية، العربية، والعبرية!.

كما كان أعوانه يشاهدونه يبكي في ظلمات الليل وهو يصلي للَّه ويتضرع له!. وحسبه شهادة رسول الله ﷺ: "...فنعم الأميرُ أميرُها...".

## أبو إسحاق السُّرْمَارِي

«مَا بَلَغَنَا أَنَّهُ كَانَ فِي الإِسْلاَمِ وَلاَ الجَاهِلِيَّةِ مِثْلُهُ»

البخاري

إنه فارسُ الإسلامِ الأسطوريّ، وشيخ الإمام البخاريّ، أحمدُ بنُ إسحاقَ السُّرْمَارِيّ...

خرجَ مع صاحبٍ له إلى بلاد الغُزَيَّة، فرَأَى في جيْشِهم فارسًا يعظِّمونه يعدِلُ عندهم ألفَ فارس، فاستعدَّ لِبِرَازه، وخرج له من الغدِ بعمودٍ في كُمِّه، وتظاهر أمامه بالانهزام حتى أبعده عن جيشه، ثم عطفَ عليه بالعَمُود فضربه به فقتله وهرب لقومه، فأرسلوا من خِيرَةِ فُرْسانهم خمسين في طلبه، فثَبَتَ تحت تَلٍّ حتى جازُوه، ثم كَرَّ عليهم من خلفهم بعموده يضربهم واحدًا واحدًا، حتى قتل تسعةً وأربعين وأمسك الأخير فقطع أنفه وأذنَيْه وأطلقَهُ ليكون لمن خلفه آية!.

فلله دَرُّ السُّرماري...

أسدٌ له في كلّ ثَغْرٍ مِرْبِضُ، ومتى حلَّ بدارٍ قد بَغَتْ حلَّ فيها الوَيْلُ منهُ والثُّبُورُ..

وعَنْ عِمْرَانَ بنِ مُحَمَّدٍ المُطَّوِّعِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُوْلُ: كَانَ عَمُودُ المُطَّوِّعِيِّ السُّرْمَارِيِّ وَزْنُهُ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ مَنّاً - المن يساوي رطلين -، فَلَمَّا شَاخَ جَعَلَهُ اثْنَيْ عَشَرَ مَنّاً، وَكَانَ بِهِ يُقَاتِلُ!.

وعَنْ عُبَيْدِ اللهِ بنِ وَاصِلٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ السُّرْمَارِيَّ يَقُوْلُ، وَأَخْرَجَ سَيْفَهُ، فَقَالَ: أَعْلَمُ يَقِيْناً أَنِّي قَتَلْتُ بِهِ أَلْفَ تُرْكِيٍّ، وَإِنْ عِشْتُ قَتَلْتُ بِهِ أَلْفاً أُخرَى، وَلَوْلاَ خُوْفِيَ أَنْ يَكُوْنَ بِدْعَةً لأَمَرْتُ أَنْ يُدْفَنَ مَعِي!.

وروِيَ عنهُ كذلكَ أنَّهُ قَالَ: يَنْبَغِي لِقَائِدِ الغُزَاةِ أَنْ يَكُوْنَ فِيْهِ عَشْرُ خِصَالٍ: أَنْ يَكُوْنَ فِي قَلْبِ الأَسَدِ لاَ يَجْبُنُ، وَفِي كِبْرِ النَّمِرِ لاَ يَتَوَاضَعُ، وَفِي شَجَاعَةِ الدُّبِّ يَقْتُلُ بِجَوَارِحِهِ كُلِّهَا، وَفِي حَمْلَةِ الخِنْزِيرِ لاَ يُوَلِّي دُبُرَهُ، وَفِي غَارَةِ الذِّئْبِ إِذَا أَيِسَ مِنْ وَجْهٍ أَغَارَ مِنْ وَجْهٍ، وَفِي حَمْلِ السِّلاَحِ كَالنَّمْلَةِ تَحْمِلُ أَكْثَرَ مِنْ وَزْنِهَا، وَفِي الثَّبَاتِ كَالصَّخْرِ، وَفِي الصَّبْرِ كَالحِمَارِ، وَفِي الوَقَاحَةِ كَالكَلْبِ لَوْ دَخَلَ صَيْدُهُ النَّارَ لَدَخَلَ خَلْفَهُ، وَفِي التِمَاسِ الفُرْصَةِ كَالدِّيْكِ!.

وذاتَ مَرَّةٍ... كان الجيشُ الإسلاميُّ يحاصرُ بلدةً قائدُها قاعدٌ على صُفَّة، فرَمَاه السُّرماري بسهم فغَرَزَه في الصفَّة، فأراد أن ينزعه فخَاط يده بسهم آخر، فتطاول الكافر لينزِعَهُ فرماه بثالثٍ في نحْرِه، فلقيَ حتفَهُ، فانهزم العدو وكان الفتح.

فلله دَرُّه...

يخْطَفُ الأرواحَ من أعدائه ... مثْلما تَخْتَطِفُ الطيْرَ الصُّقورُ

لذا رُوِيَ عَنْ إِبْرَاهِيْمَ بنِ عَفَّانَ البَزَّازِ أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللهِ البُخَارِيِّ، فَجَرَى ذِكْرُ أَبِي إِسْحَاقَ السُّرْمَارِيِّ، فَقَالَ: مَا نَعْلَمُ فِي الإِسْلاَمِ مِثْلَهُ، فَخَرَجْتُ فَإِذَا (أَحِيْدُ) رَئِيْسُ المُطَّوِّعَةِ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَغَضِبَ وَدَخَلَ عَلَى البُخَارِيِّ، وَسَأَلَهُ.

فَقَالَ البُخَارِيُّ: مَا كَذَا قُلْتُ: بَلْ: مَا بَلَغَنَا أَنَّهُ كَانَ فِي الإِسْلاَمِ وَلاَ الجَاهِلِيَّةِ مِثْلُهُ![1].

١- تاريخ الإسلام (١٧/١٨)، سير أعلام النبلاء (٣٧/١٣)، محاضرة العرار المشتار لعلي القرني.

# أبو دُجانة

هو الصحابي الأسطوري، سِمَاكُ بنُ خَرَشَة الساعدي، أبو دجانة الأنصاري...

في أُحُد؛ جرَّد النبيُّ ﷺ سيفًا باترًا، ونادى أصحابه: "مَنْ يأخذ هذا السيف بحقِّه؟" فقام إليه رجالٌ ليأخذوه؛ منهم: عليُّ بن أبي طالب والزبيرُ بن العوام وعمُر بن الخطاب y. حتى قام إليه أبو دُجانة؛ فقال: وما حقُّه يا رسول الله؟ قال: "أن تضرب به وجوه العدو حتى ينحني"، قال: أنا آخذه بحقِّه يا رسول الله، فأعطاهُ إيَّاه.

كان أبو دُجانة رجلاً شجاعًا يختال عند الحرب، وكانت له عُصابةٌ حمراء، إذا اعْتَصَبَ بها عَلِمَ الناس أنه سيقاتل حتى الموت، فلما أخذ السيف عَصَبَ رأسه بتلك العُصابة، وجعل يتبختر بين الصفين، وحينئذ قال رسول الله ﷺ: إنها لَمِشيةٌ يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن(١).

أقبل أبو دُجانة معلَّمًا بعُصابته الحمراء، آخذًا سيف رسول الله ﷺ مصمِّمًا على أداء حقِّه؛ فقاتل حتى أمعن في الناس، وجعل لا يلقى مشركًا إلا قتله، وأخذ يهدُّ صفوف المشركين هدًّا؛ حتى قال الزُّبير بن العوَّام: وجدتُ في نفسي حين سألتُ رسول الله ﷺ السيفَ فمَنَعَنِيه وأعطاه أبا دُجانة، وقلتُ في نفسي: أنا ابن صفيَّة عمَّته، ومن قريش، وقد قمتُ إليه فسألتُه إيَّاه قبله؛ فآتاه إيَّاه وتركني! والله لأنظرنَّ ما يصنع؟ فاتَّبعته، فأخرج عُصابةً له حمراءَ؛ فعصب بها رأسه؛ فقالت الأنصار: أخرج أبو دُجانة (عصابة الموت)! فجعل لا يلقى أحدًا إلا قتله، ولا يرتفع له شيءٌ إلا هَتَكَه وأَفْراهُ، وكان

---

١- الرحيق المختوم للمباركفوري (٢٥٦) وأصل الحديث رواه مسلم ٦٤٣٦-(١٢٨-٢٤٧٠) وأحمد (١٢٢٣٥).

في المشركين رجلٌ لا يَدَعُ لنا جريحًا إلا ذَفَّف عليه، فجعل كلُّ واحدٍ منهما يدنو من صاحبه، فدعوتُ الله أن يجمع بينهما، فالتقيا فاختلفا ضربتَيْن، فضرب المشركُ أبا دُجانة؛ فاتَّقاه بدَرَقَته، فعضَّت بسيفه، فضربه أبو دُجانة فقتله!.

واخترق أبو دُجانة صفوف المشركين يهدّها ويفرِّقها، حتى خلص إلى نسوة قريش. قال أبو دجانة ﷺ: رأيتُ إنسانًا يخمش الناس خمشًا شديدًا؛ فصمدتُ له، فلما حملتُ عليه السَّيف وَلْوَلَ، فإذا امرأةٌ، فأكرمتُ سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأةً!.

فلما رأى الزُّبير ﷺ أفاعيل أبي دُجانة في المشركين؛ رضيَ وقال: الله ورسوله أعلم[1].

وكان عُبيد بن حاجز العامري من الشجعان، أقبل على المسلمين يعدو كأنه سَبُعٌ ضارٍ، فضرب رجلاً من المسلمين، فجرحه، فوَثَبَ إليه أبو دُجانة؛ فناوشه ساعةً، ثم ذبحه بالسيف ذبحًا[2].

ولما دارت الدائرة على المسلمين في أُحُد؛ ثَبَتَ أبو دُجانة يدافع عن رسول الله ﷺ ثم جعل من جسده تُرْسًا دون رسول الله ﷺ يقع النَّبْل في ظهره وهو مُنحنٍ على رسول الله ﷺ حتى كَثُرَتْ فيه النَّبْل، ومع كثرة النَّبْل الذي أصابه، والجراح التي أنهكته؛ فإن أبا دُجانة سَلِمَ منَ الموت[3].

ثم جاء أبو دجانة بالسيف إلى رسول الله ﷺ وقد انثنى، فقال له النبي ﷺ: "أعطيته حقه؟" قال: نعم!.

١- دلائل النبوة للبيهقي (٣/٢٣٣).
٢- سبل الهدى والرشاد (٤/٢٠٩).
٣- دلائل النبوة للبيهقي (٣/٢٣٤).

ولقد أثنى النبي ﷺ على قتال أبي دُجانة في أُحُد، حيث أعطى عليٌّ فاطمةَ رضي الله عنهما سيفه بعد أُحُد وقد انثنى، وقال: هاكِ السيف؛ فإنها قد شَفَتْنِي. فقال له النبي ﷺ: "لئن كنتَ أجدتَ الضرب بسيفكَ، لقد أجاد سَهْل بن حُنَيْف، وأبو دُجانة، وعاصمُ بن ثابت الأقْلَح، والحارث بن الصِّمَة"![1].

وشارك ﷺ في حصار بني النَّضير، ونَدَبَه النبيُّ ﷺ مع علي بن أبي طالب وسهل بن حُنَيْف في عشرةٍ من أصحابه لملاحقة اليهود الذين أرادوا أَخْذ المسلمين على حين غِرَّة، فأدركوهم فقتلوهم، وطرحت رؤوسهم في بعض البئار[2].

وفي خيبر، وحينما حَمِيَتِ المبارزة بين اليهود والصحابة، خرج يهوديٌّ يدعو إلى المبارزة؛ فخرج له رجلٌ من آل جحش، فقتله اليهودي، ثم دعا إلى المبارزة؛ فخرج إليه أبو دُجانة، وقد عصب رأسه بعُصابته الحمراء فوق المِغْفَر، يختال في مشيته، فبَدَرَه أبو دُجانة فضربه، فقطع رجله، ثم ذفَّف وأخذ سَلَبَه: دِرْعَه وسيفه، فجاء به إلى رسول الله ﷺ فنَفَّلَه رسول الله ﷺ ذلك، وأحجم اليهود عن البِراز؛ فكبَّر المسلمون، ثم تحاملوا على حصن اليهود فدخلوه، يَقْدُمُهم أبو دُجانة ﷺ حتى فتحوه![3].

وفي حُنَيْن، أصابت أبا دُجانة جراحٌ شديدةٌ، وأبلى بلاءً حسنًا، وحضر ﷺ غزوة العُسْرَة، وأعطاه النبيُّ ﷺ راية الخزرج[4].

ولما توفِّيَ رسول الله ﷺ واصل أبو دُجانة جهاده مع الصدِّيق بكل شجاعة وإقدام، وكان تحت إمرة خالد بن الوليد ﷺ في قتال مُسَيْلِمَة ومَنْ معه من المرتدِّين؛ بل كان

---

١- رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٣/٢٠٤).

٢- سبل الهدى والرشاد (٤/٣٢٢).

٣- دلائل النبوة للبيهقي (٤/٢٢٤)، سبل الهدى والرشاد (٥/١٤٩).

٤- سبل الهدى والرشاد (٥/٣٣٠، ٤٤٣).

من المشاركين في قتل عدو الله مُسَيْلِمَة.

روي عن أنس بن مالك ﷺ أنه قال: رمى أبو دُجانة بنفسه يوم اليمامة إلى داخل الحديقة - وكانت تسمَّى (حديقة الموت) - فانكسرت رِجْله؛ فقاتل وهو مكسور الرجل حتى قُتل رضي الله عنه وأرضاه![1].

فلله دَرُّه، ما أشجعه وما أقواه، وما أشدَّ رغبته فيما عند الله!.

obeikandl.com

١- رواه الحاكم (٢٢٩/٣) من رواية الواقدي وهو متروك الحديث، وابن سعد في الطبقات كما في سير أعلام النبلاء (٢٤٣/١)، وخبر قتاله وهو مكسور الرجل في أسد الغابة (٥٥١/٢) ومشاركته في قتل مسيلمة في أسد الغابة أيضًا (٩٣/٦) والمشهور أن البراء بن مالك ﷺ هو الذي رُمِيَ في الحديقة، ولا يمنع أن يكون البراء وأبو دُجانة كلاهما رُمِيَ في الحديقة.

# سنجر

إنه سلطانٌ عظيمٌ من سلاطين المسلمين، لُقِّبَ بـ(الملك المظفر ناصر الدين)، هو القائد الفاتح السلطان، سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان، أو كما اشْتُهِر هذا البطل الأسطوري، السلطان سنجر السلجوقي..

دللت الوقائع التاريخية والمعارك التي خاضها السلطان سنجر منذ بدء تسلمه إمارة خراسان سنة ٤٩٠هـ / ١٠٩٧م، على أنه كان يمتاز بشجاعةٍ وهِمَّةٍ عالية مَكّنَتاهُ من قيادة دولته المترامية الأطراف، فقد أدار دَفَّةَ الحكم فيها لأكثر من ستين سنة على الرغم من صِغَرِ سِنِّه حين توليه إمارة خراسان إذ لم يكن يتجاوز عمره أحد عشر سنة!، وهي حقبة طويلة لم يتسنَّ لغيره من السلاطين والملوك أن يستمروا في عرش السلطنة مثلما سنحت له الظروف، وقد وصفه اليزدي قائلًا: جلس على مسندِ العزِّ والرفعةِ والقدرةِ منذ سِنِّ النشوءِ والنمو إلى عنوان عهد الصبا .. وقد أطاعه جبابرة العجم وأكاسرة العالم، ودانوا بالطاعة والولاء!.

وله مواقف في الشجاعة والثبات كثيرة، وقد عُبِّر عنها في معركة (قطوان) قرب سمرقند التي خاضها مع القرة خطائين سنة ٥٣٦هـ /١١٤٢م: وانهزم عسكر السلطان سنجر، وبقي هو واقفًا في عدد قليل تحت الجتر - أي الراية -!.

كما وصفه ابن خلكان قائلًا: كان من أعظم الملوك همة!.

ومن مواقفه الشجاعة أنه كان يتحدى الموت عند خوضه المعارك الضارية، وعدَّ الموتَ حقيقةً واقعةً لا مفرَّ منها، إذ كان يقول: ومن يئس من حياته لا يفكر في العواقب، ربما ينال الظفر بما يدفع عن نفسه[1].

obeikandl.com

١- انظر السلطان سنجر السلجوقي للدكتور جمال الدين فالح الكيلاني.

# عمر بن الخطاب

في الحقيقة.. لقد توقفتُ طويلًا، وفكرتُ كثيرًا، قبل أن أُقْدِمَ على كتابة هذه الأسطر في حق هذا العملاق الأسطوري العظيم، الفاروق عمر بن الخطاب، لدرجة أنني فكرت ألا أكتبه من بين الأساطير بحجة أنه أعظم من ذلك، أو أنه لا يحتاج إلى إثبات ذلك وذكر مقتضياته، فهو كالشمس في وضح النهار، وما كان ذلك على الحقيقة إلا هروبًا من هذا المأزق الكبير، وهذه المواجهة العسيرة، بيني وبين الورقات والصفحات، إذ انثلم قلمي ونافق مداده، عندما أتيت لأكتب عن هذا العملاق...

ذلك الرجل الذي تجاوزت هيبته وعظمته وشدته في الحق حد تخويف شياطين الإنس، لتفوق ذلك وتتعداه إلى شياطين الجن..

قال ﷺ يومًا لعمر: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِيهٍ يَا ابْنَ الخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ"[1].

هذا الرجل الذي لن أتحدث عن كراماته أو أنه كان مُلْهَمًا مُحَدَّثًا يجري الحقُّ على لسانه وقلبه، فضلًا عن علمه ودينه وفضائله وسائر شواهد قوته في الحق..

إنه عمر ﷺ، الذي كان واحد اثنين يتمنَّى النبيُّ ﷺ أن يُعِزَّ اللهُ بأحدهما الإسلامَ!.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "اللَّهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِأَحَبِّ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ، بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَوْ بِأَبِي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ"، قَالَ: فَكَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ[2].

---

١- رواه البخاري (٥٧٣٥) ومسلم ٦٢٨٠-(٢٢-٢٣٩٦) وأحمد (١٥٨١).

٢- رواه ابن حبان (٢١٧٩) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة.

فأصبح عمرُ ﷺ فغدا على رسول الله فأسْلَمَ[1]....

ولكن انظر ماذا كان من الأسطورة عمر في أول يوم بعد إسلامه؟!

يقول عمر ﷺ: لَمَّا أَسْلَمْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، تَذَكَّرْتُ أَيَّ أَهْلِ مَكَّةَ أَشَدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَدَاوَةً حَتَّى آتِيَهُ فَأُخْبِرَهُ أَنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ، قَالَ: قُلْتُ: أَبُو جَهْلٍ- وَكَانَ عُمَرُ ابْنًا لِحَنْتَمَةَ بِنْتِ هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ - قَالَ: فَأَقْبَلْتُ حِينَ أَصْبَحْتُ حَتَّى ضَرَبْتُ عَلَيْهِ بَابَهُ، قَالَ: فَخَرَجَ إِلَيَّ أَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا بِابْنِ أُخْتِي، مَا جَاءَ بِكَ؟ قَالَ: جِئْتُ لِأُخْبِرَكَ أَنِّي قَدْ آمَنْتُ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ، وَصَدَّقْتُ بِمَا جَاءَ بِهِ، قَالَ: فَضَرَبَ الْبَابَ فِي وَجْهِي وَقَالَ: قَبَّحَكَ اللَّهُ، وَقَبَّحَ مَا جِئْتَ بِهِ![2].

الله أكبر ... لله درك يا عمر

**أما عند هجرته...**

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: مَا عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ هَاجَرَ إِلا مُخْتَفِيًا، إِلا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، فَإِنَّهُ لَمَّا هَمّ بِالْهِجْرَةِ تَقَلَّدَ سَيْفَهُ، وَتَنَكَّبَ قَوْسَهُ، وَانْتَضَى فِي يَدِهِ أَسْهُمًا، وَاخْتَصَرَ عَنْزَتَهُ - أمسك رمحه -، وَمَضَى قِبَلَ الْكَعْبَةِ، وَالْمَلأُ مِنْ قُرَيْشٍ بِفِنَائِهَا، فَطَافَ بِالْبَيْتِ سَبْعًا مُتَمَكِّنًا، ثُمَّ أَتَى الْمَقَامَ فَصَلَّى مُتَمَكِّنًا، ثُمَّ وَقَفَ عَلَى الْحَلَقِ - حلقات القوم - وَاحِدَةً وَاحِدَةً، وَقَالَ لَهُمْ: شَاهَتِ الْوُجُوهُ، لا يَرْغَمُ اللَّهُ إِلا هَذِهِ الْمَعَاطِسَ، مَنْ أَرَادَ أَنْ تَثْكَلَهُ أُمُّهُ، وَيُوتِمَ وَلَدَهُ، وَيُرْمِلَ زَوْجَتَهُ، فَلْيَلْقَنِي وَرَاءَ هَذَا الْوَادِي!.

---

١- رواه الطبراني في الكبير (١١٦٥٧).

٢- رواه أحمد في الفضائل (٣٧٥).

قَالَ عَلِيٌّ: فَمَا تَبِعَهُ أَحَدٌ إِلا قَوْمٌ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ عَلِمَهُمْ وَأَرْشَدَهُمْ وَمَضَى لِوَجْهِهِ![1].

إنها العِزَّةُ عندما تكون في أعزِّ درجاتها، والمَنَعَةُ عندما تكون في أمنعِ مقاييسها، والقُوَّةُ عندما تكون في أقوى حالاتِهَا، والشَّجَاعة عندما تكون في أشجَعِ مراتبِهَا، والاستعلاءُ عندما يكون في أعلى مراقيه.

قال ﷺ مُمَثِّلًا لعمر: "وَمَثَلُكَ يَا عُمَرُ فِي الْمَلَائِكَةِ كَمَثَلِ جِبْرِيلَ يَنْزِلُ بِالْبَأْسِ وَالشِّدَّةِ وَالنِّقْمَةِ عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ، وَمَثَلُكَ فِي الْأَنْبِيَاءِ مِثْلَ نُوحٍ إِذْ قَالَ: "رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا"[2]»[3].

وإلى جانب أنه كان أسطورة في الشجاعة والقوة والعزة لا تضاهى، فقد كانت كذلك خلافته خلافة أسطورية، لم يعرف التاريخ القديم ولا المعاصر الحديث لها نظيرًا على الإطلاق، في زهده وأمانته، وعدله وحكمته، وسياسته وحنكته، وتخطيطه وإدارته، وفتوحاته وقوته، وتأسيس وتقعيد الأسس والقواعد اللازمة لبناء ونهوض وتنمية دولته، تلك الخلافة الأسطورية التي لا يزال منهجها وقواعدها تُدَرَّسُ إلى الآن في مدارس وجامعات العالم!.

تلك العظمة في الخلافة التي وصلت إلى حدِّ أن يقول أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه: لو عَثَرَتْ بغلةٌ بالعراقِ لرأيتُني مسؤولًا عنْهَا أمامَ اللهِ تعالى لِمَ لَمْ أُسوِّ لها الطَّريق!.

---

١- أسد الغابة (٦٥٠/٣)، تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٢/٤٤).

٢- (نوح: ٢٦).

٣- السنة لابن أبي عاصم (١٤٢٤)، تاريخ دمشق لابن عساكر (٩٤٥١).

وعَنْ مَوْلًى لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ﷺ قَالَ: بَيْنَا أَنَا مَعَ عُثْمَانَ فِي مَالِهِ بِالْعَالِيَةِ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ إِذْ رَأَى رَجُلًا يَسُوقُ بَكْرَيْنِ وَعَلَى الأَرْضِ مِثْلُ الْفِرَاشِ مِنَ الْحَرِّ، فَقَالَ: مَا عَلَى هَذَا لَوْ أَقَامَ بِالْمَدِينَةِ حَتَّى يَبْرُدَ، ثُمَّ يَرُوحُ؟! ثُمَّ دَنَا الرَّجُلُ.

فَقَالَ: انْظُرْ مَنْ هَذَا؟ فَقُلْتُ: أَرَى رَجُلًا مُعَمَّمًا بِرِدَائِهِ يَسُوقُ بَكْرَيْنِ، ثُمَّ دَنَا الرَّجُلُ، فَقَالَ: انْظُرْ فَنَظَرْتُ فَإِذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ، فَقُلْتُ: هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ.

فَقَامَ عُثْمَانُ ﷺ فَأَخْرَجَ رَأْسَهُ مِنَ الْبَابِ فَآذَاهُ نَفْحُ السَّمُومِ فَأَعَادَ رَأْسَهُ حَتَّى حَاذَاهُ، فَقَالَ: مَا أَخْرَجَكَ هَذِهِ السَّاعَةَ؟ فَقَالَ: بَكْرَانِ مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ تَخَلَّفَا، وَقَدْ مُضِيَ بِإِبِلِ الصَّدَقَةِ فَأَرَدْتُ أَنْ أُلْحِقَهُمَا بِالْحِمَى وَخَشِيتُ أَنْ يَضِيعَا فَيَسْأَلَنِي اللَّهُ عَنْهُمَا!.

فَقَالَ عُثْمَانُ ﷺ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَلُمَّ إِلَى الْمَاءِ وَالظِّلِّ وَنَكْفِيكَ.

فَقَالَ: عُدْ إِلَى ظِلِّكَ، فَقَالَ: عِنْدَنَا مَنْ يَكْفِيكَ، فَقَالَ: عُدْ إِلَى ظِلِّكَ وَمَضَى، فَقَالَ عُثْمَانُ: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الْقَوِيِّ الأَمِينِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا فَعَادَ إِلَيْنَا فَأَلْقَى نَفْسَهُ[1].

ولما جِيءَ له بمالِ الفيء، قال: والله الذي لا إله إلا هو، ما أحدٌ إلا وله في هذا المال حَقّ، ولأعطينَّ الراعيَ نصيبه منهُ وهو بجبلِ صنعاء، ودَمُهُ في وجهه![2].

تُصْغِي لَهَا أُذُنٌ وَيَطْرَبُ مَسْمَعٌ ×× تَنْفِي الهمومَ عن الفؤادِ وَتَسْلُبُ

وروى زَيْدُ بْنُ أسلم، عَنْ أَبِيهِ: أن عُمَر بْن الخطاب طاف ليلةً، فإذا هُوَ بامرأةٍ في جوف دار لها وحولها صبيان يبكون، وَإِذا قِدْرٌ عَلَى النار قَدْ ملأتها ماءً، فدنا عُمَر بْن الخطاب من الباب، فَقَالَ: يا أمةَ اللَّه، أيش بكاء هَؤُلَاءِ الصبيان؟ - أي ما الذي

---

١- رواه الشافعي في مسنده (٧٥١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٤/٢٧٤).

٢- رواه البيهقي في سننه (١٣٣٦٠) والشافعي في مسنده (١٧٥٧).

يجعلهم يبكون؟ - فقالت: بكاؤهم من الجوع، قَالَ: فما هَذِهِ القدر التي عَلَى النار؟ فقالت: قَدْ جعلتُ فيها ماءً أُعَلِّلُهُم بها حتَّى يناموا، أَوْهمهم أن فيها شيئًا من دقيق وسمن، فجلسَ عُمَر فبكى، ثُمَّ جاء إِلَى دار الصدقة فأخذ غرارة، وجعل فيها شيئًا من دقيق وسمن وشحم وتمر وثياب ودراهم، حتَّى ملأ الغرارة، ثُمَّ قَالَ: يا أسلم، احمل عليّ، فقلت: يا أمير المؤمنين، أَنَا أحمله عنك! فَقَالَ لي: لا أم لَكَ يا أسلم، أَنَا أحمله لأني أَنَا المسئول عَنْهُمْ فِي الآخرة، قَالَ: فحمله عَلَى عنقه، حتَّى أتى بِهِ منزلَ المرأة، قَالَ: وأخذَ القدر، فجعل فيها شيئًا من دقيق وشيئًا من شحم وتمر، وجعل يحركه بيده وينفخ تحت القدر، قَالَ أسلم: وكانت لحيته عظيمة، فرأيت الدخان يخرج من خلل لحيته، حتَّى طبخ لهم، ثُمَّ جعل يغرف بيده ويطعمهم حتَّى شَبِعُوا، ثُمَّ خرج وربض بحذائهم - جلس على رجليه فِي محاذاتهم - كأنه سَبُعٌ، وخفتُ مِنْهُ أن أكلمه، فلم يزل كذلك حتَّى لعبوا وضحكوا، ثُمَّ قَالَ: يا أسلم، أتدري لم ربضت بحذائهم؟ قلت: لا، يا أمير المؤمنين! قَالَ: رأيتهم يبكون، فكرهت أن أذهب وأدعهم حتَّى أراهم يضحكون، فلما ضحكوا طابت نفسي![1].

يَا رَافِعًا رَايَةَ الشُّورَى وحَارِسَهَا .. جَزَاكَ ربُّكَ خَيْرًا عَنْ مُحِبِّيْهَا
رَأْيُ الجَمَاعَةِ لا تَشْقَى البِلادُ بِهِ .. رَغْمَ الخِلافِ وَرَأْيُ الفَرْدِ يُشْقِيها
إِنْ جَاعَ فِي شِدَّةٍ قَوْمٌ شَرِكْتَهُمُ .. فِي الجُوعِ حَتَى تَجْلِي عَنْهم غَوَاشِيها
جُوْعُ الخَلِيفَةِ وَالدُّنْيَا بِقَبْضَتِهِ .. مَنْزِلَةٌ فِي الزهْدِ سُبْحَانَ مُوْلِيهَا
فَمَنْ يُبَارِي أَبَا حَفْصٍ وَسِيْرَتَه .. أَوَمَنْ يُحَاوِلُ للفَارُوقِ تَشْبِيهًا؟!
يَوْمَ اشْتَهَتْ زَوْجُهُ الحَلْوَى فَقَالَ لَهَا .. مِنْ أَيْنَ لِي ثَمَنُ الحَلْوَى فَأَشْرِيها

---

١- تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٥٢/٤٤)، أسد الغابة (١٣٧/٤).

مَا زَادَ عَنْ قُوتِنَا فالمُسْلِمُونَ بِه أَوْلَى .. فَقُومِي لبَيْتِ المَالِ رُدِّيهَا

كَذَاكَ أَخْلَاقُهُ كانَتْ ومَا عُهِدَتْ .. بَعْدَ النُّبُوَّةِ أَخْلاقٌ تُحَاكِيهَا[1].

وحسبه رؤيا النبي ﷺ عن حزمه وقوته وشدته في الحق والأخذ به في شأنه كله:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "بَيْنَمَا أَنَا عَلَى بِئْرٍ أَنْزِعُ مِنْهَا، جَاءَنِي أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ الدَّلْوَ، فَنَزَعَ ذَنُوبًا أَوْ ذَنُوبَيْنِ، وَفِي نَزْعِهِ ضَعْفٌ، وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ، ثُمَّ أَخَذَهَا ابْنُ الخَطَّابِ مِنْ يَدِ أَبِي بَكْرٍ، فَاسْتَحَالَتْ - تحولت - في يَدِهِ غَرْبًا - هو الدلو الكبير، وهو أكبر من الذنوب -، فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَفْرِي فَرِيَّهُ - يعمل عملًا مصلحًا وجيدًا مثله ويقوى قوته -، فَنَزَعَ حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ بِعَطَنٍ". قَالَ وَهْبٌ: العَطَنُ: مَبْرَكُ الإِبِلِ، يَقُولُ: حَتَّى رَوِيَتِ الإِبِلُ فَأَنَاخَتْ[2].

فحسبك يا ابن الخطاب من رسول الله هذه الشهادة:

فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَفْرِي فَرِيَّهُ!.

---

١- القصيدة العمرية – حافظ إبراهيم.

٢- رواه البخاري (٣٤٧٣) ومسلم ٦٢٧٢-(١٩-٢٣٩٣) وأحمد (٥٨٥٩).



obeikandl.com

# ابن تيمية
## (العلَّامة المجاهد)

إنه شيخ الإسلام، وعلم الأعلام، العلامة الفهَّامةُ العبقري الألمعي الهمام، الزاهد العابد الذاكر الصوَّام القوَّام، الذي لم يكن يخشى في الله لوم اللوَّام، وإلى جانب شجاعته في الحق كان كذلك أسطورةً من أساطير الشجاعة القتالية والإقدام...

قال البزَّار: كان رحمه الله من أشجع النَّاس، وأقواهم قلبًا، ما رأيت أحدًا أثبت جأشًا منه، ولا أعظم عناءً في جهاد العدو منه، كان يجاهد في سبيل الله بقلبه، ولسانه، ويده، ولا يخاف في الله لومة لائم، وأخبر غير واحد أنَّ الشيخ رحمه الله، كان إذا حضر مع عسكر المسلمين في جهاد يكون بينهم واقيتهم، وقطب ثباتهم، إن رأى من بعضهم هلعًا، أو رقَّة، أو جبانة، شجَّعه وثبته، وبشَّره، ووعده بالنصر، والظفر، والغنيمة، وبيَّن له فضل الجهاد والمجاهدين، وإنزال الله عليهم السكينة.

وكان إذا ركب الخيل يتحنَّك ويجول في العدو كأعظم الشجعان، ويقوم كأثبت الفرسان، ويكبر تكبيرًا أنكى في العدو من كثير من الفتك بهم، ويخوض فيهم خوض رجل لا يخاف الموت.

وحدَّثوا أنَّهم رأوا منه في فتح عكة أمورًا من الشَّجَاعَة، يعجز الواصف عن وصفها.

قالوا: ولقد كان السبب في تملك المسلمين إياها بفعله، ومشورته، وحسن نظره، ولما ظهر السلطان غازان على دمشق المحروسة، جاءه ملك الكرج وبذل له أموالًا كثيرة

جزيلة على أن يمكنه من الفتك بالمسلمين من أهل دمشق، ووصل الخبر إلى الشيخ فقام من فوره، وشجَّع المسلمين ورغبهم في الشهادة، ووعدهم على قيامهم بالنصر، والظفر، والأمن، وزوال الخوف.

فانتدب منهم رجال من وجوههم، وكبرائهم، وذوي الأحلام منهم، فخرجوا معه إلى حضرة السلطان غازان، فلما رآهم السلطان قال: من هؤلاء؟ فقيل هم رؤساء دمشق، فأذن لهم فحضروا بين يديه، فتقدم الشيخ رحمه الله أولًا، فلما أن رآه أوقع الله له في قلبه هيبةً عظيمة، حتى أدناه وأجلسه، وأخذ الشيخ في الكلام معه أولًا في عكس رأيه عن تسليط المخذول ملك الكرج على المسلمين، وضمن له أموالًا وأخبره بحرمة دماء المسلمين، وذكَّره ووعظه فأجابه إلى ذلك طائعًا، وحُقِنَت بسببه دماء المسلمين وحُمِيَت ذراريهم وصِين حريمهم[1].

وقال الإمام ابن عبد الهادي في شجاعة الشيخ وبأسه عند قتال الكفار، حاكيًا ما كان من عظيم بلاء الشيخ في معركة (شقحب):

ولقد أخبرني حاجب من الحجاب الشاميين أمير من أمرائهم ذو دين متين وصدق لهجة معروف في الدولة قال: قال لي الشيخ يوم اللقاء : - ونحن بمرج الصفر وقد تراءى الجمعان - يا فلان أوقفني موقف الموت!. قال فسقته إلى مقابلة العدو وهم منحدرون كالسيل تلوح أسلحتهم من تحت الغبار المنعقد عليهم!.

ثم قلت له يا سيدي : هذا موقف الموت وهذا العدو قد أقبل تحت هذه الغبرة المنعقدة فدونك وما تريد.

قال: فرفع طرفه إلى السماء وأشخص بصره وحرك شفتيه طويلًا ثم انبعث

---

١- الأعلام العلية (٦٧).

وأقدم على القتال، وأما أنا فخُيِّل إليَّ أنه دعا عليهم وأن دعائه استجيب منه في تلك الساعة.

قال: ثم حال القتال بيننا والالتحام وما عدت رأيته حتى فتح الله ونصر وانحاز التتار إلى جبل صغير عصموا نفوسهم به من سيوف المسلمين تلك الساعة وكان آخر النهار.

قال : وإذا أنا بالشيخ وأخيه يصيحان بأعلى صوتيهما تحريضًا على القتال وتخويفًا للناس من الفرار.

فقلت : يا سيدي لك البشارة بالنصر فإنه قد فتح الله ونصر وها هم التتار محصورون بهذا السفح وفي غدٍ إن شاء الله تعالى يؤخذون عن آخرهم.

قال: فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله ودعا لي في ذلك الموطن دعاءً وجدت بركته في ذلك الوقت وبعده[1].

وكانت تلك المعركة من أهم المعارك التي أبلى فيها شيخ الإسلام بلاءً عظيمًا، وكان له فيها دورٌ قتاليٌّ قياديٌّ عظيمٌ في انتصار المسلمين على التتار، سواء كان ذلك في قتاله وبلائه العظيم، أو في استجلاب سلطان المسلمين إلى دمشق وتثبيته في المعركة بعد أن كاد ينوي الرجوع إلى مصر، أو في توحيد المجاهدين وتثبيتهم وتشجيعهم وحضِّهم على القتال وترخيصه لهم الفطر من الصيام تقويًّا وتأسيًّا بالنبي ﷺ وتبشيره لهم بالنصر حالفًا بالله الذي لا إله غيره: إنكم لمنصورون!. فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله. فيقول: إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقًا، أو في وَأْدِ ودَرْءِ الفتن والشبهات التي ظهرت في المعركة بحجة إظهار التتار للإسلام داحضًا ذلك بالحجة والبرهان والإقناع!.

---

١- العقود الدرية (١٩٣).

فرحم الله شيخ الإسلام الذي كان من بحور العلم ومن الأذكياء المعدودين والزهاد الأفراد والشجعان الكبار والكرماء الأجواد[1].

والذي كان بطلًا أسطورةً مجاهدًا بجَنَانِهِ ولِسَانِه وسِنَانِه!.

obeikandl.com

١- تذكرة الحفاظ (١٤٩٧/٤).

# ابن صاحبة الضفيرتين

داهم الرومُ الشامَ، فقامَ أبو قدامةَ الشاميُّ خطيبًا في الناس، يُرَغِّبُهُم في الآخرة، ويُزَهِّدُهُم في الدنيا، ويَسْتَحِثُّهُم على الجهاد والبذل في سبيل الله، ويذكرهم بمثل قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الذِّينَ آمَنُوا مَالَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ»[1]، وقوله: «انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ»[2]، وقوله: «يَا أَيُّهَا الذِّينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ × تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ»[3]، لم يترك آية من آيات الجهاد، ولا حديثًا من أحاديث المصطفى ﷺ، فاشرأبَّت الأعناقُ إلى الجنة وأرادت ما عند الله، منهم من يريد اثنتين وسبعين حورية من الحور العين، ومنهم من يريد ما هو أعظم من ذلك كالنظر إلى وجه الله الكريم.

فخطب أبو قدامة خطبته وصلَّى الناس، وكلٌّ في نفسه أن يدَّخر له عند الله منزلة بمشاركته في هذا الجهاد حتى النساء والأطفال، وخرج ذاهباً إلى بيته، وبينا هو في الطريق في أحد الأزقة، اعترضته امرأةٌ تنادي عليه: يا أبا قدامة!، فلم يلتفت، فنادت الثانية: يا أبا قدامة!، فلم يلتفت، وكأنه تخوَّفَ على نفسه الفتنة، وفي الثالثة قالت: يا أبا قدامة! ما هكذا يفعل الصالحون، فلم يجد بُدًّا، فسألها ما حاجَتُهَا، فقالت:

١- (التوبة:٣٨).

٢- (التوبة:٤١).

٣- (الصف:١٠-١١).

سمعتك تُرَغِّبُ الناسَ في الجهاد في سبيل الله، وهذا ظرفٌ أقدمه علَّني أن أكتب عند الله من المجاهدات في سبيله، فقال: ماذا فيه؟ قالت: فيه ضفيرتان من شعري، والله لم أجد ما أقدمه أغلى من هاتين الضفيرتين، علَّ الله أن يكتبني من عدادِ المجاهدات في سبيله!،

فأجهش أبو قدامة بالبكاء من صَنِيْعِهَا وحرصها على طاعة الله، وقال: والله هذا أول النصر، وأخذ الضفيرتين!.

وفي اليوم الثاني ينطلق بكتائب الإيمان يريد أن يقابل الروم في موقعة من المواقع، وإذا بغلامٍ يقابله يناشده بالله أن يحمله معه على فرسه قائلًا: يا أبا قدامة! أسألُكَ بالله، إلا جعلتني في عداد المجاهدين في سبيل الله!.

قال: يا بني! أخشى عليك أن تطأك الخيل والإبل بأخفافها.

قال: أسألُكَ بالله، لا تحرمني الشهادة في سبيل الله!.

ويتقدمُ أبو قدامة مندهشًا فيقول: أقبلك بشرطٍ واحد، إن استُشهدتَ في هذه المعركة أن أكون من شفعائك عند الله لأنك ستشفع في سبعين!.

قال: قبلتُ الشرط.

فرَكِبَ، وأبو قدامة يحار في تلك المرأة، ويحار في هذا الصبي،

ويقول: والله جيشٌ لجام الفرس فيه ضفائر امرأة، وفيه مثل هذا الطفل يريد أن يموت في سبيل الله جيشٌ لا يُهزَمُ بإذن الله: «وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ»[1].

أخذه رديفًا له على دابته - وكان يحمل خَرْجًا لا يعلمون ما فيه -، وبينما هم مقبلون على الروم، قال: يا أبا قدامة! أسألك بالله ثلاثة أسهم أرمي بها في سبيل الله!.

---

١- (الحج:٤٠).

قال: يا بني! ستُضَيِّعُها ولا نستفيد منها، دعها لمجاهدٍ يُوغِلُ بها في الروم.

قال: أسألك بالله ثلاثة أسهم.

قال: لا تنس الشرط.

قال: لا أنساه.

فأعطاه ثلاثة، وعندما قابلوا الجيش، أخذ الأول وقال: السلام عليك يا أبا قدامة! وأطلقه فقتل روميًا، ثم أخذ الثاني وقال: السلام عليك يا أبا قدامة! فقتل روميًا آخر، ثم أخذ الثالث فقال: السلام عليك يا أبا قدامة! سلامَ مُوَدِّع، ثم رمى به فقتل روميًا، وجاءه سهمٌ طائشٌ فضربه في لُبَّتِه فسقط من على الفرس.

يقول أبو قدامة: فسقطتُ وراءه، وأقول له: يا بني! لا تنس الوصية - أي: لا ينسى أن يشفع له عند الله عز وجل -، قال: يا أبا قدامة! خذ هذا الخرج وأعطه أمي، قال: ومن أمك؟ فقال: أمي صاحبة الضفيرتين!.

فيندهشُ مكانه ويجهش بالبكاء ويجلس ويقول: الله أكبر! جيشٌ فيه مثل هؤلاء، وفيه مثل هذه الأُسَر لا يُهزَمُ أبدًا، أبشروا بالنصر أبشروا بالنصر.

وعندما أتوا ليدفنوه، فتحوا له القبر، ووضعوه، وبينما هم يدفنونه إذ لفظته الأرض فتعجبوا وخافوا واندهشوا!.

يقول ابن الجوزي: والموقف يستحق ذلك - أن يدهشوا -،

قال: فأخذتني سِنَةٌ من نوم - والناس يدوكون ويقولون: لعله لم يستأذن أبويه، لعله مُرَاءٍ، لعله كذا، مع أنه لم يبلغ الحُلُم، ولم يكلف بهذا كله -، وإذ بمنادٍ يناديني ويقول: يا أبا قدامة! اترك ولي الله.

يا أبا قدامة! اترك ولي الله!.

وإذ بطيرٍ تنزلُ من السماءِ فتلقُطُ لحمه من على عظمه حتى لا يبقى على عظمه شيء، وتأخذه إلى السماء.

قال: فزادت الدهشة.

قال: ثم دفنَّا عظامه وذهبنا، وكان أن نُصِرْنَا في هذه الموقعة، ورجعنا بالخرج لنذهب به إلى صاحبة الضفيرتين أمِّ الولد لنعزِّيها في ابنها.

قال: فجئتُ إلى البيت وطرقتُ الباب، فخرجت أخته وقالت: أمهنئ أم معز؟ قال: بل مهنئ.

قالت: إذًا استشهد أخي.

قال: إي والله لقد استشهد.

قالت: إذًا فهنِّئنا، لقد روزئنا بأبينا فاحتسبناه عند الله، وروزئنا بأخينا الأكبر فاحتسبناه عند الله، والآن روزئنا بأخينا الأصغر فنحتسبه عند الله، فلنا ما لهم في الجنة عند الله!.

فتخرج أمه، فيقول: أحسن الله عزاءك في ابنك.

قالت: أمعز أم مهنئ؟ قال: بل مهنئ.

قالت: وما أدراك؟ قال: إنه شهيد.

قالت: لذلك علامة، اذكرها لي.

فما كان منه إلا أن قام ليذكر هذه العلامة وقال: يوم أن دفنَّاه لفظتهُ الأرض، وجاء الطيرُ من السماء فالتقطت اللحم، فلم يبق إلا عظمه.

قالت: إذًا فهنئني الآن، إنه شهيد بإذن ربه تبارك وتعالى.



obeikandl.com

قال: فما هذا الخرج الذي أوصاني أن أعطيكِ إياه؟

قالت: أتدري ماذا فيه؟ ثم أخرجت ما فيه فإذا هو قيدٌ وإذا هو لباس من صوف خشن.

قال: ما هذا يا أمة الله؟

قالت: كان إذا جَنَّهُ - دخل عليه - الليل، أخذ هذا القيد فقيَّد نفسه، ثم أخذ هذا اللباس فلبسه، ثم بقي طول ليله يذكر الله قائمًا وقاعدًا وعلى جنبه يبكي ويضرع إلى الله، فإذا جاء وقت السحر - وقت نزول الرب تبارك وتعالى: «هل من داع فأستجيب له» - يرفع يديه ويقول: اللهم لا تحشرني إلا من حواصل الطير شهيدًا في سبيلك، اللهم لا تحشرني إلا من حواصل الطير شهيدًا في سبيلك![1].

الله أكبر.. طفلٌ صدقَ الله، فأعطاهُ اللهُ ما سأل، فله في الجنة ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وصدق الله: «أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ»[2].

فقف وتأمل وتدبر وسل نفسك... أي أسطورة هذا الغلام؟!

---

١- صفة الصفوة لابن الجوزي (٤/...).

٢- (يونس:٦٢).



obeikandi.com

obeikandl.com

## ابن فتحون

إنه الفارس الصنديد، والليث العنيد، أبو الوليد ... أشجع العرب والعجم في عصره ...

كان فارسًا من أشهر وأعظم وأشجع فرسان الأندلس، وكان في زمان المستعين بن هود أمير سرقسطة - من أمهات مدن الثغور في الأندلس الشمالية - في أواسط القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، وكان المستعين أبو المقتدر يرى له ذلك ويعظمه، وكان يجري له في كل عطية خمسمائة دينار، وكانت النصرانية بأسرها قد عرفت مكانه وهابت لقاءه ...

هابَ العدوُّ لقاءهُ ×××× حتى الخيولُ تهابهُ

فيُحكَى أن الروميَّ كان إذا أورد فرسه الماء فلم يشرب قال له: ويلك! لم لا تشرب؟ هل رأيت ابن فتحون في الماء؟!

حَسَدَهُ نظراؤه على كثرة العطاء، ومنزلته من السلطان، وأغروا به صدر المستعين، فمنعه نفسه.

ثم إن المستعين أنشأ غزوة إلى بلاد الروم فتواقف المسلمون والمشركون صفوفاً، ثم برز عِلْجٌ - من المشركين - إلى وسط الميدان ينادي: هل من مبارز؟

فخرج إليه فارس من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله الرومي، فصاح الكفار سروراً وانكسرت نفوس المسلمين،

ثم جعل الرومي يكر على فرسه ويقول: اثنان لواحد!

فخرج إليه فارس من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله الرومي، فصاح الكفار سروراً وانكسرت نفوس المسلمين،

وجعل الرومي يكر ويفر بين الصفين وينادي: ثلاثة لواحد!

فلم يستجرأ أحد من المسلمين أن يخرج إليه وبقي الناس في حيرة.

فضجَّ المسلمون، وقيل للسلطان: ما لها إلا الوليد بن فتحون. فدعاه وتلطف به وقال له: أما ترى ما يصنع هذا العلج بنا؟

فقال: هو بعيني! قال: فما الحيلة فيه؟ فقال أبو الوليد: فماذا تريد؟ فقال: اكف المسلمين شره!

قال: الساعة يكون ذلك إن شاء الله تعالى.

فلبس قميص كتان، واسع الأكمام، واستوى على سرجه بلا سلاح، وأخذ بيده سوطاً طويل الطرف وفي طرفه عقدة معقودة، ثم برز إلى النصراني، والنصراني في ذهول منه، ثم حمل كل واحدٍ منهما على صاحبه، فحمل النصراني على ابن فتحون يريد طعنه، فإذا ابن فتحون يتعلق برقبة فرسه مراوغًا قد نزل إلى الأرض لا شيء منه في السرج، فوقعت طعنة العلج في السرج، ثم استوى ابن فتحون على سرجه وحمل عليه وضربه بالسوط في عنقه، فالتوى على عنقه فأخذه بيده من السرج واقتلعه وجاء به يجره إلى المسلمين كالنعجة، والمسلمون في فرحٍ وتكبير، بورك سوطك من نحرير، فألقاه بين يدي المستعين، والحال ...

ما أهون الصيد، وما أعظم الصائد!

ففتَّ ذلك في عضد العلوج، فخفتت أصواتهم، واختبأت نعراتهم، وتمزقت

أوصالهم، فركبهم المسلمون، يقتلون ويأسرون،

وعلم المستعين أنه قد أخطأ في صنيعه مع هذا البطل الأسطوري المتفرد المقدام، فأكرمه وأنزله منزله ورده إلى أحسن حال ومقام[1].

obeikandl.com

١- سراج الملوك للطرطوشي.

obeikandl.com

# أحمد بن حنبل

إنه إمام أهل السنة، الإمام أحمد رحمه الله...

إشراقةُ الحقِّ في عينيهِ ساطعةٌ .. وفي مُحَيَّاهُ نورُ الحقِّ وَضَّاءُ

ثَبَّتَ اللهُ بهِ الدينَ يومَ المحنة، فنصر السنَّة، وقمع البدعة، وبوصايا من يَعْرِفُ ومن لا يَعْرِفُ ثَبَّتَهُ الله، كما أخبر رحمه الله، فكان أسطورة من أساطير الشجاعة والقوة والصبر والثبات على الحق ..

فكان ثباتُهُ للقلبِ قلبًا .. وهَيْبَتُهُ جَنَاحًا للجَنَاحِ

وإليك بعض الأمثلة التي تجسد عظم تلك المحنة التي ابتلي بها الإمام الأسطورة العلم أحمد بن حنبل رحمه الله، وكيف كان ثباته؟ وكيف كانت مواساة ونصائح إخوانه له من العون والتثبيت بمكان؟، تلك المحنة التي ابتلي بها حتى يُذْعِنَ ويقولَ زورًا وكفرًا وبهتانًا بأن القرآن مخلوق، ولكن هيهات هيهات...

ففي أول الأمر أخذ الإمام أحمد أيام المأمون ليحمل إلى المأمون ببلاد الروم، فبلغ أحمد الرقة - مكان - ومات المأمون بالبذندون قبل أن يلقاه الإمام أحمد، وذلك في سنة ثمان عشرة ومائتين، فدخل عليه أصحابه بالرقة وهو محبوس، فجعلوا يذكرونه ما يروى في التقية - مبدأ إخفاء ما تعتقد أنه الحق وإظهار خلافه - من الأحاديث، فقال أحمد: وكيف تصنعون بحديث خباب: «إن من كان قبلكم كان ينشر أحدهم بالمنشار، ثم لا يصده ذلك عن دينه». فيئسوا منه، فقال أحمد: لست أبالي بالحبس، ما هو ومنزلي إلا واحد، ولا قتلًا بالسيف، إنما أخاف فتنة السوط، وأخاف ألا أصبر،

فسمعه بعض أهل الحبس وهو يقول ذلك، فقال: لا عليك يا أبا عبد الله، فما هو إلا سوط ثم لا تدري أين يقع الثاني، فكأنه سري عنه، ورد من الرقة وحبس.

وهذا هو الإمام أحمد رحمه الله يقول: لما أُخرِجنا – إلى الخليفة – جعلتُ أفكر فيما نحن فيه، حتى إذا صرنا إلى الرحبة أُنزِلنا خارجًا من البيوت مما يلي البرية، فعامة من كان معنا ناموا، فجعلتُ أفكرُ في تلك البرية وماذا أقول إذا صرتُ إلى ذلك، فأنا في تلك الحال إذ مددت بصري إذا بشيء لم أستَبِنْهُ، فلم يزل يدنو حتى استبان، فإذا بأعرابي عليه ثياب الأعراب قد دنا، وجعل يتخطى تلك المحامل حتى صار إليَّ، فوقف عليَّ فسلم ثم قال: أنت أحمد بن حنبل؟ فسكتُّ تعجبًا، ثم قال الثانية: أنت أحمد بن حنبل؟ فسكتُّ فلم أُجِبْهُ، فبرك على ركبتيه وقال: أنت أبو عبد الله أحمد بن حنبل؟ قلت: نعم، فقال: أبشر واصبر، فإنما هي ضربة ههنا، وتدخل الجنة هنا.

وقيل إن الأعرابي قال له: تُحِبُّ اللهَ؟ قال أبو عبد الله قلت: نعم، قال: فإنك إن أحببت الله أحببت لقاءه. ثم مضى فلم أزل أنظُرُ إليه حتى غاب فلم أره.

يقول الإمام أحمد: فلما ضُربت بالسياط جعلت أذكر كلام الأعرابي وأنا أُضرب!.

فالطِّيْبُ إن غاب ×××  أبقى بَعْدَهُ العَبَقَ

وهذا أبو جعفر الأنباري، يقول: لما حُمِلَ أحمدُ بنُ حنبلَ إلى المأمون، اجتزتُ فعبرتُ الفراتَ، فإذا هو جالس في الخان، فسلمت عليه، فقال: يا أبا جعفر، تَعَنَّيتَ. فقلتُ: ليس في هذا عناء، وقلت له: يا هذا، أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك، فوالله لئن أجبت إلى القول بخلق القرآن ليجيبن بإجابتك خلق من خلق الله، وإن أنت لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير، ومع هذا إن الرجل إن لم يقتلك فأنت تموت ولا بد من الموت، فاتق الله ولا تجبهم إلى شيء. فجعل أحمد يبكي ويقول: ما شاء الله، ما شاء

الله، ثم قال لي أحمد: يا أبا جعفر، أعد عليَّ ما قلت: فأعدتُ عليه، فقال: ما شاء الله، ما شاء الله.

وها هو الإمام أحمد يقول: ما سمعتُ كلمةً كانت أوقع في قلبي من كلمةٍ سمعتُها من أعرابي في رحبة طوق، وقال لي: يا أحمد، إن قتلك الحق مِتَّ شهيداً، وإن عشتَ عشتَ حميدًا!!.

وبالفعل كان كما قال الأعرابي، فلقد رفع الله شأن أحمد بعدما أمتحن، وعظم عند الناس وارتفع أمره جدًا، وكانت تلك الوصايا تقوية لقلبه كما أخبر رحمه الله.

ويأتيه الربيع بن نافع قائلًا: يا أحمد! إن أعين الناس ممدودة إليك، فإن كنت تعلم أنك تقوم المقام الذي تستنقذ فيه نفسك والخلق فيما بينك وبين الله وإلا فاجعل القيد الذي في رجلك في رجلي فقم فاخرج. فقال: يا هذا! أتظن نفسك أعز عليَّ من نفسي؟!،

لا أوثرك بهذا المقام أبدًا!.

ويأتي أعيَنُ إلى آدم بن إياس، فيقول آدم: إنا لله وإنا إليه راجعون حبسوا أحمد، وقالوا القرآن مخلوق، أعداء الإسلام!، إذا لقيتَ أحمد فأقرئه السلام، وقل له: اتق الله، وتقرب إلى الله فيما أنت فيه، ولا يستفزنك أحد فإنك مشرف على الجنة إن شاء الله، وقل له عني، حدثني الليث عن ابن عجلان عن الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "من أرادكم على معصية الله فلا تطيعوه".

قال الأعين: فأتيت أحمد في السجن فأخبرته بما قال آدم، فقال: رحم الله آدم حيًا وميتًا، لقد نصح وأحسن النصيحة!.

ويقول عبد الله بن الإمام أحمد: كنت كثيرًا ما أسمع والدي يقول: رحم الله أبا الهيثم، غفر الله لأبي الهيثم، عفا الله عن أبي الهيثم. فقلت يا أبت، من أبو الهيثم؟ قال: يا بني، في اليوم الذي أُخرجت فيه للسياط، وعندما مُدَّت يداي للعُقابين إذا أنا بإنسان يجذب ثوبي من ورائي، ويقول لي: تعرفني؟ قلت: لا، قال: أنا أبو الهيثم، العيَّار، اللص، الطَّرَّار، مكتوب في ديوان أمير المؤمنين أني ضُربت ثمانية عشر ألف سوطٍ بالتفاريق، وصبرت على ذلك في طاعة الشيطان لأجل الدنيا، فاصبر أنت في طاعة الرحمن لأجل الدين!.

فصبر رحمه الله وكان طودًا لا يتزحزح ...

فسُجِنَ وعُذِّبَ وجُلِدَ ومُنِعَ من التحديث وحُدِّدَتْ إقامته وهو ثابت لا يميد ولا يحيد ...

فها هو رحمه الله لما أتي به ليدخل على المعتصم، قال المعتصم: أين هذا الذي يزعم أن الله عز وجل ينطق بجارحتين؟ فأتي بأحمد بن حنبل وعليه قميص أبيض، وكساء أخضر، ونعله معلقة بيده حتى أوقف بين يديه، فقال: أنت أحمد بن حنبل؟ فقال: أنا أحمد بن محمد بن حنبل، قال: بلغني أنك تقول: إن القرآن كلام الله غير مخلوق، فقال له: أصلح الله أمير المؤمنين، البلاغات تزيد وتنقص، فقال له: يا مبارك، فأيش - فأي شيء - تقول؟ قال: أقول: القرآن غير مخلوق؛ وعلى أي الحالات كان، قال: ومن أين قلت؟ قال روي في الحديث، قال: قال رسول الله ﷺ: "إن كلام الله الذي استخص به موسى عليه السلام، مائة ألف كلمة وثلاث عشرة كلمة فكان الكلام من الله عز وجل، والاستماع من موسى" فقال: كذبت يا عدو الله على رسول الله ﷺ، ما قال رسول الله ﷺ شيئًا من هذا، فقال أحمد: إن كنت تقول: إن رسول الله ﷺ لم يقل شيئًا من هذا، فإن الله ﷻ قال: "ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة

والناس أجمعين"، فإن يكن القول من الله، فإن الكلام من الله، فالتفتَ إلى ابن أبي دؤاد - الذي تولى كبره في القول بخلق القرآن - فقال: كَلِّمْه، فقال ابن أبي دؤاد: اقتله، ولُطِمَ أحمدُ فخرَّ مغشيًا عليه، ثم أفاق، فقال المعتصم: وقرابتي من رسول الله ﷺ لأضربنك بالسياط أو تقول كما أقول، فلما جيء بالسياط نظر إليه المعتصم وقال: ائتوني بغيرها!،

ثم التفت إلى جلاد، فقال: خذه إليك، فأخذه فخرق قميصه ثم أوقفه بين العقابين، فلما ضُرِبَ سوطًا واحدًا، قال: باسم الله، فلما ضُرِبَ الثانيَ، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، فلما ضُرِبَ الثالثَ، قال: القرآن كلام الله غير مخلوق، فلما ضُرِبَ الرابعَ، قال: "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا"،

فقال المعتصم للجلادين: تقدموا - أي أنه أتي بفريق من الجلادين ليجلدوا الإمام أحمد رحمه الله؛ لأنه لو كان الجلاد واحدًا فقط فمع كثرة الضرب يصيبه الكلل والتعب، فكان الواحد منهم يضرب ويتأخر، ويأتي بديله - فجعل يتقدم إليه الرجل منهم فيضربه سوطين، فيقول له المعتصم: شدّ قطع الله يدك - يعني: أضرب بأقصى قوة -.

ثم يتنحى، ويقوم الآخر، فيضربه سوطين، وهو يقول في كل ذلك: شد قطع الله يدك.

فلما ضُرِبَ تسعة عشر سوطًا قام إليه - يعني المعتصم - وقال: يا أحمد! علامَ تقتل نفسك؟ إني - والله - عليك لشفيق!.

فجعل أحدهم ينخسه بقائمة سيفه - أي: يضربه بقائمة السيف - ويقول: أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم؟!.

وجعل بعضهم يقول: ويلك؛ الخليفة على رأسك قائم!.

وقال بعض هؤلاء المنافقين الدجالين: يا أمير المؤمنين! دمه في عنقي، اقتله.

وبعضهم يقول: يا أمير المؤمنين! أنت صائم، وأنت في الشمس قائم.

فقال له المعتصم: ويحك يا أحمد، ما تقول؟ فيقول: أعطوني شيئًا من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ أقول به! فرجع وجلس، وقال للجلاد: تقدم، وأوجع قطع الله يدك.

ثم قام الثانية، فجعل يقول: ويحك يا أحمد، أجبني.

فجعلوا يقبلون عليه ويقولون: يا أحمد! إمامك على رأسك قائم! وجعل أحدهم يقول: من صنع من أصحابك في هذا الأمر ما تصنع؟! وجعل المعتصم يقول: ويحك! أجبني إلى شيء لك فيه أدنى فرج، حتى أطلق عنك بيدي - يعني: اذكر حتى كلامًا تعريضًا حتى أفرج عنك بيدي -.

فقال: يا أمير المؤمنين! أعطوني شيئاً من كتاب الله.

فيرجع ويقول للجلادين: تقدموا.

فجعل الجلاد يتقدم ويضربه سوطين ويتنحى، وهو في خلال ذلك يقول: شد قطع الله يدك.

فذهب عقله - أي: أغمي عليه - فأفاق بعد ذلك فإذا الأقياد قد أطلقت عنه، فقال له رجل ممن حضر: إنا كببناك على وجهك لما أغمي عليك، وطرحنا على ظهرك بارية ودُسْنَاك.

فما شعر بذلك، وأتوه بسويق - نوع من الحساء - فقالوا له: اشرب وتقيأ، فقال: لا أفطر. - أي أنه كان كل هذا العذاب والإمام رحمه الله صائم -!.

ثم ذُهِبَ به إلى دار إسحاق بن إبراهيم، فحضرت صلاة الظهر، فتقدم ابن سماعة فصلى، فلما انفتل من الصلاة قال له: صليت والدم يسيل في ثوبك؟! فقال: قد صلى عمر وجرحه يثعب دمًا.

ثم خلي عنه، فصار إلى منزله، وكان مكثه في السجن منذ أخذ وحمل إلى أن ضرب وخلي عنه ثمانية وعشرين شهرًا.

ولقد أخبر أحد الرجلين اللذين كانا معه، فقال: رحمة الله على أبي عبد الله، والله ما رأيت أحداً يشبهه، ولقد جعلت أقول له في وقت ما يوجه إلينا بالطعام: يا أبا عبد الله! أنت صائم، وأنت في موضع تقية.

يقول: ولقد عَطِشَ فقال لصاحب الشراب: ناولني،

فناوله قدحًا فيه ماء وثلج، فأخذه ونظر إليه هنية، ثم رده ولم يشرب، عزّ عليه أن يقطع صومه، ويفوت عليه ثواب الصيام، فجعلتُ أعجب من صبره على الجوع والعطش وهو فيما هو فيه من الهول!.

وعلق الإمام أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله تعالى على موقف الإمام أحمد رحمه الله قائلًا: هذا رجل هانت عليه نفسه في الله تعالى، فبذلها، كما هانت على بلال نفسه!.

وعن سعيد بن المسيب أنه قال عنه: كانت نفسه عليه في الله تعالى أهون من نفس ذباب!.

وقال أبو العلاء الأهتمي: ما رأيت أحدًا أشجع قلبًا من أحمد بن حنبل![1].

وقال إسحاق بن راهويه: لولا أحمد، وبذل نفسه لما بذلها له لذهب الإسلام!.

---

١- انظر المحنة على الإمام أحمد للمقدسي بتصرف.



obeikandl.com

وقال علي بن المديني: ما قام أحد في الإسلام ما قام به أحمد بن حنبل!.

الله أكبر

فكان رحمه الله أسطورة من أساطير الشجاعة والصبر والثبات، وكان معه في ذلك خلقٌ كثير طالتهم كذلك هذه المحنة، وإلى جانب ذلك فقد كان رحمه الله أسطورة لا مثيل لها في طلب العلم وتحصيله، وبذله وتعليمه، والتحديث بحديث رسول الله ﷺ.

حتى قال مهنا بن يحيى الشامي: ما رأيت أحد أجمع لكل خير من أحمد بن حنبل، وما رأيت مثله في فقهه وعلمه، وزهده وورعه[1].

فهو أحد الأئمة الهداة الأعلام، وأحد الأربعة الذين تدور عليهم الفتاوى والأحكام، في بيان مسائل الحلال والحرام، وصاحب المسند الذي هو أحد أجل كتب الإسلام، إنه إمام أهل السنة ...

الإمام أحمد بن حنبل!.

١- طبقات الشافعيين (١/١٠٧، ١٠٨).



obeikandl.com

## سيف الدين قطز

إذا أراد الله شيئًا هيَّأَ أسبابه... قاعدةٌ كونيةٌ ربانية..

وهذا بالفعل ما حدث مع أسطورة هذا الفصل، الأسطورة سيف الدين قطز، عندما أراد الله أن يُهَيِّأَهُ ويُعِدَّه لهذه الأمة، بل للبشرية جمعاء، ليحافظ عليها ويحميها من بطش وعدوان واجتياح التتار!.

فما حدث مع نبي الله موسى عليه السلام في قصته مع فرعون عندما أخذه فرعون ورباه في بيته وتَكَفَّلَ برعايته، ثم أتى موسى بعد ذلك فكان السبب في تدميره وهلاكه، هذا هو ما حدث تمامًا مع سيف الدين قطز في قصته مع التتار...

التتار.. ذلك الجيش الوحشيّ، ذو الخُلُقِ الهمجيّ، والطبْعِ الدمويّ، الذي لم يكن له قصدٌ إلا إفناءَ النوعِ البشريّ، وإبادةَ العَالَمِ الكُلِّيّ، والذي ظهر في الشرق الآسيويّ، بقيادة الرجل المغوليّ،(تيموجين) أو (جنكيز خان) كما أطلق عليه بعد ذلك الجيش التتريّ، والذي يعني (قاهر العالم) بالمعنى المنغوليّ.

ذلك الشعب الذي استطاع بوحشيته في فترةٍ زمنيةٍ وجيزةٍ لا تساوي في حساب الزمن شيئًا أن يُكَوِّنَ إمبراطوريةً عظيمةً امتدت من (كوريا) شرقًا إلى (بولندا) غربًا، ومن (سيبيريا) شمالًا إلى (كمبوديا) جنوبًا!.

ولسنا بصددِ الحديثِ عنِ التتار، وإلا فالإخبارُ والحديثُ عنهم يطولُ ويَعْظُم، بل هو كما قال الموفق عبد اللطيف في خبر التتار: هو حديثٌ يأكل الأحاديث، وخبرٌ يطوي

الأخبار، وتاريخٌ يُنْسِي التواريخ، ونازلةٌ تُصَّغِرُ كلَّ نازلة، وفادحةٌ تُطْبِقُ الأرض، وتملؤها ما بين الطولِ والعرض![1].

والشاهدُ أن قوى الشيعة بتَقِيَّتِهَا – التقية: هو مبدأ عند الشيعة بإظهار خلاف ما يُبطن – وخيانتِها، اتحدَّت وتحالفت مع قوى التتار بهمجيَّتِها ووحشَيَّتِها، لاستئصال شجرة الخلافة الإسلامية من منبَتِها.

فقام الخليفة العباسي الشيعي (الناصر لدين الله) بمراسلة (هولاكو) – هولاكو خان قائد المغول – ليُطَمِّعَهُ في بلاد المسلمين، وقام شيخ طائفة الشيعة الأكبر (نصير الدين الطوسي) بطمأنة هولاكو الذي كان خائفًا أن تحِلَّ عليه اللعنات من السماء، وبإخباره أن شيئًا لن يصيبه إذا قتل الخليفة العباسي.

ثم جاء الدور على أعظمِ خائنٍ شيعي، الوزير الإثنى عشري، الخبيث (مؤيد الدين بن العلقمي)، والذي قام بفتح أبواب (بغداد) للجيش التتري!.

ذلك المأفون الملعون، الذي قام بتلك الفعلة التي لن يغفرها له التاريخ ولا المسلمون، والتي فعلها مقابل أن يجعله هولاكو واليًا على المدينة المنورة لكي ينبش قبور أم المؤمنين عائشة، والشيخين أبي بكر وعمر عليهم رضوان الله أجمعين.

وبالفعل دخل التتار بغداد، وكان الخبيث ابن العلقمي قد طلب من خونة الشيعة في العراق أن يجعلوا على بيوتهم أعلامًا مُمَيِّزةً حتى لا يقتل التتار إلا أهل السنة من المسلمين فقط!.

دخل التتار بغداد، أكبر مدينة في العالم حينها، وارتكبوا من الآثام ما ارتكبوا... قتلوا ما يصل إلى مليوني مسلمٍ في ما لا يزيد على أربعين يومًا حتى تعفنت الجثث

---

١- تاريخ الخلفاء (٤٠٣/١).

في شوارع بغداد!، حرقوا (مكتبة بغداد)، وما أدراك ما كانت (مكتبة بغداد)؟!، وألقوا بكتبها الثمينة في نهر دجلة جاعلين منها جسرًا يعبرون عليه!، وفعلوا ما فعلوا... ([1]).

ثم بعد ذلك أصبح الطريق مفتوحًا ومُمَهَّدًا أمامهم لهدم (الكعبة)، بعد أن احتلوا الشام، وصار مصير الإسلام والمسلمين بل مصير البشرية كلِّهَا في خطر عظيم.

لكن كما ذكرت آنفًا في بداية الفصل، عند بداية الحديث عن أسطورته: إذا أراد الله شيئًا هيَّأ أسبابه..

فقد أبرم الله لهذه الأمة أمر رُشْد، بأن أعدَّ لها وهيَّأ لها أسطورةً من الأساطير، يكون بمثابةِ المنقذِ للإسلام والمسلمين، وسائر البشرية من التتر الآثمين، وكان ذلك كما ذكرتُ أيضًا على غرار قصة موسى مع فرعون.

فلقد كان هذا الأسطورة (سيف الدين قطز) واسمه الحقيقي (محمود بن ممدود الخوارزمي) ابنَ أخت (جلال الدين ابن خوارزم شاه) ملك (المملكة الخوارزمية الإسلامية)، التي كانت تقع في آسيا الوسطى، وشاء الله أن تكون هذه المملكة من أوائل ضحايا التتار، الذين قاموا بقتل جميع أهل قطز، وإبقائه هو حيًّا، لينشأ بينهم، ويعالج طباعهم، حتى أنهم من أطلقوا عليه اسم (قطز)، وهو يعني الحيوان المتوحش، لِمَا لاحظوه عليه من التمرد، لكي يبيعوه بعد ذلك في سوق النخاسة، ثم يشاء الله بعد ذلك أن ينقلوه هم بأنفسهم كذلك من مجاهل آسيا الوسطى إلى أرض الشام، هناك حيث اشتراه الملك الأيوبي المجاهد (نجم الدين أيوب) مع غيره من العبيد، وقام بتربيتهم تربية عسكرية صارمةً قائمةً على أساس حبِّ الإسلام والانتماء له والولاء والبراء من أجله، ليُكَوِّنَ منهم كتيبة (المماليك) العظيمة، ثم لِيَكُونَ أحدُ هؤلاءِ المماليك - وهو

---

١- المغول التتار بين الانتشار والانكسار (٢٠١/١).

(قطز) - بعد ذلك مَلِكًا مُظَفَّرًا من أعظم ملوك الإسلام، ملكٌ عبقريٌّ عالي الهمَّة، وقائدٌ عظيمٌ يُوَّحِدُ الأمَّة، وشجاعٌ أبيٌّ يكشفُ الله به الغمَّة!.

وأما ذلك الملكُ المغوار، فهو قطزُ هازم التتار، الموصوفُ حالُه في الأشعار:

ترى الأسودَ لهُ خُرْسًا ضَرَاغِمُهَا ... يَرْعَدْنَ مِنْ فَرَقٍ منه إذا زئرا

بعث له هولاكو رسالة إنذار، حملها أربعون علجًا من وحوش التتار، قال فيها الحمار:

من مَلِك الْمُلُوك شرقًا وغربًا القان الْأَعْظَم: بِاسْمِك اللَّهُمَّ، باسط الأَرْض، وَرَافِع السَّمَاء، يعلمُ الْملك المظفر قطز الَّذِي هُوَ من جنس المماليك الَّذين هَرَبُوا من سُيُوفنَا إِلَى هَذَا الإقليم، يتنعمون بإنعامه وَيقْتلُونَ من كَانَ بسلطانه بعد ذَلِك. يعلمُ الْملك المظفر قطز وَسَائر أُمَرَاء دولته وَأهل مَمْلَكَته بالديار المصرية وَمَا حولهَا من الْأَعْمَال، أَنَّا نَحن جند الله في أرضه، خُلقنَا من سخطه، وسُلِّطْنا على من حلَّ بِهِ غَضَبه. فلكم بجَمِيع الْبِلَاد مُعْتَبر، وَعَن عزمنا مزدجر، فاتَّعِظُوا بغيركم، وَأَسْلمُوا إِلَيْنَا أَمركُم، قبل أَن ينْكَشف الغطاء فتندموا وَيعود عَلَيْكُم الْخَطأ. فَنحْن مَا نرحم من بَكَى، وَلَا نَرِقُّ لمن شكى، وَقد سَمِعْتُمْ أننا قد فتحنا الْبِلَاد، وَطَهَّرْنَا الأَرْض من الْفساد، وقتلنا مُعظم الْعِبَاد، فَعَلَيْكُم بالهرب، وعلينا بالطَّلَب. فَأَي أَرض تأويكم، وَأي طَرِيق تنجيكم، وَأي بِلَاد تحميكم؟!. فَمَا مِنْ سُيُوفنَا خلاص، وَلَا مِنْ مهابتنا مناص. فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال. فالحصونُ لدينا لَا تَمنع، والعساكر لقتالنا لَا تَنْفَع، ودعاؤكم علينا لَا يُسْمَع، فَإِنَّكُم أكلتُم الْحَرَام، وَلَا تعفون عِنْد الْكَلَام، وخُنْتُمُ العهود والأيمان، وَفَشَا فِيكُم العقوق والعصيان، فأبشروا بالمذلة والهوان. فاليوم تُجْزونَ عَذَاب الْهون بِمَا كُنْتُم تستكبرون في الأَرْض بِغَيْر الْحق

وَبِمَا كُنْتُم تفسقون، وَسَيعْلَمُ الَّذين ظلمُوا أَي مُنْقَلب يَنْقَلبُون. فَمن طلب حربنا نَدم، وَمن قصد أماننا سلم. فَإِن أَنْتُم لشرطنا ولأمرنا أطعتم فلكم مَا لنا وَعَلَيْكُم مَا علينا، وَإِن خالفتم هلكتم فَلَا تُهْلِكُوا نفوسكم بِأَيْدِيكُمْ. فقد حذَّر من أنذر، وَقد ثَبت عنْدكُمْ أَنَّا نَحن الْكَفَرَة، وَقد ثَبت عندنَا أَنكُمْ الفجرة، وَقد سَلَّطَنا عَلَيْكُم من لَهُ الْأُمُور الْمقدرَة، وَالْأَحْكَام الْمُدبرَة، فكثيركم عندنَا قَلِيل، وعزيزكم عندنَا ذليل، وَبِغير الإهانة للموككم عندنَا سَبِيل. فَلَا تُطيلوا الْخطاب، وأسرعوا برد الْجَواب، قبل أَن تُضْرِمَ الْحَرْبُ نارها، وترمي نحوكم شرَارهَا، فَلَا تَجِدُونَ مِنَّا جاهًا وَلَا عِزًا، وَلَا كَافيا وَلَا حرْزًا، وتدهون مِنَّا بأعظم داهية، وتصبح بِلَادكُمْ مِنْكُم خَالِيَة. فقد أنصفنا إِذْ راسلناكم، وأيقظناكم إِذْ حذرناكم، فَمَا بَقِي لنا مقصدٌ سواكم. وَالسَّلَام علينا وَعَلَيْكُم وعَلى من أَطَاع الْهدى، وخشيَ عواقب الردى، وأطاع الْملك الْأَعْلَى[1].

وقطزُ قطز...

مَنِيَّةٌ ليسَ تَبْغِي غيرَ طالبِهَا، وكوكبٌ ليسَ يَبْغِي غيرَ عِفْريتِ

ما إِنْ قرأ الرسالةَ، حتى أَمَرَ بقتلِ جميعِ أَعْلَاجِ التتار، حاملِي الإنذار، وتعليقِ رؤوسِهم في جَميعِ شوارع القاهرَةِ الأبيَّة، رفعًا للروح المعنويَّة، لأن الناس كانُوا في رُعْبٍ من الأخبارِ التتريَّة، وَأبقى الْملكُ المظفر على صبيٍّ من الرُّسُل وَجعله من جملَة مماليكه.

وَنُودِيَ في الْقَاهرَة ومصر وَسَائِر إقليم مصر، بِالْخرُوجِ إِلَى الْجِهَاد في سَبِيل الله، ونُصرةً لدين رَسُول الله ﷺ.

وَتقدم الْملك المظفر لسَائِر الْوُلَاة بإزعاج - استدعاء - الأجناد في الْخُرُوج للسَّفر، وَمن وجد مِنْهُم قد اختفى يضْرب بالمقارع.

---

١- السلوك لمعرفة دول الملوك (١/٥١٤).

وَسَار حَتَّى نزل بالصالحية وتكامل عِنْده الْعَسْكَر فَطلب الْأُمَرَاء وَتكلم مَعَهم فِي الرحيل فَأَبَوا كلهم عَلَيْهِ وامتنعوا من الرحيل.

فَقَالَ لَهُم: يَا أُمَرَاء الْمُسلمين لكم زمَان تَأْكُلُونَ أَمْوَال بَيت المَال وَأَنْتُم للغزاة كَارِهُون وَأَنا مُتَوَجّه فَمن اخْتَار الْجِهَاد يصحبني وَمن لم يخْتَر ذَلِك يرجع إِلَى بَيته، فَإِن الله مطلع عَلَيْهِ وخطيئة حَرِيم الْمُسلمين فِي رِقَاب الْمتأَخِّرين.

فَتكلم الْأُمَرَاء الَّذين تخيَّرَهم وحَلَّفَهُم فِي مُوَافَقَته على الْمسير، فَلم يسع الْبَقِيَّة إِلَّا الْمُوَافقَة وانفضَّ الْجمع!.

فَلَمَّا كَانَ فِي اللَّيْل رَكِبَ السُّلْطَانُ وحَرَّك كُوساته وَقَالَ: أَنا أَلْقى التتار بنفسي، فَلَمَّا رأى الْأُمَرَاء مسيرَ السُّلْطَان سَارُوا على كُرْه.

وَأمر الْملك قطز الْأَمِير ركن الدّين بيبرس البندقداري أَن يتَقَدَّم فِي عَسْكَر ليعرف أَخْبَار التتر، فَسَار بيبرس إِلَى غَزَّة وَبهَا جموع التتر، فرحلوا عِنْد نُزُوله وَمَلَكَ هُوَ غَزَّة.

ثمَّ نزل السُّلْطَان بالعساكر إِلَى غَزَّة وَأقَام بهَا يَوْمًا، ثمَّ رَحل من طَرِيق السَّاحِل على مَدِينَة عكا وَبهَا يَوْمئِذٍ الفرنج، فَخرجُوا إِلَيْهِ بتقادُم وَأَرَادُوا أَن يَسِيرُوا مَعَه نجدةً فشكرهم وأخلَعَ عَلَيْهِم واستحلفهم أَن يَكُونُوا لَا لَهُ وَلَا عَلَيْهِ، وَأقسم لَهُم أَنه مَتى تبعه مِنْهُم فَارِسٌ أَو رَاجِل يُرِيد أَذَى عَسْكَر الْمُسلمين رَجَعَ وَقَاتلهمْ قبل أَن يلقى التتر.

وَأمر الْملكُ المظفرُ بالأمراء فَجُمِعُوا وحضَّهُم على قتال التتر، وَذكَّرَهُمْ بِمَا وَقع بِأَهْل الأقاليم من الْقَتْل والسبي وَالْحَرِير، وخوَّفَهم وُقُوع مثل ذَلِك، وحثهم على استنقاذ الشَّام من التتر ونصرة الْإِسْلَام وَالْمُسْلِمين وحذرهم عُقُوبَة الله، فضَجُّوا بالبكاء، وتحالفوا على الِاجْتِهَاد فِي قتال التتر ودفعهم عَن الْبِلَاد!.

فَأمر السُّلْطَان حِينَئِذٍ أَن يسير الْأَمِير ركن الدّين بيبرس البندقداري بِقِطْعَة من الْعَسْكَر فَسَار حَتَّى لَقِي طَلِيعَة التتر، فَكتب إِلَى السُّلْطَان يُعلمهُ بذلك، وَأخذ فِي مناوشتهم فَتَارَةً يُقْدِم وَتارَةً يُحْجِم، إِلَى أَن وافاه السُّلْطَان على (عين جالوت)، وَكَانَ (كتبغا) و(بيدرا) نَائِبا (هولاكو) لما بلغهما مسيرُ العساكرِ المصرية جمعا مَنْ تفرَّقَ من التتر فِي بِلَاد الشَّام، وسارا يُريدَان محاربة الْمُسلمين، فالتقت طَلِيعَة عَسْكَر الْمُسلمين بطليعة التتر وكسرتها.

فَلَمَّا كَانَ يَوْم الْجُمُعَة الخَامِسَ عشر من شهرِ رَمَضَان، التقى الْجَمْعَانِ، وَفِي قُلُوب الْمُسلمين وَهْمٌ عَظِيم من التتر، وَذَلِكَ بعد طُلُوع الشَّمْس، وَقد امْتَلَأَ الْوَادي وَكثر صياح أهل الْقرى من الفلاحين وتتابع ضرب كُوسات السُّلْطَان والأمراء، فتحيز التتر إِلَى الْجَبَل، فعندما اصطدم العسكران، اضْطربَ جنَاح عَسْكَر السُّلْطَان، وانتفَضَ طرفٌ مِنْهُ، وكادَ النصرُ أن يكونَ للتتار، وعندها أدركَ المغْوَار، أن الهزيمة ستكونُ سقوطًا لآخرِ قلاعِ الإسلام، وستكونُ مكةُ والمدينةُ هدفًا للروافضِ مع الخونةِ التتار، فَعِندَئِذٍ نزلَ الملكُ المظفرُ عن ظهر فَرَسِه، وخلع خَوْذَته، وألقَى بها وصَرَخَ بأعلى صوته:

وا إسلاماه!.. وا إسلاماه!..

وَحملَ بِنَفسِهِ وبمن مَعَه حَملَة صَادِقَة، فأيده الله بنصره، وَقتل كتبغا مقدم التتر، وَقتل بعده الْملك السعيد حسن بن الْعَزِيز، وَكَانَ مَعَ التتر، وَانْهَزَمَ باقيهم ومنحَ الله ظُهُورَهُمْ الْمُسلمينَ يقتلُون وَيَأْسِرُونَ، وأبلى الْأَمِير بيبرس أَيْضًا بلَاءً حسنًا بَين يَدي السُّلْطَان.

وَمِمَّا اتّفق فِي هَذِه الْوَقْعَة أَن الصَّبِي الَّذِي أبقاه السُّلْطَان من رسل التتر وأضافه إِلَى مماليكه كَانَ رَاكِبًا وَرَاءه حَال اللِّقَاء، فَلَمَّا التحم الْقِتَال فَوَّقَ - صَوَّبَ - سَهْمه نَحْو السُّلْطَان فَبَصُر بِهِ بعض من كَانَ حَوله فَأَمْسك وَقُتِلَ مَكَانَهُ.

وَقيل بل رمى الصَّبِي السُّلْطَان بسهمه فَلم يُخطئ فرسه وصرعه إِلَى الأَرْض وَصَارَ السُّلْطَان على قَدَمَيْهِ فَنزل إِلَيْهِ فَخر الدِّين ماما وأركبه فرسه حَتَّى حضرت الجنائب فَركب فَخر الدّين مِنْهَا.

وَمر الْعَسْكَرُ فِي أثر التتر إِلَى قرب (بيسان) فَرجع التتر وصافوا مصافاً ثَانِيًا أعظم من الأول، فَهَزَمَهُمْ الله وَقتل أكابرهم وعِدَّةٌ مِنْهُم.

وَكَانَ قد تزلزل الْمُسلمُونَ زلزالاً شَدِيدًا فَصَرَخَ السُّلْطَان صرخةً عَظِيمَةً سَمعه مُعظم الْعَسْكَر وَهُوَ يَقُول: وَا إسلاماه (ثَلَاث مَرَّات)، يَا الله.. يا جبار.. انصُرْ عَبدك قطزَ على التتار!.

فَلَمَّا انْكَسَرَ التتار الكسرة الثَّانِيَة نزل السُّلْطَان عَن فرسه ومَرَّغَ وَجهَهُ على الأَرْض وَقبلهَا وَصلى رَكْعَتَيْنِ شكرًا لله تَعَالَى، ثمَّ ركب فَأقبل الْعَسْكَرُ وَقد امْتَلَأت أَيْديهم بالمغانم، فورد الْخَبَر بانهزام التتر إِلَى دمشق لَيْلَة الْأَحَد السَابِع عشر، وحُمِلَتْ رَأْسُ (كتبغا) مقدم التتار إِلَى الْقَاهِرَة، ففر الزين الحافظي ونواب التتار من دمشق، وتبعهم أَصْحَابهم، فامتدت أَيدي أهل الضّيَاع إِلَيْهِم ونهبوهم، فَكَانَت مُدَّة اسْتِيلَاء التتر على دمشق سَبْعَة أشهر وَعشرَة أَيَّام، لتعلوَ بعدَ ذلكَ كلمةُ اللهِ ويَستَرِدَّهَا أهلُ الإسلام!.

وكُفَّت أَكُفُّ البغيِّ من كلِّ مُعتَدِ ... وأُعْلِنَ حَمْدُ الله في كل مسجدِ

واستطاع هذا العملاق تغيير حالَ أمةٍ بأسرها من حضيض الهزيمة إلى قمة النصر، في سنة واحدة هي مدةُ حكمه، مُتَرْجِمًا بفعله:

ما جَرَّدَ الصمصامَ ذو همةٍ ... عِنْدَ اعوجاجِ الأمرِ إلا استقامْ(١).

---

١- السلوك لمعرفة دول الملوك (١/٥١٥ : ٥١٧)، محاضرة رَيَّا البشام لعلي القرني بتصرف.

# خديجة بنت خويلد

هي أسطورة استثنائية على كل حال، فهي ليست من الرجال، وليست كذلك أسطورة في الشجاعة والقتال، ولكنها أسطورة أساطير النساء عبر الأجيال...

قال ﷺ: "خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ أَرْبَعٌ: مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ"[1].

وقال ﷺ: "حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ ابْنَةُ مُحَمَّدٍ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ"[2].

إنها أمُّ المؤمنينَ والعيال، وربةُ الغنى والمال، وملكة الحسن والجمال، المنعوتةُ بالكمال، والموعودة بالمنال، والمقصودة بسلام الله ذي الجلال...

عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: "أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْكَ بِإِنَاءٍ مَعَهَا فِيهِ إِدَامٌ، أَوْ طَعَامٌ، أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ، فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ، لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ"[3].

وقال ﷺ: "كَمُلَ من الرِّجَال كثير، وَلم يكْمُل من النِّسَاء إِلَّا أَربع: مَرْيَم وآسية امْرَأَة فِرْعَوْن وَخَدِيجَة بنت خويلد وَفَاطِمَة بنت رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم، وَفضل عَائِشَة على النِّسَاء كفضل الثَّرِيد على سَائِر الطَّعَام".

---

١- رواه ابن حبان (٦٩٥١) والطبراني في الكبير (١٠٠٤) وصححه الألباني.

٢- رواه أحمد (١٢٣٩١) وابن حبان (٧٠٠٣).

٣- رواه البخاري (٣٦٠٩) ومسلم ٦٣٥٤-(٧١-٢٤٣٢) وأحمد (٧١٥٦).

إنها أول من آمن بالمقال، وصدَّق بالفعال، وساند بالوصال، وصبر وصابر مصابرة الأبطال...

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُول اللَّهِ ﷺ لا يَكَادُ يَخْرُجُ مِنَ الْبَيْتِ حَتَّى يَذكر خَدِيجَةَ، فَيُحْسِنُ عَلَيْهَا الثَّنَاءَ، فَذَكَرَهَا يَوْمًا مِنَ الأَيَّامِ، فَأَدْرَكَتْنِي الْغِيرَةُ فَقُلْتُ: هَلْ كَانَتْ إلا عَجُوزًا قَدْ أَخْلَفَ اللَّهُ لَكَ خَيْرًا مِنْهَا؟.

قَالَتْ: فَغَضِبَ حَتَّى اهْتَزَّ مُقَدَّمُ شَعْرِهِ مِنَ الْغَضَبِ، ثُمَّ قَالَ: «لا وَاللَّهِ، مَا أَخْلَفَ اللَّهُ لِي خَيْرًا مِنْهَا، لَقَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاس، وَرَزَقَنِي اللَّهُ أَوْلادَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلادَ النِّسَاءِ».

قَالَتْ: فَقُلْتُ: بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي: لا أَذْكُرُهَا بِسُوءٍ أبدًا[1].

وحسبها ما كان من أمرها مع النبي ﷺ عند بدء الوحي، حين وقفت إلى جواره ذلك الموقف العظيم العزيز، فقامت باحتوائه وتهدئته وتثبيته، وتبشيره وطمأنته وتصديقه، ثم بمساندته وعونه وتأييده، فكانت خير الناصر ونعم المعين...

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةَ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاَءُ، فَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ يَتَحَنَّثُ فِيهِ، وَهُوَ التَّعَبُّدُ، اللَّيَالِيَ أُوْلاَتِ الْعَدَدِ، قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى فَجِئَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ، فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ: فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ

---

١- رواه أحمد (٢٤٨٦٤) والآجري في الشريعة (١٦٨١).

أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ: فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: أَقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ × خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ × اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ × الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ × عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ"[1]، فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ، فَقَالَ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي»، فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، ثُمَّ قَالَ لِخَدِيجَةَ : «أَيْ خَدِيجَةُ، مَا لِي» وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ ، قَالَ : لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي، قَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: كَلاَّ أَبْشِرْ، فَوَاللَّهِ، لاَ يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، وَاللَّهِ، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخِي أَبِيهَا، وَكَانَ امْرَءًا تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ، وَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالْعَرَبِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: أَيْ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ، قَالَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ: يَا ابْنَ أَخِي، مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَآهُ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى ﷺ، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، يَا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟" قَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا[2].

فكانت رضي الله عنها حليمةً رحيمةً، فقيهةً حكيمةً، كريمةً عظيمة!.

---

١- (العلق : ١-٥).

٢- رواه البخاري (٦٥٨١) ومسلم ٣٢٢-(٢٥٢-١٦٠) وأحمد (٢٥٩٥٩).

انتقلت خديجة من دورها السابق الذي قامت به في تثبيت النبي وتبشيره، إلى دور جديد في مؤازرته ومعاونته في تبليغ الدعوة، ومواجهة المشركين وإعراضهم وعدوانهم، عن عبد الله بن عباس قال: كانت خديجة بنت خويلد أول من آمن بالله ورسوله، وصدَّقَ محمدًا رسول الله فيما جاء به عن ربه وآزره على أمره، فكان لا يسمع من المشركين شيئًا يكرهه من ردٍ عليه وتكذيبٍ له، إلا فرّج الله عنه بها، تثبته وتصدقه وتخفف عنه، وتهوّن عليه ما يلقى من قومه[1]. وكانت خديجة قد أُوذيت بابنتيها رقية وأم كلثوم عندما آذت قريش الرسولَ بهما حين طلقوهما من زوجيهما، فحزنت لذلك وتألمت، ثم تألمت ثانيةً عندما هاجرت رقية مع عثمان إلى الحبشة[2].

الموقف العظيم عند الحصار في شعب أبي طالب...

عندما فُرِضَ الحصارُ على بني هاشم، قررت خديجة أن تترك قبيلتها بني أسد أهل القوة والمنعة، وتلتحق بزوجها محمد ﷺ ومن معه من بني هاشم لتعاني ما يعانونه من جوع وضعف ومأساة، روى ابن هشام في سيرته بعض ما عانته وقال: وقد كان أبو جهل ابن هشام - فيما يذكرون - لقي حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد، معه غلامٌ يحمل قمحًا يريد به عمته خديجة بنت خويلد، وهي عند رسول الله، ومعه في الشِعب، فتعلق به وقال: أتذهب بالطعام إلى بني هاشم؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة، فجاءه أبو البختري بن هاشم بن الحارث بن أسد فقال: مالك وله؟ فقال: يحمل الطعام إلى بني هاشم، فقال له أبو البختري: طعامٌ كان لعمته عنده بَعَثَتْ إليه فيه أفتمنعه أن يأتيها بطعامها!، خلِّ سبيل الرجل، فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه، فأخذ له أبو البختري لحيَ بعير - هما العظمان اللذان فيهما الأسنان -

---

١- الاستيعاب (٢/١٨٢٠).

٢- سيرة ابن هشام (٢/٢١٤).

فضربه به فشجه، ووطئه وطأً شديداً، وحمزة بن عبد المطلب قريب يرى ذلك، وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله وأصحابه، فيشمتوا بهم، ورسول الله على ذلك يدعو قومه ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، مبادياً بأمر الله لا يتقي فيه أحداً من الناس[1].

وقد بلغ الجهد بالمحاصرين حتى كان يُسمع أصواتُ النساء والصبيان يصرخون من شدة ألم الجوع، وحتى اضطروا إلى التقوُّتِ بأوراق الشجر، بل وإلى أكل الجلود، وقد ظلت هذه الأزمة والمأساة البشرية طيلة ثلاثة أعوامٍ كاملة، قال عبد الله بن عباس وهو ممن ولد في الشِّعب: حُصرنا في الشِّعب ثلاث سنين، وقطعوا عنَّا الميرة، حتى إن الرجل ليخرج بالنفقة فما يُبايع حتى يرجع، حتى هلك من هلك[2].

الشاهدُ أنّ أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها زوجَ ﷺ قضت معه ثلاث سنوات محصورةً في شعب أبي طالب، تقاسي معه الجوع والظمأ، والفاقة المنهكة، مشارَكةً ومواساةً ومؤازَرَةً له صلى الله عليه وسلم[3].

**النهاية...**

توفيت خديجة بنت خويلد بعد وفاة عم النبي أبو طالب بن عبدالمطلب بثلاثة أيام وقيل بأكثر من ذلك، في شهر رمضان قبل الهجرة بثلاث سنين عام ٦٢٠م، ولها من العمر خمس وستون سنة، وكان مقامها مع رسول الله بعدما تزوجها أربعًا وعشرين سنة وستة أشهر، ودفنها رسول الله بالحجون ولم تكن الصلاة على الجنائز يومئذ، وحزن عليها النبي ونزل في حفرتها، وسُمي العام الذي مات فيه أبو طالب وخديجة بعام الحزن، ولم ينسَ رسول الله محبته لخديجة بعد وفاتها وكان دائما يثني عليها ولم

١- سيرة ابن هشام (٢٣٦/١).
٢- تفسير سورة المسد – تفسير السيوطي.
٣- الرسالة المحمدية (١٠٧/١) بتصرف.

يتزوج عليها حتى ماتت إكرامًا لها، وقد كانت مثال الزوجة الصالحة الوفية، فبذلت نفسها ومالها لرسول الله وصدقته حين نزل عليه الوحي.

نعم توفيت خديجة ولكن.. بقيت سيرتها عاطرة الشذى...

قال الذهبي: ومناقبها جمّة، وهي ممن كَمُلَ من النساء، كانت عاقلة جليلة دَيِّنَةً مصونةً كريمةً، من أهل الجنة، وكان النبي يُثني عليها، ويُفضّلها على سائر أمهات المؤمنين، ويُبالغ في تعظيمها، بحيث إنّ عائشة كانت تقول: ما غِرت من امرأة ما غرت من خديجة، من كثرةِ ذِكر النبي لها، ومن كرامتها عليه أنها لم يتزوج امرأة قبلها، وجاءه منها عدة أولاد، ولم يتزوج عليها قطّ، ولا تسرّى إلى أن قضت نحبها، فوجد لفقدها، فإنها كانت نعم القرين، وكانت تنفق عليه من مالها، ويتجر هو لها. وقد أمره الله أن يُبشّرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب[1].

وقال ابن حجر العسقلاني: وقد تقدم في أبواب بدء الوحي بيان تصديقها للنبي في أول وهلة ومن ثباتها في الأمر ما يدل على قوة يقينها ووفور عقلها وصحة عزمها لا جرم كانت أفضل نسائه على الراجح[2].

كما ظلَّ النبي ﷺ مُحِبًّا لها، متيَّمًا بها، مُعتَرفًا بجميلها، مقدِّرًا لفضلها، وفيًّا لها، بارًّا بها، حتى بعد مماتها، مستوصيًا خيرًا بكل أصدقائها وأقاربها ومعارفها، بل وحتى بكل من كان يأتيهم في زمانها، شعاره في ذلك: "...وإن حُسْنَ العهد من الإيمان"[3].

---

١- سير أعلام النبلاء (٢/١١٠).

٢- فتح الباري (٧/١٠٠).

٣- رواه الحاكم (٤٠) وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني.

حاملًا بين طيَّاتِ قلبه، ومصرِّحًا به: «إِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا»[1].

وحسبها قوله ﷺ: "خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ"[2].

obeikandl.com

١- رواه مسلم ٦٣٥٩-(٧٥-...).

٢- رواه البخاري (٣٢٤٩) ومسلم ٦٣٥٢-(٦٩-٢٤٣٠) وأحمد (٦٤٠).

obeikandl.com

# شامل الداغستاني
## (صقر القوقاز)

هو مجاهد من المجاهدين العظام، كان يلقب بـ(أسد القفقاس) و(صقر الجبال)، تعرض للشهادة في مواطنها، وأَبَى إلا أن يغترف من كأسها الطاهر المطهر، لكنه مات على فراشه بعد ملحمة طويلة، ومعارك جليلة أذاق فيها الروس القياصرة الذل والهوان، وهُزموا أمامه مرارًا، هذا وروسيا آنذاك من القوى العالمية في الطبقة الأولى، وكانت في أوج عنفوانها وغطرستها، قد هزمت نابليون وتقدمت حتى دخلت باريس سنة ١٨١٦م!.

والإمام شامل من داغستان، ولد في قرية غيمري سنة ١٢١٢هـ/١٧٩٧م، ونشأ فيها نشأة الأبطال الفرسان، على أنه درس بعض العلوم على مشايخ من بلاده.

كان طول شامل قرابة المترين، وكان له حصان أسود اللون ومن سلالة أصيلة. تميز شامل بلبس أبيض وأسود مع معطف فضفاض وعمامته حشفتها حمراء، أما رايته فكانت سوداء اللون، وكان لشامل صاحب يكبره بخمس سنوات يُسمّى غازي محمد مُلَّا، وكان رفيق دربه، فكانا يدرسان معًا على المشايخ، ويدوران على المساجد، وابتدءا الجهاد معًا، وكان لبدء الجهاد سبب مؤثر، وهو أن غازي مُلَّا رأى النبي ﷺ في المنام ثلاث مرات وهو يدعوه للجهاد ضد الروس.

والروس آنذاك هم الذين ابتدؤوا بالاعتداء، حيث كانت القيصرة كاترين تملكهم، فأرسلت الجيوش إلى تلك المناطق، وتتابع القياصرة من بعدها على إرسال الجيوش.

ولابتداء الضعف في الدولة العثمانية آنذاك استطاع القياصرة أن يثبتوا احتلالهم لبعض المناطق هناك، وإضافة إلى ابتداء الضعف في الدولة العثمانية كان هناك انعدام في تنسيق المواقف بينها وبين الدولة الصفوية في إيران بسبب تشيُّعها، وكان هناك دولة قبرطاي الإسلامية، وهم من الشراكسة ولم ينسقوا أيضًا مع الحركة الجهادية ضد الروس، فأدى كل ذلك إلى احتلال الروس بعض المناطق في القوقاز، وكان سائر العالم الإسلامي يغط في نوم عميق أو مشغول بمشكلاته الداخلية.

تقدمت الدولة الروسية لتحتل القوقاز وكان يدفعها سببان رئيسان: أوّلهما أن القوقاز طريق إلى التركستان، فإذا أخذوا القوقاز سهل عليهم الاستيلاء على التركستان، ومن ثَمّ يتقدمون لأخذ الهند من المغول المسلمين، وهذا هو الدافع الثاني. وفعلاً ما إن أسقطوا دولة شامل إلا ودخلوا طشقند عاصمة أوزبكستان إحدى جمهوريات التركستان، ولم يستغرق منهم هذا سوى سنة واحدة فقط بعد سقوط القوقاز.

لما رأى غازي محمد مُلَّا النبي ﷺ في المنام ثلاث مرات يأمره ببدء الجهاد، تحدث إلى الداغستانيين بهذا فأجابوه، وجاهد الروس ثلاث سنوات من سنة ١٨٢٩م، ثم حوصر في بلدته غيمري هو وشامل ومن معهما، فقتل غازي محمد مُلَّا، وهرب شامل.

ثم استطاع أن يجمع فلول الداغستانيين ويبتدئ الجهاد ضد الروس سنة ١٨٣٤م إلى سنة ١٨٣٩م، وفي تلك السنة دلّ عليه بعض أمراء الداغستان الخونة وحاصره الروس بقوة ضخمة فيها مدافع لم يكن يملك الداغستانيون شيئًا حيالها، حيث كان الروس يدكون البيوت بها دكًا، لكن شاملاً استطاع الهرب أيضًا!.

وبعد تفكير ومراجعة لأحواله في ظل خيانة أمراء الداغستان، قرر التوجه إلى الشيشان، وهو معقل حصين جبلي كان أهله أقوى إيمانًا من الداغستانيين وأوفى ذمةً، وطبيعة الشعب الشيشاني الصعبة لا تسمح لهم بأن يرضخ بعضهم لبعض، فكانوا بحاجة لرجل غريب يُسَلِّمُون له قيادهم، فكان هذا هو الإمام شامل الذي استطاع أن يصل إلى القسم الجبلي من الشيشان، وجمع حوله فلول أتباعه من الداغستانيين الذين انهزموا من الروس، وبايعه أمراء الشيشان وقبائلهم، وأعلنوه إمامًا عليهم له حق السمع والطاعة والجهاد معه في سبيل الله تعالى.

لما سمع القيصر بهروب شامل وما صنعه في الشيشان، استشاط غضبًا وطلب من قائده حسم المعركة مع شامل، فأرسل الجيوش إلى الشيشان وعلى رأسها أعظم القادة وأكثرهم خبرة في الحروب مع الداغستانيين ومع نابليون، وقاومهم شامل ومن معه حتى اضطر القيصر لإرسال حملة عُرفت بحملة دارجو، وهي البلدة التي كان يتحصن فيها شامل وأمراؤه، وكان حولها غابات كثيفة جدًا، وكان قائد الحملة يسمى جراد، لكنه لم يتمكن من الوصول إلى دارجو، حيث كمن له جيش شامل على أشجار البلوط الضخمة، فكان فوق كل شجرة ٤٠ – ٥٠ من العساكر، وكانوا يسكبون الزيت المغلي على الروس، ويرمونهم بالحراب والبنادق، فحصدوا كثيرًا منهم، وفشلت الحملة وعادت أدراجها بعد خسائر ثقيلة!. ثم جرت عدة مناوشات متفرقة بين شامل وجراد.

وبعد ثلاث سنوات في سنة ١٨٤٥م أرسل القيصر حملة ضخمة قوامها ثلاثون ألف رجل بقيادة ضابط روسي فذّ اسمه روندسوف، فمكر به شامل حيث جعله يتقدم في الأدغال إلى أن وصل إلى البلدة التي كان يتحصن بها شامل، وترك فيها مجموعات قليلة لمقاومة روندسوف الذي تغلب عليها، وسوّى بيوت البلد بالأرض بمدفعيته

الضخمة، وفي طريق عودته وكان فرحًا مسرورًا بما صنع كان الشيشانيون ينتظرون جيشه في الليل، فانقضوا عليه كالأسود، وقتلوا منهم خمسة وعشرين ألفًا، فلم ينج إلا خمسة آلاف نصفهم جرحى، وقتل قواد روس كبار في المعركة!.

شامل ومن معه كانوا من الصوفية النقشبندية الذين اشتهروا بالجهاد، وهي من أصفى الفرق الصوفية ومن أقلها بدعًا، وكان شامل ومن معه يسمون أنفسهم بالحركة المريدية، وكانت أصول الحركة المريدية تقوم على الشدة والقوة والفروسية وعلى الأذكار والأوراد، وضع شامل لجيشه نشيدًا جهاديًا جميلاً ينشدونه في معاركهم، وقد وصفتهم الكاتبة الأمريكية ليزا في كتابها (سيوف الجنة)، وقالت فيه: إن الشيشانيين كانوا يتقدمون للمعارك مع الروس وهم يرتلون القرآن الكريم، وينشدون أنشودة الموت التي تبعث فيهم الحماس والقوة.

بعد حملة دارجو الثانية عمد الروس إلى خطة ماكرة حيث لاينوا أمراء الشيشان ورعاتهم، فكانوا إذا أمسكوا بهم يطلقونهم ويكافئونهم بالأموال، وكانوا في المقابل يقسون على المجاهدين جدًا، وبهذا تأثر كثيرٌ من عامة الشيشانيين والداغستانيين، وكان هذا من أوائل بوادر الإخفاق الذي حدث لشامل بعد ذلك.

قسّم شامل حركته المريدية تقسيمًا بارعًا، فكان له مائة نائب وألف مرشد ينتشرون في القوقاز الشمالي.

استمر المد والجزر بين شامل والروس سنوات طويلة، وقتل منهم جنودًا وقادةً كثيرين، وهذا يعد عملاً إعجازيًا بالنسبة لقوة الشيشان الصغيرة أمام جحافل الروس، لكنه الإيمان الذي يصنع العجائب!.

ومن المعارك التي تستحق الذكر أن الروس أرسلوا ولي عهد القيصر في جيش فيه كبار القادة وثلاثون ألف جندي، كل هؤلاء توجهوا إلى بلدة صغيرة، فغطى الشيشان أبواب بيوتهم ونوافذهم بالطين، فصارت البيوت كتلة واحدة، وغيروا سقوف بيوتهم إلى سقوف خفيفة رقيقة وغطوها بالتراب لتبدو كأنها هي السقوف الأصلية، فكان الروس يقفزون فوق السقوف فيقعون في البيوت ليجدوا الشيشانيين المريدين أو المجاهدين في انتظارهم، فيعملون فيهم ذبحًا وقتلاً، فرجع الجيش خائبًا خاسرًا بسبب هذه الحيلة الذكية!.

وبعد عديد من المواقع والمشاهد العظيمة التي قادها الإمام الأسطورة شامل بكل ذكاء وحنكة وشجاعة واستبسال، وبعد جهاد طويل ضد الروس أتعبهم وأنهكهم وأعجزهم فيه شامل، رصدت روسيا ٤٥،٠٠٠ روبل للإيقاع بشامل، فكتب شامل خطابًا إلى الجنرال الروسي على خط المواجهة، يقول فيه: كم كانت سعادتي حين علمت أن رأسي تساوي هذا الثمن الضخم، ولكنك لن تكون سعيدًا حينما أخبرك أن رأسك بل رأس القيصر ذاته لا تساوي لدي كوبيكًا واحدًا!.

واستمرت الحملات والغارات، لكن شامل لم يكن يستطيع أن يصمد أمام هذه الحملات المتتابعة أكثر مما صمد، فقد بقي في الجهاد قرابة ثلاثين عامًا، لذا كانت نهاية قصة الجهاد العظيمة هذه أن استسلم للروس بعد أن حوصر في خمسمائة من أتباعه فقط من قبل جيشٍ يُقدّر بأربعين ألف جندي؛ لأنه رأى أن حقن دماء من بقي من أتباعه أولى له بعد أن خانه عدد من أمراء الداغستان وخانته دولة الشراكسة القبرطاي، وسلم نفسه للروس سنة ١٨٥٩م بعد ممانعة كبيرة من بعض أتباعه.

وقيل إنه لم يستسلم بل أُسِرَ، وذلك حين وقعت هذه العقلية العسكرية المُسِنَّة في الخطأ القاتل؛ فركن شامل إلى توقع الهجوم الروسي من مصدر محدد في وقت تمسك الروس فيه بسرية المعلومات، وحركوا جزءًا من جيشهم أوهم شامل أنهم ما زالوا في منتصف الطريق، بينما انقضُّوا عليه من اتجاه آخر بحركة خاطفة، وخدعوا الرجل الذي كان بارعًا في هذا النوع من الهجوم. وحدث ما كان متوقعًا، وأسر الإمام شامل!.

فأخذوه إلى روسيا، إذ تم نقله في رحلة طويلة إلى موسكو في موكب بدا وكأنه استعراض عسكري بالبطل الذي سقط أخيرًا، وطالب المحاربون القدامى على طول الطريق من ستافروبول إلى موسكو بأن يتحدثوا إلى ذلك العدو المهيب. وظل شامل في موسكو إلى عام ١٨٦٩م، فبقي فيها مكرمًا تسع سنوات من قبل القيصر والقادة.

ثم طلب من القيصر أن يسمح له بالحج، فوافق بعد تردُّد، فرافقته حملة روسية إلى أن خرج من حدودهم، فحجَّ ثم نزل مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستقر فيها مجاورًا ثلاث سنوات، ثم انتقل إلى جوار ربه سنة ١٨٧١م بعد جهاد دام قرابة ثلاثين سنة، ووقف صخرة شمّاء أمام أطماع القياصرة ونواياهم التوسعية في المنطقة القوقازية والتركستانية.

وكان من أهم أسباب إخفاق الحركة الجهادية المريدية الشاملية خيانات عدد من أمراء الداغستان، وقسوة شامل على أتباعه في بعض الأحيان وعلى سائر الشيشانيين، فانفض عنه كثير منهم، وهناك عامل مهم هو عدم تنسيق الدولة العثمانية معه لضعفها آنذاك.

نعم توفي الإمام شامل، ولم يتمكن من تحقيق كل ما أراد، لكنه مات بعد أن حفر اسمه بحروف من نور في صفحات التاريخ المشرقة، وخلَّد أسطورةً عظيمة ترعب

الروس، ويتغنى بها المسلمون، ويحكونها ويصورونها لأبنائهم وأحفادهم إلى يومنا هذا!.

وما زالت كذلك ذكرى الإمام شامل تعيش في وجدان وذاكرة الداغستانيين، فلا يخلو مكان من صوره، ويسمون كثيرًا من أبنائهم باسمه تيمنًا به حتى اليوم. فهم يعتبرونه بطلًا قوميًا خاض محاولةً بدت مستحيلة لوقف الزحف الروسي على أراضي مسلمي القوقاز.

كما بقي الإمام شامل حياً في التراث الشعبي القوقازي، وفى الأغاني والأهازيج والقصص البطولية إلى اليوم. ويتخذونه رمزًا لمعاني الحرية، فقد زرع في الأجيال المتعاقبة بذرة تطلب الحرية.

ومن الجدير بالذكر كذلك، أن الملكة (فيكتوريا) كانت قد أرسلت إلى الإمام شامل علمًا طرز عليه ثلاث نجمات تمثل: الشركس – داغستان – جورجيا!.

فلله درك يا صقر القوقاز، ويا أسد القفقاس، يا أيها الإمام العظيم، الإمام شامل[1].

---

١- موقع التاريخ، الموسوعة الحرة، وعدة مصادر أجنبية بتصرف.



obeikandl.com

obeikandl.com

# عبدالله بن عتيك

إنه البطل الأسطوريّ، الشجاع الأبيّ، والصحابيُّ الفدائيّ، قاتل أبي رافع اليهوديّ، عبدالله بن عتيك الأنصاريّ...

كان هذا الأسطورة هو بطل المهمة الفدائية الخاصة، مهمة قتل أبي رافع اليهودي الذي كان يؤذي النبي ﷺ، والآن أترككم مع قصة هذه المهمة المثيرة...

عَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَبِي رَافِعٍ اليَهُودِيِّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَتِيكٍ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُتْبَةَ، فِي نَاسٍ مَعَهُمْ، وَكَانَ أَبُو رَافِعٍ يُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَيُعِينُ عَلَيْهِ، وَكَانَ فِي حِصْنٍ لَهُ بِأَرْضِ الحِجَازِ، فَانْطَلَقُوا حَتَّى دَنَوْا مِنَ الحِصْنِ، فَقَالَ لَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَتِيكٍ: امْكُثُوا أَنْتُمْ حَتَّى أَنْطَلِقَ أَنَا فَأَنْظُرَ، قَالَ: فَتَلَطَّفْتُ أَنْ أَدْخُلَ الحِصْنَ - ينتظر فرصة مناسبة يدخل فيها إلى الحصن -، فَفَقَدُوا حِمَارًا لَهُمْ - يعني أهل الحصن -، قَالَ: فَخَرَجُوا بِقَبَسٍ - بضوء - يَطْلُبُونَهُ، قَالَ: فَخَشِيتُ أَنْ أُعْرَفَ، قَالَ: فَغَطَّيْتُ رَأْسِي وَجَلَسْتُ كَأَنِّي أَقْضِي حَاجَةً، ثُمَّ نَادَى صَاحِبُ البَابِ، مَنْ أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ فَلْيَدْخُلْ قَبْلَ أَنْ أُغْلِقَهُ، فَدَخَلْتُ ثُمَّ اخْتَبَأْتُ فِي مَرْبِطِ حِمَارٍ عِنْدَ بَابِ الحِصْنِ، فَتَعَشَّوْا عِنْدَ أَبِي رَافِعٍ، وَتَحَدَّثُوا حَتَّى ذَهَبَتْ سَاعَةٌ مِنَ اللَّيْلِ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى بُيُوتِهِمْ، فَلَمَّا هَدَأَتِ الأَصْوَاتُ، وَلاَ أَسْمَعُ حَرَكَةً خَرَجْتُ، قَالَ: وَرَأَيْتُ صَاحِبَ البَابِ، حَيْثُ وَضَعَ مِفْتَاحَ الحِصْنِ فِي كَوَّةٍ، فَأَخَذْتُهُ فَفَتَحْتُ بِهِ بَابَ الحِصْنِ، قَالَ: قُلْتُ: إِنْ نَذِرَ بِي القَوْمُ انْطَلَقْتُ عَلَى مَهَلٍ، ثُمَّ عَمَدْتُ إِلَى أَبْوَابِ بُيُوتِهِمْ، فَغَلَّقْتُهَا عَلَيْهِمْ مِنْ ظَاهِرٍ - من الخارج -، ثُمَّ صَعِدْتُ إِلَى أَبِي رَافِعٍ فِي سُلَّمٍ، فَإِذَا البَيْتُ مُظْلِمٌ، قَدْ طَفِئَ سِرَاجُهُ، فَلَمْ أَدْرِ أَيْنَ

الرَّجُلُ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا رَافِعٍ! قَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: فَعَمَدْتُ نَحْوَ الصَّوْتِ فَأَضْرِبُهُ وَصَاحَ، فَلَمْ تُغْنِ شَيْئًا - لم تقتله الضربة -، قَالَ: ثُمَّ جِئْتُ كَأَنِّي أُغِيثُهُ، فَقُلْتُ: مَا لَكَ يَا أَبَا رَافِعٍ؟ وَغَيَّرْتُ صَوْتِي، فَقَالَ: أَلاَ أُعْجِبُكَ لِأُمِّكَ الوَيْلُ، دَخَلَ عَلَيَّ رَجُلٌ فَضَرَبَنِي بِالسَّيْفِ، قَالَ: فَعَمَدْتُ لَهُ أَيْضًا فَأَضْرِبُهُ أُخْرَى، فَلَمْ تُغْنِ شَيْئًا، فَصَاحَ وَقَامَ أَهْلُهُ، قَالَ: ثُمَّ جِئْتُ وَغَيَّرْتُ صَوْتِي كَهَيْئَةِ المُغِيثِ فَإِذَا هُوَ مُسْتَلْقٍ عَلَى ظَهْرِهِ، فَأَضَعُ السَّيْفَ فِي بَطْنِهِ ثُمَّ أَنْكَفِئُ عَلَيْهِ حَتَّى سَمِعْتُ صَوْتَ العَظْمِ، ثُمَّ خَرَجْتُ دَهِشًا فَجَعَلْتُ أَفْتَحُ الأَبْوَابَ بَابًا بَابًا، حَتَّى أَتَيْتُ السُّلَّمَ، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى دَرَجَةٍ لَهُ، فَوَضَعْتُ رِجْلِي، وَأَنَا أُرَى أَنِّي قَدِ انْتَهَيْتُ إِلَى الأَرْضِ، فَأَسْقُطُ مِنْهُ، فَوَقَعْتُ فِي لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ، فَانْخَلَعَتْ رِجْلِي فَعَصَبْتُهَا، ثُمَّ أَتَيْتُ أَصْحَابِي أَحْجُلُ، فَقُلْتُ: انْطَلِقُوا فَبَشِّرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَإِنِّي لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَسْمَعَ النَّاعِيَةَ - حتى يتأكد من قتله -، فَلَمَّا صَاحَ الدِّيكُ قَامَ النَّاعِي عَلَى السُّورِ، فَقَالَ: أَنْعَى أَبَا رَافِعٍ تَاجِرَ أَهْلِ الحِجَازِ، فَانْطَلَقْتُ إِلَى أَصْحَابِي، فَقُلْتُ: النَّجَاءَ، فَقَدْ قَتَلَ اللَّهُ أَبَا رَافِعٍ، فَانْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَحَدَّثْتُهُ، فَقَالَ: "ابْسُطْ رِجْلَكَ"، فَبَسَطْتُ رِجْلِي فَمَسَحَهَا، فَكَأَنَّهَا لَمْ أَشْتَكِهَا قَطُّ[1].

ولو أقسمتُ لكنتُ غيرَ حانثٍ ولا كذاب، أن لو كانت هذه المغامرة فيلمًا من أفلام الأغراب، لنال الاستحسانَ ولقيَ الإعجاب، ولحصد الجوائز وحاز الألقاب...

لكنها بطولةٌ من بطولات الأصحاب، عليهم وعلى النبي صلوات رب الأرباب، ولهم من جميل الثناء ما حَسُنَ وطاب، ومن جزيل الأجر وعظيم الثواب.

---

١- رواه البخاري (٢٨٥٩)، (٣٨١٣)، (٣٨١٤).

# عثمان بن عفان
## (شهيد الدار)

هذا أحد الراشدين، بل ثالثهم...

ثالثهم عثمانُ ذو النورين ... ذو الحلم والحيا بغير مَيْنِ

بحرُ العلومِ جامعُ القرآنِ ... منه استحت ملائكُ الرحمن

إنه الأسطورة عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه...

الذي قال عن نفسه: لَقَدِ اخْتَبَأْتُ عِنْدَ رَبِّي عَشْرًا: إِنِّي لَرَابِعُ أَرْبَعَةٍ فِي الْإِسْلَامِ، وَجَهَّزْتُ جَيْشَ الْعُسْرَةِ، وَلَقَدِ ائْتَمَنَّنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى ابْنَتِهِ، ثُمَّ تُوُفِّيَتْ فَأَنْكَحَنِي الْأُخْرَى، وَاللَّهِ مَا زَنَيْتُ، وَلَا سَرَقْتُ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ وَلَا تَغَنَّيْتُ، وَلَا تَمَنَّيْتُ، وَلَا مَسَسْتُ بِيَمِينِي فَرْجِي مُذْ بَايَعْتُ بِهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَلَقَدْ جَمَعْتُ الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا مَرَّتْ بِي جُمُعَةٌ إِلَّا وَأَنَا أُعْتِقُ رَقَبَةً مُذْ أَسْلَمْتُ، إِلَّا أَنْ لَا أَجِدَ فِي تِلْكَ الْجُمُعَةِ، ثُمَّ أُعْتِقُ لِتِلْكَ الْجُمُعَةِ بَعْدُ[1].

إنه الرجل الذي كانت تستحيي منه الملائكة.

إنه الشخص الوحيد على وجه الأرض الذي تزوج ببنتي نبي.

إنه أول من هاجر إلى الله بأهله بعد نبي الله لوطٍ عليه السلام.

إنه رسول رسول الله ﷺ إلى قريش في صلح الحديبية.

---

١- رواه الطبراني في الكبير (١٢٤).

إنه عثمان الذي جهَّزَ جيش العسرة، وحفر بئر رومة، ووسع المسجد النبوي، وعال المسلمين وأنقذهم وأنفق عليهم في عهد أبي بكر.

إنه عثمان الذي كان يقرأ القرآن كله في ركعة واحدة.

لمّا أسلم عثمان بن عفّان أخذه عمّه الحكم بن أبي العاص بن أميّة فأوثقه رباطا وقال: أترغب عن ملّة آبائك إلى دين محدث؟! والله لا أحلّك أبدا حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين. فقال عثمان: والله لا أدعه أبدًا ولا أفارقه!.

فلمّا رأى الحكم صلابته في دينه تركه[1].

ولما اشتد الإيذاء بالمسلمين على أرض مكة وأذن لهم الرسول ﷺ بالهجرة إلى الحبشة كان عثمان رضي الله عنه بكل شجاعةٍ أول من هاجر إلى الحبشة بأهله من هذه الأمة!.

وفي صلح الحديبية أرسله النبي ﷺ مبعوثًا إلى كفار قريش، فذهب بكل ثقةٍ وشجاعةٍ قاصدًا مكةَ غيرَ مبالٍ بخطر الموت الذي قد يتعرض له على أيدي السفهاء من قريش!.

هاجر الهجرتين بأهله فصبر، ومَرَّضَ زوجَه رقية حتى ماتت، ومات عبد الله ابنه منها فصبر، ثم ماتت أم كلثوم، وانقطع بموتها صهره لرسول الله ﷺ فصبر!.

وذي هي الدنيا وذا حالها، ما تبتغي ينأى ويدنو الذي عز، وإن العيش كرٌّ وفرّ.

حاصره الهمج الرعاع السفلة الأراذل الغوغاء، وتظاهروا عليه وتآمروا. منعوه الشراب من بئر رومة، وهو الذي اشتراها للمسلمين بخيرٍ منها في الجنة، وله دلوه فيها مع دِلَائِهم. منعوه من الصلاة في مسجد نبيه، وهو الذي اشترى بقعة منه بخيرٍ منها

---

١- تاريخ المدينة (٣/٩٥٤).

في الجنة وزادها فيه. وهو صابر مصابر يأبى أن يدفع عنهُ أصحابُه، ويقول لا أكون أول من خلف محمدًا ﷺ في أمته بالسيف!.

يفتدي الأمة بنفسه وهو يستحضر بشارة النبي ﷺ له بالجنة على بلوى تصيبه!.

قد صَبَّرَ النفسَ على ما بها ... وانتظرَ الموعودَ من ربه

ويرى في المنام رسولَ الله وأبا بكر وعمر يقولون: اصبر فإنك تفطر عندنا القابلة!. فأصبح صائمًا ونشرَ المصحفَ بين يديه، ودخل عليه السبئيون المجرمون - وقد أجمعوا أمرهم ومكروا مكرهم وعند الله مكرهم -. فقال ﷺ: بيني وبينكم كتاب الله. فأبوا وأعرضوا.

وأهووا بالسيف عليه وهو ابن الثمانين، فاتقاه باليمين، فقُطِعت ووالله إنها لأول كفٍّ خطَّتْ كتاب رب العالمين، ثم تناولوه بالسيف والمصحف بين يديه، ليجري الدم على قول الله: "فسيكفيكهم الله"[1]، ويلقى الله!.

ولقي الله وإنه ليحيي الليل بركعة يجمع فيها القرآن كله!.

وكان البحرُ فوقَ الأرضِ يمشي .. فعاد البحرُ من تحتِ الترابِ[2].

---

١- (البقرة : ١٣٧).

٢- محاضرة الجادي المدوف لعلي القرني بتصرف.

obeikandl.com

# أسماء بنت يزيد

إنها بليغة البلغاء، وخطيبة النساء، من لا تهاب الأعداء، الأسطورة أسماء...

هي الصحابية الجليلة، أسماء بنت يزيد بن السكن، ابنة عمة معاذ بن جبل..

أسلمت في العام الأول للهجرة، اشتهرت بمتابعتها أمور دينها والتعرف على دقائقِ أموره، حيث كانت تسأل النبي ﷺ عن أحكام دينها، وكثيرًا ما كانت أخواتها النساء يستعِنَّ بها للاستفسار من النبي ﷺ عن دقائق أمورهن الخاصة، فتستجيب لذلك وتذهب إليه فتسأله، وكذلك عرفت بأنها خطيبة النساء لأنها كانت تدافع عنهن وتسأل عن حقوقهن.

ومن ذلك:

عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ الْأَنْصَارِيَّةِ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، أَنَّهَا أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ بَيْنَ أَصْحَابِهِ، فَقَالَتْ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، إِنِّي وَافِدَةُ النِّسَاءِ إِلَيْكَ، وَاعْلَمْ - نَفْسِي لَكَ الْفِدَاءُ - أَمَا إِنَّهُ مَا مِن امْرَأَةٍ كَائِنَةٍ فِي شَرْقٍ وَلَا غَرْبٍ سَمِعَتْ بِمَخْرَجِي هَذَا أَوْ لَمْ تَسْمَعْ إِلَّا وَهِيَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِي، إِنَّ اللهَ بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِلَى الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فَآمَنَّا بِكَ وَبِإِلَهِكَ الَّذِي أَرْسَلَكَ، وَإِنَّا مَعْشَرَ النِّسَاءِ مَحْصُورَاتٌ مَقْصُورَاتٌ، قَوَاعِدُ بُيُوتِكُمْ، وَمَقْضَى شَهَوَاتِكُمْ، وَحَامِلَاتُ أَوْلَادِكُمْ، وَإِنَّكُمْ مَعَاشِرَ الرِّجَالِ فُضِّلْتُمْ عَلَيْنَا بِالْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَاتِ، وَعِيَادَةِ الْمَرْضَى، وَشُهُودِ الْجَنَائِزِ، وَالْحَجِّ بَعْدَ الْحَجِّ، وَأَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ إِذَا أُخْرِجَ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا وَمُرَابِطًا حَفِظْنَا لَكُمْ أَمْوَالَكُمْ، وَغَزَلْنَا لَكُمْ أَثْوَابًا، وَرَبَّيْنَا لَكُمْ أَوْلَادَكُمْ، فَمَا نُشَارِكُكُمْ فِي الْأَجْرِ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: فَالْتَفَتَ النَّبِيُّ

ﷺ إِلَى أَصْحَابِهِ بِوَجْهِهِ كُلِّهِ، ثُمَّ قَالَ: "هَلْ سَمِعْتُمْ مَقَالَةَ امْرَأَةٍ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْ مَسْأَلَتِهَا فِي أَمْرِ دِينِهَا مِنْ هَذِهِ؟" فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا ظَنَنَّا أَنَّ امْرَأَةً تَهْتَدِي إِلَى مِثْلِ هَذَا، فَالْتَفَتَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ لَهَا: "انْصَرِفِي أَيَّتُهَا الْمَرْأَةُ، وَأَعْلِمِي مَنْ خَلْفَكِ مِنَ النِّسَاءِ أَنَّ حُسْنَ تَبَعُّلٍ إِحْدَاكُنَّ لِزَوْجِهَا، وَطَلَبَهَا مَرْضَاتِهِ، وَاتِّبَاعَهَا مُوَافَقَتَهُ تَعْدِلُ ذَلِكَ كُلَّهُ"، فَأَدْبَرَتِ الْمَرْأَةُ وَهِيَ تُهَلِّلُ وَتُكَبِّرُ اسْتِبْشَارًا[1].

وإلى جانب بلاغَةِ أسماء، فقد كانت شُجاعةً مِقْدَامةً لا تهاب الأعداء، بل كانت أسطورةً في القتال من أساطير النساء...

فقد حضرت أسماء مع النبي ﷺ غزوة خيبر، وشاركت فيها!.

أما في السنة الثالثة عشرة للهجرة...

فقد شاركت أسماء في حرب المسلمين على الروم في الشام، بالتحديد في (معركة اليرموك)، غير أنها لم تشارك مشاركةً عادية فحسب، فقد كانت أسماءُ يومئذٍ زعيمةً للنساء اللاتي شاركنَّ في تلك المعركة، وليس ذلك أيضًا فقط!.

بل بكل قوةٍ وشجاعة وإقدام واستبسال، فعلت أسماء ما لا يقدر عليه كثيرٌ من الرجال، فقد حملت أسماء عمودَ فُسْطَاطِهَا - خيمتها - على عاتِقِها، ثم تقدمت به إلى جنود الروم، كأنها الأسدُ أثناء الهجوم، فقتلت بمفردها تسعةً من علوج الروم بعمود فسطاطها في هذه الموقعة![2].

وعاشَتْ أسماءُ بعد ذلك دهرًا - زمنًا طويلًا -، فكانت من المُعَمِّرين، إذ عاشت

---

١- رواه البيهقي في الشعب (٨٧٤٣) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٦/٢٩).

٢- تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٢/٦٩).

إلى دولةِ يزيدَ بنِ معاوية، فرضي الله عنها وعن الصحابة أجمعين، وعن التابعين وتابِعِيهم بإحسانٍ إلى يوم الدين[1].

obeikandl.com

١- سير أعلام النبلاء (٢/٢٩٧).

obeikandl.com

# ألب أرسلان
## (محطم الإمبراطورية البيزنطية)

إنه الأسد الشجاع والقائد السلطان، الأسطورة محمد الملقب بـ(ألب أرسلان)...

ناصر الدين، وقائد المسلمين، وهازم الصليبيين..

لقد أغضبت فتوحات ألب أرسلان (رومانوس ديوجينس) إمبراطور الروم، فصمَّم على القيام بحركة مضادَّة للدفاع عن إمبراطوريته، ودخلت قواته في مناوشات ومعارك عديدة مع قوات السلاجقة المسلمين، وكان أهمها معركة (ملاذكرد) في عام ٤٦٣ هـ الموافق أغسطس ١٠٧١م؛ والتي كان فيها تعداد جند السلطان خمسة عشر ألفًا وجند الروم مائتي ألف، فلما تقارب المعسكران أرسل السلطان ألب أرسلان إلى القائد رومانوس يطلب منه الصلح والمهادنة، فرد الصليبي ردًّا قبيحًا حين كان جوابه (لا هدنة إلا بالري)، يعني أنه لن يقبل هدنة إلا بعد أن يدمر عاصمة السلاجقة، ويحتل كل ديار الإسلام؛ فانزعج السلطان المسلم، وركبه همٌّ شديد لعدم تكافؤ العدد.

وهنا قال الإمام الفقيه أبو نصر محمد بن عبد الملك الحنفي: إنك تقاتل عن دينٍ وعد الله بنصره، وأرجو أن يكون الله قد كتب لك بجيشك القليل شرف النصر، فسِرْ إلى العدو الكافر يوم الجمعة بعد الزوال والأئمة على منابرهم يدعون لجيشك بالنصر، والله غالب على أمره!.

وتم ذلك عند ظهيرة يوم جمعة من صيف أربعمائة وثلاث وستين للهجرة (٤٦٣هـ) كما ذكرتُ آنفًا، وبينما كان رومانوس ينزل بجيشه واديًا، انقض عليهم القائد المؤمن

كأنه قارعة أو صاعقة بعد أن صلى وبكى؛ فبكى الناس لبكائه، ودعا الله فدعا الناس بدعائه، ثم ركب وقال للناس: ليس عليكم الآن أمير، وكلكم أمير نفسه، من شاء أن ينصرف فليعد إلى أهله. وألقى القوس والنشاب وحمل السيف والدبوس معلنًا أن الأمر التحام وليس رماية، فالتفّ الروم حول المسلمين، وكان المسلمون في الوسط.

فكانت فرصة وسط الغبار أن يقتل المسلمون عدوهم كيف يشاءون، ودارت الدائرة على العدو الكافر، فتناثر من قتلاهم ما لا يحصى، وجيء بالأسرى وإذا مقاتل صغير الجثة يسوق أمامه قائد الأعداء (رومانوس).

وتذكر ألب أرسلان أنه مزح مع ذلك العسكري الصغير يومًا، فقال له: وما يدريك أن تُحضر إلينا ملك الروم؟ وحقق الله مزحته، ووقف رومانوس صاغرًا بين يدي ألب أرسلان، فلمَّا أُوقف بين يدي السلطان ألب أرسلان ضربه بيده ثلاثة مقارع، وقال: لو كنتُ أنا الأسير بين يديك ما كنتَ تفعل؟ قال: كلَّ قبيح. قال: فما ظنُّك بي؟ فقال: إمَّا أن تقتل وتشهرني في بلادك، وإمَّا أن تعفو وتأخذ الفداء وتُعيدني. قال: ما عزمتُ على غير العفو والفداء!.

فافْتُدِي منه بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار، فقام بين يدي السلطان وسقاه شربة من ماء وقَبَّل الأرض بين يديه، وقَبَّل الأرض إلى جهة الخليفة إجلالاً وإكرامًا، وأطلق له السلطان عشرة ألف دينار ليتجهَّز بها، وأطلق معه جماعة من البطارقة وشيَّعه فرسخًا، وأرسل معه جيشًا يحفظونه إلى بلاده، ومعهم راية مكتوب عليها: لا إله إلا الله محمد رسول الله![1].

---

١- قادة لا تنسى لتامر بدر، أبطال ومواقف لأحمد فرح عقيلان.

# أنس بن النضر

«مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ»

الأحزاب (٢٣)

إنه أنس بن النضر الخزرجي الأنصاري، عمُّ أنس بن مالك - خادم رسول الله ﷺ - رجل من خيرة أصحاب النبي ﷺ ...

إنه أنس بن النضر الذي كان لو أقسم على الله لأبَرَّه..

عَنْ أَنَسِ بنِ مالكٍ، أَنَّ الرُّبَيِّعَ عَمَّتَهُ كَسَرَتْ ثَنِيَّةَ - سِنّ - جَارِيَةٍ، فَطَلَبُوا إِلَيْهَا العَفْوَ فَأَبَوْا - رفض أهل الجارية العفوَ عن الرُّبَيِّع عمة أنس بن مالك وأخت أنس بن النضر -، فَعَرَضُوا الأَرْشَ – العِوَضْ - فَأَبَوْا، فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَبَوْا إِلَّا القِصَاصَ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالقِصَاصِ، فَقَالَ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتُكْسَرُ ثَنِيَّةُ الرُّبَيِّعِ؟! لاَ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لاَ تُكْسَرُ ثَنِيَّتُهَا!،

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يَا أَنَسُ، كِتَابُ اللَّهِ القِصَاصُ" - يعني حكم الله القصاص كما في كتاب الله أن السن بالسن -.

فَرَضِيَ القَوْمُ وَعَفَوْا، وفي رواية: فَرَضِيَ القَوْمُ وَقَبِلُوا الأَرْشَ،

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شاهِدًا لِأَنَسٍ: "إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ"(١).

---

١- رواه البخاري (٢٥٥٦).

فقد أقسم أنس ألا تُكسرَ ثنية أخته الربيع، وأبى الله إلا أن يُبرَّ قسمه، وهذه كرامة ما بعدها كرامة.

لكنَّ الأعظم من ذلك، أن يُنْزِلَ اللهُ عز وجل فيه وفي أمثاله قرآنًا يُتلى إلى قيام الساعة، شاهدًا بصدقه وإخلاصه ووفائه، في نيته وعزمه، وكلمته ووعده، وإقدامه وشجاعته وتفانيه موفيًّا بعهده..

عَنْ أَنَسٍ ﷺ، قَالَ: غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ، لَئِنِ اللَّهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ لَيَرَيَنَّ اللَّهُ مَا أَصْنَعُ.

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ، وَانْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ، انْتَهَى أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ إِلَى عُمَرَ، وَطَلْحَةَ، وَرِجَالٍ قَدْ أَلْقَوْا بِأَيْدِيهِمْ فَقَالَ: مَا يُجْلِسُكُمْ؟ فَقَالُوا: قُتِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: فَمَا تَصْنَعُونَ بِالْحَيَاةِ بَعْدَهُ؟ فَقُومُوا فَمُوتُوا عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

ثُم قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ - يَعْنِي أَصْحَابَهُ - وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ، - يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ - ثُمَّ تَقَدَّمَ، فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: يَا سَعْدُ بْنَ مُعَاذٍ، الْجَنَّةَ وَرَبِّ النَّضْرِ إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ، ثم اسْتَقْبَلَ الْقَوْمَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ.

قَالَ سَعْدٌ: فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا صَنَعَ، قَالَ أَنَسٌ: فَوَجَدْنَا بِهِ بِضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ، أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَقَدْ مَثَّلَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلَّا أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ - بأصبعه -!.

قَالَ أَنَسٌ: كُنَّا نُرَى أَوْ نَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ: "مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ"[1] إِلَى آخِرِ الآيَةِ[2].

اللهُ أكبر... شهادةٌ بالإيمانِ اعتقادًا وعَمَلًا، وشهادةٌ بالرُّجُولة صفةً وجِنْسًا، وشهادةٌ بالصِّدْقِ قولًا وفعلًا!.

obeikandl.com

١- (الأحزاب: ٢٣).

٢- رواه البخاري (٢٥٦١).

obeikandl.com

# أورنكزيب عالمكير

هو الأسد الجسور، والليث الهصور، والإمام الهُمَام، و أحد عمالقة الإسلام، الذي أذل الكفر وزلزل الطغيان، وقوَّض عروش أهل الإلحاد في ربوع مملكته والأوطان، وحارب الفساد وأهله في كل مكان، وأتى على بنيان الظلم والظَّلَمَةِ من القواعد حتى خرَّ عليهم السقف من فوقهم!، وأذاق المغرورين والمعاندين من كؤوس المرار ما انشقَّتْ له حلوقهم!، وأرغم الجبابرة على الانقياد لله والرسول، ودقَّ حصون الزنادقة على رؤوسهم بالعرض والطول!، وجعل المهانة والصغار على كل من أبى قبول الحق بعد أن أُقيمت عليه من الله الحُجَّة، وسلك بالمسلمين في أيامه سبيل الاستقامة وطريق المَحَجَّة، فكان كالبدر المشرق في سمائه، والفيض المُغدِقِ بسلسبيل رُوَائه، والناصح الأمين للخاص والعام، والمجدد لهذا الدين أمره في سابق الأزمان وغابر الأيام.

حتى لقَّبه الشيخ الأديب علي طنطاوي بـ(بقية الخلفاء الراشدين)!.

ولم لا؟ وهو العابد الساهر إذا أسبل الليل رداء ظلامه على الأنام ، والراكع الساجد في غسق الدجى والحارسون له نيام! والبطل الكرار إذا طارت قلوب الشجعان في ساحة الوَغَى، والفارس المغوار الذي تُجَمُّ دونه الأُسُودُ إذا علمت أنه حلَّ بساحتهم وأتى!

وما أرى أحدًا في القومِ يُشْبِهُهُ .. وما أُحاشِي من الأقوامِ من أحدِ

هذا الرجل الذي أقام العدل في زمانه حتى عبقت بذكره الأرجاء، وانقادت له الممالك وخضعت حتى صار النصر له رفيقًا وكأنه رياح الله تجري بأمره رُخَاءً حيث يشاء!.

ذاكم هو السلطان العظيم، والمجاهد الزاهد أبو المظفر محيي الدين محمد أورنكزيب عالمكير، سلطان مملكة شبه القارة الهندية وما حواليها في القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر الهجري.

وُلد السلطان أورنكزيب في بلدة (دوحد) في كجرات بالهند في ١٥ من ذي القعدة ١٠٢٨هـ الموافق ٢٤ من أكتوبر ١٦١٩م.

نشأ أُورنكزيب في بيت عزٍّ وترف وشرف؛ فأبوه هو السلطان شاه جيهان أحد أعظم سلاطين دولة المغول المسلمين في الهند، وهو باني مقبرة (تاج محل) الشهيرة؛ التي تعدُّ الآن من عجائب الدنيا السبع.

ظهر من أورنكزيب منذ صغره علامات الجدِّ والإقبال على الدين والبعد عن الترف والملذات وترعرع محبًّا للدين الذي استقاه على مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى، كما أنه جمع بين الفروسية والشجاعة؛ فكان فارسًا شجاعًا لا يُشَقُّ له غبار.

تعلم أورنكزيب فن الإدارة وأتقنه، فكان من ملوك المسلمين القلائل الذين برعوا في إدارة الدولة، وعلى الرغم من ذلك فإنه قاد الجيوش بنفسه في عهد أبيه؛ فقمع الثورات، وطهَّر البلاد، وأظهر في الأرض العدل، وكانت له هيبةٌ وسمتُ الملوك، وظلَّ الأمر كذلك حتى وفاة أمه (ممتاز محل)، التي بوفاتها انشغل السلطان (شاه جيهان) ببناء مقبرة يخلِّد فيها ذكراها، وصرف لذلك الأموال، وحمل الناس على العمل الشاقِّ فأُهملت السلطنة، وظهرت بوادر الفتن والثورات، ولم يكن للسلطان (شاه جيهان) يومها من همٍّ إلا النظر إلى ضريح زوجته.

طمع الأخ الأكبر لأورنكزيب في الحكم ووثب على كرسي أبيه فاستولى على كل شيء إلا الاسم؛ فظلَّ يحكم باسم أبيه.

لم يدم الحال طويلاً حتى انتقل الحكم إلى أورنكزيب، فعمل على قمع وإخماد الثورات مرةً أخرى، وظلَّ أبوه في حصن من الحصون له شُرْفَةٌ تُطِلُّ على ضريح زوجته، فكان دائم النظر إليه حتى وافته المنية.

أعلن أورنكزيب نفسه سلطانًا على البلاد وكان وقتها عنده من العمر ٤٠ سنة، ولم يركن أورنكزيب إلى الدَّعَةِ والراحة، بل لبس لُأْمَةَ الحرب من أول يوم، وظل في جهاد دام ٥٢ سنة، حتى خضعت له شبه القارة الهندية، من مرتفعات الهيمالايا إلى المحيط، ومن بنجلادش اليوم إلى حدود إيران!.

شهدت إمبراطورية المغول الإسلامية في الهند في عهد أورنكزيب (١٦٥٨م: ١٧٠٧م) أقصى امتداد لها؛ وذلك يرجع إلى الجهود العسكرية التي بذلها السلطان أورنكزيب؛ حيث لم يبق إقليم من أقاليم الهند إلا خضع تحت سيطرة السلطان، فاستطاع أورنكزيب تحويل شبه القارة الهندية إلى ولاية مغولية إسلامية ربط شرقها بغربها وشمالها بجنوبها تحت قيادة واحدة، ولقد خاض المسلمون في عهده أكثر من ٣٠ معركة؛ قاد هو بنفسه منها ١١ معركة وأسند الباقي إلى قوَّاده!.

أبطل أورنكزيب ٨٠ نوعًا من الضرائب، وفرض الجزية على غير المسلمين بعدما أبطلها أجداده، وأقام المساجد والحمامات والخانقات والمدارس والبيمارستانات، وأصلح الطرق وبنى الحدائق، أصبحت (دهلي) في عهده حاضرة الدنيا، وعين القضاة وجعل له في كل ولاية نائبًا عنه، وأعلن في الناس أنه: مَنْ كان له حق على السلطان فليرفعه إلى النائب الذي يرفعه إليه!.

وأظهر أورنكزيب تمسُّكه بالإسلام والتزامه بشرائعه؛ فأبطل الاحتفال بالأعياد الوثنية؛ مثل عيد النيروز، ومنع عادة تقبيل الأرض بين يديه والانحناء له، ومنع الخطب

الطويلة التي تقال لتحية السلطان، واكتفى بتحية الإسلام، كما منع دخول الخمر إلى بلاده، وصرف أهل الموسيقى والغناء عن بلاطه، ورُوِي في ذلك قصة: أنه كان يومًا خارج قصره فرأى الموسيقيين والقينات - المغنيات - يلبسون السواد ويبكون ويحملون نعشًا، فسأل: ما هذا؟ قالوا: هذا الغناء والمعازف نذهب لدفنها.

فقال رحمه الله: إذن أحسنوا دفنها لئلاَّ تقوم مرة أخرى!.

وأتمَّ السلطان حفظ القرآن الكريم وهو يجلس على كرسي الحكم، وعين للقضاة كتابًا يفتون به على المذهب الحنفي، فأمر بتأليف الكتاب تحت نظره وإشرافه، واشتهر الكتاب باسم (الفتاوى الهندية)، أو (الفتاوى العالمكيرية)، يعرفه كل طلبة العلم.

كما كان شاعرًا فصيحًا من كبار الشعراء، مع المعرفة الواسعة بفنون الأدب والشريعة الغرَّاء.

ثم أقدم على بناء مسجد (بادشاهي) في لاهور بباكستان الآن؛ المسجد الذي ظلَّ إلى الآن شاهدًا على عصر عزِّ المسلمين وتمكينهم، وقضى على فتنة البرتغاليين في المحيط، وكان رحمه الله يصوم رمضان كاملاً ولا يفطر إلا على أرغفة من الشعير من كسب يمينه من كتابة المصاحف لا من بيت مال المسلمين!.

لم يستطع أن يحج إلى بيت الله الحرام؛ فاستعاض بذلك أن كتب مصحفين بخط يده، وأرسل واحدًا إلى مكة والآخر إلى المدينة!.

وكان صاحب عبادة عظيمة، ويخضع للمشايخ ويُقَرِّبهم ويستمع إلى مشورتهم ويعظم قدرهم، وأمر قواده أن يستمعوا إلى مشورتهم بتواضع شديد؛ حتى إنه سمع أن نائبه بالبنغال اتخذ مثل العرش يجلس عليه، فنهره وعنفه، وأمره أن يجلس بين الناس كجلوس عامتهم!.

وكان يصوم الاثنين والخميس والجمعة من كل أسبوع لم يتركها قطُّ، وكان يأبى إلا أن يُصَلِّيَ الفرائض كلها في وقتها جماعة مع المسلمين، وكان يُصَلِّي التراويح إمامًا بالمسلمين، ويعتكف العشر الأواخر في المسجد، فكان أعظم ملوك الدنيا في عصره.

وخصَّص موظَّفين يكتبون كلَّ ما يقع من أحوال رعاياه ويرفعونه إليه، وأبطل عادة تقديم الهدايا إليه كما كان يُفعل مِنْ قَبْلُ مع أسلافه، وكان يجلس للناس ثلاث مرَّات يوميًّا دون حاجب يسمع شكاواهم.

ووُفِّقَ إلى أمرين لم يسبقه إليهما أحد من ملوك المسلمين:

الأول: أنَّه لم يكن يُعطى عالمًا عطية أو راتبًا إلا طالبه بعملٍ؛ بتأليف أو بتدريس، لئلاَّ يأخذ المال ويتكاسل، فيكون قد جمع بين السيئتين، أخذ المال بلا حقٍّ وكتمان العلم!.

الثاني: أنَّه أوَّل من عمل على تدوين الأحكام الشرعية في كتاب واحد، يُتَّخذ قانونًا فوضعت له وبأمره وبإشرافه وتحت ناظره كتاب (الفتاوى الهندية - العالمكيرية) على المذهب الحنفي.

دخل في عهده ملايين من البوذيين في الهند في الإسلام، ووقف حائلاً أمام المد الشيعي الصفوي على البلاد، وألَّف كتابًا شرح فيه أربعين حديثًا شريفًا على غرار الأربعين النووية!.

قال عنه المرادي في ترجمته من كتابه (سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر): سلطان الهند في عصرنا، وأمير المؤمنين وإمامهم، وركن المسلمين ونظامهم، المجاهد في سبيل الله، العالم العلامة الصوفي العارف بالله، الملك القائم بنصرة الدين، الذي أباد الكفار في أرضه، وقهرهم وهدم كنائسهم، وأضعف شركهم، وأيَّدَ الإسلام وأعلى

في الهند منارته، وجعل كلمة الله هي العليا، وقام بنصرة الدين وفرض الجزية على كفار الهند، ولم يأخذها منهم ملكٌ قبله لقوتهم وكثرتهم!، وفتح الفتوحات العظيمة، ولم يزل يغزوهم، وكلما قصد بلدًا سلكها إلى أن نقله الله إلى دار كرامته وهو في الجهاد، وصرف أوقاته للقيام بمصالح الدين وخدمة رب العالمين من الصيام والقيام والرياضة؛ التي لا يتيسر بعضها لآحاد الناس فضلاً عنه!، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وكان موزعًا لأوقاته: فوقت للعبادة، ووقت للتدريس، ووقت لمصالح العسكر، ووقت للشُكاة، ووقت لقراءة الكتب والأخبار الواردة عليه كل يوم وليلة من مملكته، لا يخلط شيئًا بشيء!.

والحاصل: إنه كان حسنة من حسنات الزمان، ليس له نظير في نظام سلطنته، وقد أُلِّفَتْ في سلطنته وحُسن سيرته الكتب الطويلة بالفارسية.

ثم قال: واشتغل بالمملكة من سنة ثمانٍ وستين وألف، وأراد الله بأهل الهند خيرًا؛ فإنه رفع المظالم والمكوس وطلع من الأفق الهندي فجرُه، وظهر من البرج التيموري بدرُه، وفلكُ مَجْدِهِ دائر، ونجم سعدِهِ سائر، وأسر غالب ملوك الهند المشهورين، وصارت بلادهم تحت طاعته، وجُبِيَتْ إليه الأموال، وأطاعته البلاد والعباد، ولم يزل في الاجتهاد في الجهاد، ولم يرجع إلى مقرٍّ ملكه وسلطنته بعد أن خرج منه، وكلما فتح بلادًا شرع في فتح أخرى، وعساكره لا يُحْصَوْنَ كثرةً وعظمةً، وقوته لا يمكن التعبير عنها بعبارة تؤدِّيها حقَّها!، وأقام في الهند دولة العلم وبالغ في تعظيم أهله حتى قصده الناس من كل البلاد!.

وقال عنه المحبي في (خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر): أورنكزيب يوصف بـ(الملك العادل الزاهد)، وبلغ من الزهد مبلغًا أناف فيه على ابن أدهم، أي:

إبراهيم بن أدهم الزاهد المشهور!.

فإنه مع سعة سلطانه يأكل في شهر رمضان رغيفًا من خبز الشعير من كسب يمينه!، ويُصَلِّي بالناس القيام إمامًا، وله نعم بارَّة، وخيرات دارَّة جِدًّا، وأمر من حين ولي السلطنة برفع المكوس والمظالم عن المسلمين، ونصب الجزية بعد أن لم تكن على الكفار، وتمَّ له ذلك مع أنه لم يتمَّ لأحد من أسلافه أَخْذُ الجزية منهم؛ لكثرتهم وتغلُّبهم على إقليم الهند، وأقام فيها دولة العلم، وبالغ في تعظيم أهله وعظمت شوكته، وفتح الفتوحات العظيمة، وهو مع كثرة أعدائه وقوَّتهم غير مبالٍ بهم، مشتغل بالعبادات، وليس له في عصره من الملوك نظير في حُسن السيرة والخوف من الله تعالى والقيام بنصرة الدين رحمه الله تعالى!.

توفي السلطان أورنكزيب عالمكير في (٢٨ من ذي القعدة ١١١٨هـ الموافق٢٠ من فبراير ١٧٠٧م) بعد أن حكم ٥٢ سنة، وكان قد بلغ من تقواه أنه حين حضرته الوفاة أوصى بأن يُدفن في أقرب مقابر للمسلمين، وألا يعدو ثمن كفنه خمس روبيات!.

بذلك يكون عمر السلطان حين وفاته ٩٠ سنة!، ولم تمنعه سنُّه من قيادة الجيوش أو قراءة القرآن!.

وبوفاة السلطان أبو المظفر محيي الدين محمد أورنكزيب عالمكير، انتهت عظمة دولة المسلمين في الهند فجاء من بعده حكام ضعاف، وظلَّ الأمر كذلك حتى انتهت تمامًا بسقوط آخر سلطان (بهادر شاه الثاني) عام ١٨٥٧م بواسطة الإنجليز، ولم تقم للإسلام قائمة منذ ذلك الزمن في تلك البلاد الشاسعة.

وبموت هذا الأسد الكاشر غربت شمس المجد عن شبه المملكة الهندية حتى الآن!، وخرج الأنذال من جحورهم يزأرون ويَعْوون!، ويعيثون في الأرض الفساد كما

كانوا يعيثون!، وخطب الزنادقة على المنابر ومرق المارقون!، ونهض إلى البدع أولئك الناهضون! وهُتِكَت الأعراض، وسُفكت الدماء!، واسْتُحِلَّت المحارم!، وضرب الإلحاد بأطنابه في ربوع البلاد!، وجُعِلت الذلَّة والصغار على مسلمي العباد!، وجرتْ دماؤهم في تلك الديار، واغْتُصِبَتْ نساؤهم وبناتهم جهارًا فيا للعار!،

ويا سوءَ صباحٍ... تُشْرِقُ شمسه على ذبح الأطفال والضعفاء من الموحِّدين!.

ويا بؤس ليلٍ... يُسْفِرُ قمره على صرخات المغتصبات من فتيات ونساء المؤمنين!.

**مذابح المسلمين في الهند...**

مذبحة أحمد أباد عام ١٩٧٠م؛ التي ذهب ضحيتها ١٥ ألف مسلم باعتراف أنديرا غاندي نفسها! وارتكب فيها الهنادكة - وهم عباد البقر - أفظع الجرائم في تاريخ البشرية، منها: إحراقهم ٣٠٠ امرأة مسلمة بالنار وهن أحياء!.

مذبحة آسام الشهيرة التي ذهب ضحيتها أكثر من ٥٠ ألف مسلم على أيدي الهنادكة من أعضاء الحكومة المركزية.

مجزرة ميروت وملياينة عام ١٩٨٧م التي سالت فيها الدماء بُحُورًا![1].

وما نقلتُه من هذه الأحداث الجِسَام، التي حدثت بعد وفاة هذا الأسطورة الهُمَام، ما نقلتُه إلا لنتعرف على مثل هذه الجرائم التي ارتُكِبَت في حقِّ الإسلام، ثم لنعرفَ حقيقة قيمةِ هذا السلطان الذي كان من السلاطين العظام، ومن ملوك الإسلام الكِرَامِ الأعلام، والذي - وللأسف - لا يكاد يعرفه أحدٌ من المثقفين فضلًا عن العوام.

---

١- انظر: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر.

# البراء بن مالك

كان البراء ﷺ بطلًا مِقدَامًا، فلم يتخلف يوماً عن غزوةٍ أو مشهد، وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يوصي بألا يكون البراء قائدًا أبدًا، لأن حميَّتُهُ واندفاعه المشهور قد يلقي بالجيش إلى ما لا يُحمد عقباه.

وفي يوم اليمامة، تحت إمرة خالد بن الوليد، انطلق البراء والمسلمون يقاتلون جيش مسيلمة الكذاب، وعندما سرى في صفوف المسلمين الجزع، نادى القائد خالدٌ البراء: تكلم يا براء. فصاح البراء بكلمات قوية عالية: يا أهل المدينة، لا مدينة لكم اليوم، إنما هو الله وحده، والجنة. فكانت كلماته تنبيهًا للخطر الذي سيعمُّ إذا ما انهزم جيش أبي بكر.

ثم حمل وحمل الناس معه؛ فانهزم أهل اليمامة، فلقيَ البَرَاء محكِّم اليمامة؛ فضربه البَرَاء وصرعه، فأخذ سيف مُحكِّم اليمامة، فضرب به حتى انقطع![1].

وفي روايةٍ قال البَرَاء: لقيتُ يوم مُسَيْلِمَة رجلاً يقال له: حمار اليمامة، رجلاً جسيمًا، بيده السيف أبيض، فضربتُ رجليه، فكأنما أخطأته، وانعقر فوَقَع على قفاه، فأخذت سيفه وأغمدتُ سيفي، فما ضربتُ به ضربةً حتى انقطع![2].

وبعد ذلك، حين عادت المعركة إلى نهجها الأول، وجماعة أبي بكر الصديق تتقدم نحو النصر، احتمى المرتدين من جيش مسيلمة بداخل حديقةٍ كبيرةٍ سُميت بعد

١- نسبه الحافظ إلى السّراج في تاريخه، انظره في الإصابة (٢٣٦/١).

٢- نسبه الحافظ إلى البغوي من طريق أيوب عن ابن سيرين عن أنس عن البراء كما في الإصابة (٢٣٧/١).

ذلك بـ(حديقة الموت)، فبردت حركة المعركة، فأمر البَرَاءُ أصحابه أن يحتملوه على تُرْسٍ على أَسِنَّة رماحهم، ويُلقوه في الحديقة، فصعد فوق ربوة وصاح قائلًا: يا معشر المسلمين، احملوني وألقوني عليهم في الحديقة. - فهو يريد أن يدخل ويفتح الأبواب لجماعته ولو قتله المرتدون فسينال المصير الذي يريد -!.

ولم ينتظر البراء كثيرًا فاعتلى الجدار وألقى بنفسه داخل الحديقة وفتحَ الباب واقتحمه جيشُ أبي بكر، وتلقى جسد البطل يومئذٍ بضعًا وثمانين ضربةً ولكن لم يمت، وقد حرص القائد خالد بن الوليد على تمريضه بنفسه، فأقام عليه شهرًا يداوي جراحه! [1].

حقًّا... إنَّ هذا لشيءٌ عُجَاب

**والأعجب منه..**

ها هو ﷺ يَضربُ مثلاً أعظم من ذلك، حينما أنقذ أخاه أنسًا من شراك العدوِّ بعدما عَلِقَتْ به في حروب العراق، فبينما أنس بن مالك وأخوه البَرَاء بن مالك عند حصنٍ من حصون العدو، والعدو يلقون كلاليبَ في سلاسل محمَّاة، فَتَعْلَقُ بالإنسان، فيرفعونه إليهم، فَعَلِقَ بعض تلك الكلاليب بأنس بن مالك، فرفعوه حتى أقلُّوه منَ الأرض، فأتى أخوه البَرَاء، فقيل له: أدركْ أخاك - وهو يقاتل الناس - فأقبل يسعى حتى نزا في الجدار، ثم قبض بيده على السِّلسلة وهي تُدار، فما برح يجرُّهم ويداه تَدْخنان حتى قطع الحبل، ثم نظر إلى يديه، فإذا عظامه تلوحُ، قد ذهب ما عليها من اللحم، وأنجى الله عزَّ وجلَّ أنس بن مالك ﷺ بذاك، ثم قضى فترة علاج بطيء حتى بَرِأَ! [2].

---

١- تاريخ خليفة (١٠٩)، الإصابة (٢٣٦/١)، والاستيعاب (٢٨٧/١)، وسير أعلام النبلاء (١٩٦/١).

٢- رواه الطبراني في الكبير (١١٨٢) وحسنه الهيثمي (٣٢٥/٩).

و كان ﷺ وأرضاه حسن الصوت، يحبُّ الترنُّم والحُدَاء؛ قال أخوه أنس: دخلتُ على البَرَاء وهو يتغنَّى بالشِّعْر، فقلتُ له: يا أخي، تتغنَّى بالشِّعْر، وقد أبدلك الله به ما هو خيرٌ منه: القرآن؟! قال: أتخافُ عليَّ أن أموت على فراشي، وقد تفرَّدتُ بقتل مائةٍ من المشركين، سوى مَنْ شاركت فيه!، إني لأرجو ألا يفعل الله ذلك بي[1].

وبالفعل قد استجاب الله له؛ فلم يَمُتْ على فراشه؛ بل قُتل في ساحات الوغى؛ فقد كان مستجاب الدعوة، ولو أقسم على الله لأبره...

فإن البَرَاء لقيَ زحفًا منَ المشركين، وقد أوجع المشركون في المسلمين؛ فقالوا له: يا بَرَاء، إن رسول الله ﷺ قال: لو أقسمتَ على الله لأبرَّك؛ فأقْسِم على ربِّكَ. قال: أقسمتُ عليك ربِّ لَمَا منحتنا أكتافهم. فمُنحوا أكتافهم!.

ثم التقوا على قنطرة السُّوس، فأوجعوا في المسلمين؛ فقالوا له: يا بَرَاء، أَقْسِمْ على ربِّكَ، فقال: أقسمتُ عليك يا ربِّ لَمَا منحتنا أكتافهم، وألحقني بنبيِّ الله ﷺ. فمُنحوا أكتافهم، وقُتل البَرَاء شهيدًا![2].

وكان ذلك يوم فتح تُسْتَر في خلافة عمر ﷺ سنة عشرين من الهجرة النبوية[3].

فرضي الله عن هذا الأسطورة البطل، وعن أخيه أنس، وعن أمهما العظيمة أُمِّ سُلَيم.

---

١- رواه الحاكم وصححه (٢٩١/٣) ووافقه الذهبي.

٢- رواه الحاكم وصححه (٣٣٠/٣) ووافقه الذهبي.

٣- سير أعلام النبلاء (١٩٦/١).

obeikandl.com

# بقي بن مخلد

هو الأسطورة بقي بن مخلد الأندلسي... الإمام، القدوة، شيخ الإسلام، أبو عبدالرحمن علمُ الأعلام... صاحب أعظم مسند في تاريخ المسلمين، وأعظم تفسير في تاريخ الإسلام.

قال أبو محمد على بن أحمد: فمن مصنفات أبي عبد الرحمن بقي بن مخلد: كتابه في تفسير القرآن، فهو الكتاب الذي أقطع قطعًا لا أستثني فيه أنه لم يؤلف في الإسلام مثله، ولا تفسير محمد بن جرير الطبري، ولا غيره؛ ومنها في الحديث مصنفه الكبير الذي رتبه على أسماء الصحابة ~، فروى فيه عن ألف وثلاث مائة صاحب، ونيف، ثم رتب حديث كل صاحب على أسماء الفقه وأبواب الأحكام، فهو مصنف ومسند، وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله، مع ثقته، وضبطه، وإتقانه، واحتفاله فيه في الحديث، وجودة شيوخه، فإنه روى عن مائتي رجل وأربعة وثمانين رجلًا ليس فيهم عشرة ضعفاء، وسائرهم أعلام مشاهير، ومنها كتاب في فتاوى الصحابة والتابعين ومن دونهم الذي أربى فيه على مصنّف أبي بكر ابن أبي شيبة ومصنف عبدالرزاق بن همام ومصنف سعيد بن منصور وغيرهم، فصارت تصانيفه قواعد الاسلام لا نظير لها!.

والذي كان عديم المثل، منقطع القرين،

من حفاظ المحدثين، وأئمة الدين، والزهاد الصالحين...

قال عنه أبو عبدالملك أحمد بن محمد القرطبي:

كَانَ فَاضِلاً تَقِيّاً، صَوَّاماً قَوَّاماً مُتَبَتِّلاً، مُنْقَطِعَ القَرِيْنِ فِي عَصْرِهِ، مُنْفَرِداً عَنِ النَّظِيْرِ فِي مِصْرِهِ.

ولد بقي بن مخلد الأندلسي في رمضان سنة إحدى ومائتين (٢٠١هـ) وتوفي ليلة الثلاثاء لتسع وعشرين ليلة مضت من جمادى الآخرة سنة ست وسبعين ومائتين (٢٧٦هـ)، ودفن في المقبرة المنسوبة إلى بني العباس، وكانت له رحلتان: أقام في إحداهما نحو العشرين عامًا، وفي الثانية نحو الأربعة عشر عامًا، كان يطوف في الأمصار على أهل الحديث، فإذا أتى وقت الحج أتى إلى مكة فحج، هذا كان فعله كلّ عام في رحلتيه جميعًا. وكان يلتزم صيام الدهر، فإذا أتى يوم جمعة أفطر، وكانت له عبادات كثيرة من قراءة القرآن وغيرها من الصلوات ونشر العلم!.

أما عن رحلته الأسطورية إلى إمام أهل السنة الإمام أحمد بن حنبل،

تلك الرحلة التي ارتحلها ماشيًا على قدميه كحاله في كل ترحاله، فقد نقل بعض العلماء من كتاب حفيده عَبْد الرحمن بن أحمد بن بقيّ: سمعت أبي يقول: رحل أبي من مكّة إِلَى بغداد، وكان جلَّ بغيته ملاقاة أَحْمَد بْن حنبل، قَالَ: فَلَمَّا قربت بلغتني المحنة - محنة الإمام أحمد -، وأنّه ممنوع، فاغتممت غمًّا شديدًا، فاحتللت بغداد واكتريت بيتًا في فندق، ثُمَّ أتيت الجامع، وأنا أريد أن أجلس إِلَى النّاس، فدفعت إلى حلقةٍ نبيلة، فإذا برجلٍ يتكلَّم في الرجال، فَقِيلَ لي: هَذَا يحيى بن معين، ففرجت لي فرجةً، فقمت إليه، فقلت: يا أَبَا زكريا - رحمك الله - رَجُل غريب ناءٍ عن وطنه، يحبُّ السُّؤال فلا تستجفني، فقال: قل، فسألتُ عن بعض من لقيته، فبعضًا زكّى، وبعضًا جرَّح. فسألته عن هشام بْن عمّار، فقال لي: أبو الْوَلِيد صاحب صلاة دمشق، ثقة وفوق الثقة، لو كان تحت ردائه كبرٌ أو متقلدًا كبرًا ما ضره شيئًا لخيره وفضله. فصاح

أصحاب الحلقة: يكفيك – رحمك الله – غيرك له سؤال. فقلت وأنا واقف على قدم: اكشف عن رجلٍ واحد: أَحْمَد بْن حنبل. فنظر إليَّ كالمتعجّب، فقال لي: ومثلنا نحن نكشف عن أحمد؟ ذاك إمام المسلمين وخيرهم وفاضلهم. فخرجت أستدلّ على منزل أحمد، فدللت عليه، فقرعت بابه، فخرج إليَّ، فقلت: يا أَبَا عَبْد الله رَجُل غريب نائي الدّار، هذا أول دخولي هذا البلد، وأنا طالب حديث، ومقيَّد سنّة، ولم تكن رحلتي إلّا إليك. فقال: ادخل الأصطوان، ولا يقع عليك عين. فدخلت، فقال لي: وأين موضعك؟ قلت: المغرب الأقصى. قَالَ: إفريقية؟ فقلت له: أبعد من إفريقية، أجوز من بلدي البحر إِلَى إفريقية، الأندلس. قَالَ: إنّ موضعك لبعيد، وما كان شيء أحبُّ إليَّ من أن أحسن عون مثلك، غير أني ممتحن بما لعله قد بلغك، فقلت له: بلى، لقد بلغني، وهذا أوّل دخولي، وأنا مجهول العين عندكم، فإن أذنت لي أن آتي كلَّ يوم فِي زيّ السُّؤَال – من يسألون الناس –، فأقول عند الباب ما يقوله السؤال، فتخرج إِلَى هَذَا الموضع، فلو لم تحدثني كل يوم إلّا بحديث واحدٍ لكان لي فِيهِ كفاية. فقال لي: نعم، على شرط أن لا تظهر فِي الحلق، ولا عند المحدِّثين، فقلت: لك شرطك. فكنت آخذ عودًا بيدي، وألف رأسي بخرقةٍ مدنسَّة وآتي بابه، فأصيح: الأجر، رحمكم الله، والسُّؤال هناك كذلك، فيخرج إليَّ ويغلق الباب، ويحدثني بالحديثين، والثلاثة، والأكثر، فالتزمت ذلك حتّى مات الممتحن له وولي بعده من كان على مذهب السنة، فظهر أَحْمَد وعلت إمامته، وكانت تضرب إليه آباط الإبل، فكان يعرف لي حق صبري، فكنت إذا أتيت حلقته فسح لي، ويقصّ على أصحاب الحديث قصتي معه، فكان يناولني الحديث مناولة، ويقرؤه علي وأقرؤه عليه، واعتللت، فعادني فِي خلقٍ معه.

فسمع من أحمد الكثير، ومن خلقٍ غيرِ أحمد الكثير، فصار منقطع النظير..

قَالَ أَحْمَد بْن أبي خيثمة: ما كُنَّا نسميه إلّا المكنسة!، وهل احتاج بلدٌ فِيهِ بقيٌّ إلى أن يأتي إلى ههنا منه أحد؟!.

وقَالَ طاهر بْن عَبْد الْعَزِيز: حملت معي جزءًا من مسند بقيّ إِلَى المشرق، فأريته محمد بْن إِسْمَاعِيل الصائغ، فقال: ما اغترف هَذَا إلّا من بحر. وعجب من كثرة علمه!.

ولقد كان رحمه الله صوامًا، قوامًا، تاليًا للقرآن، ذاكرًا، ساعيًا في حوائج المسلمين، وحسبه أنه كان مستجاب الدعوة...

ذكر عَبْد الرَّحْمَن بْن أَحْمَدَ بن بقي، عن أَبِيهِ، أنّ امرأة جاءت إلى بقيّ فقالت: ابني في الأسر، ولا حيلة لي، فلو أشرت إلى من يفديه، فإنّني والهة. قَالَ: نعم، انصرفي حَتَّى أنظر في أمره. ثُمَّ أطرق وحرّك شفته، ثُمَّ بعد مدة جاءت المرأة بابنها، فقال: كنت في يد ملك، فبينا أَنَا في العمل سقط قيدي، فذكر اليوم والساعة، فوافق وقت دعاء الشَّيْخ. قَالَ: فصاح عليَّ المرسم بنا، ثُمَّ نظر وتحيَّر، ثُمَّ أحضر الحداد وقيَّدني، فَلَمَّا فرغه ومشيت سقط، فبهتوا ودعوا رهبانهم، فقالوا: ألك والدة؟ قلت: نعم. قَالُوا: وافق دعاؤها الإجابة، وقد أطلقك الله، فلا يمكننا تقييدك، فزوّدوني وبعثوني.

إنه بحق أسطورة.. أسطورة في الجد والاجتهاد، أسطورة في الهمة وتوقد الفؤاد، أسطورة في البذل والعطاء والإمداد...[1].

---

١- سير أعلام النبلاء (٢٨٧/١٣)، تاريخ الإسلام (٥٢١/٦).

وهذا سيفُ اللّهِ المسلولُ خالد، ليثُ الإسلامِ وفارسُ المشاهد..

إنه ليثُ الإسلام الكرَّار، أبو سليمان المِغْوار، سيفٌ سَلَّه اللّهُ على الكفّار...

كمْ من غَارَةٍ عن حِمى الإسلام كَفْكَفَهَا بالضَّرْب والطَّعن أوْ بالرُّعب والرَّهَبِ!

قِمَّةٌ عسكرية، دهاءٌ وعبقريّة...

لقِيَ هُرْمُزَ فخيَّرَه فاختار هرمزُ المواجهة، فقام خالدٌ بتقسيم جيشه وانطلق مُعَمِّمًا وِجْهته، مُظهرًا أنه متَّجِهٌ لكَاظِمة، فوجَّه هرمز كافّة قواته إلى كاظمة وأمر بحفر الخنادق والاستعداد لخالد، فحفروا واستعدوا، وعلم خالدٌ فتوجّه إلى الحَفِير وترك كاظمة، فاغتاظ هرمز وأصدر أمره لقواته بالعودة إلى الحفير ليسبقوا خالدًا، وعلم خالدٌ فتباطأ حتى وصل هرمز بجيشه إلى الحفير وحفروا الخنادق وربطوا أنفسهم بالسّلاسل، حينها عَلِمَ خالد فعطف بجيشه على كاظمة، فأَرْغَى هرمز وأَزْبَد، وبربر وجَرْجَر وتوَتَّر، وأصدر أمره لجيش مُنْهَكٍ من حفر الخنادق وحمْل السلاسل، بالعودة إلى كاظمة وخالد هناك في انتظاره!.

لِمَواضِيه صَلِيلٌ وزَئِيرُ ... ومتى نازَلَ فاللَّيْث الهَصُورُ

وما أن الْتَقَيَا حتى دعا هرمز خالدًا لِلْبِراز، وعهد إلى حامية من فرسانه أن يغدروا بخالد، وخالد خالد...

ذو انتقامٍ شَقِيَ الجَاني به، وعلى الباغي عبوسٌ قَمْطَرِيرُ

مالَ عليْه خالدٌ ﷺ فاحْتضنه، فحملت الحامية على خالدٍ للغدرِ به فأتاهم القعقاعُ فأبادهم ولا يُهْزَمُ جيْشٌ فيه مِثْله،

وقام خالد بذَبْح الغادرِ، فكان أمره كأمسِ الدَّابرِ، وانتصر الحق على المُكابرِ،

رَكَنَ الفُرْسُ للفرار، بعد قتل قائدهم الخَتَّار، فركبهم المسلمون يقتلون ويأسُرون، فما نجا منهم إلا من ركب السُّفن عاريًا أو شبه عارٍ!.

إنه خالد... قائدٌ نادر، دقيق في رَسْم الخُطط، سريعٌ في التنفيذ مهما كانت المخاطر، قُدْرة فائقة على ابتكار الأساليب المفاجئة، لا يَنام ولا يُنيم، ولا يَبِيتُ إلاَّ على تَعْبِئة.

طوَّق المُصَيِّخَة على شكل دائرة وهم يَحْتَسُون في عُرسِ زعيمهم الخمر، وفي مُنتصف الليل شَنَّ هجومه الصّاعق عليهم من كل جهة، فكان أولَ قتيلٍ زعيمُهم الذي لم يُفِق بعد من السكر حتى أطاح خالد برأسه في جَفْنَةِ الخمر، وصَحَا أهل البلدة على وقْعِ السيوف والأسِنَّة، فلم ينجُ منهم إلا القلَّة!.

ولما حال الخندقُ بينه وبين أهل الأنبار، نحر الإبل الهزيلة العِجاف، ورَدَمَ بها النُّقَط الضيِّقة من الخَندق وعبر إليها – إلى الأنبار – فاستسلمت الأنبار!.

إنه الأسطورة أبو سليمان خالدُ بنُ الوليد ﷺ الذي دمر جيشَ مهران الفارسي مع نصارى العرب بأكمله دون أن يخسر جنديًا واحدًا!.

يَسْتَسْهِلُ الصَّعْبَ إنْ هَاجَتْ حَفِيظَتُهُ .. لا يُشَاوِرُ إلَّا السَّيْفَ إنْ غَضِبَا

لما التقى جيشُ الإسلام بجيشِ الفرسِ مع النصارى العرب في عين التمر، قال أحدُ نصارى العربِ – عقةُ بنُ أبي عقة – لمهران الفارسي: دعنا وخالدًا، نحن العربَ أعلم بقتال العربِ، فقدمه مهران الفارسي ليتقي به قائلًا: دونكم وإياهم، وإن احتجتم إلينا

أعنَّاكم، فلامَتِ العجمُ أميرهم على هذا، فقال: دعوهم فإن غَلَبُوا خالدًا فهو لكم، وإن غُلِبُوا قاتلنا خالدًا وقد ضعفوا ونحن أقوياء، فاعترفوا له بفضل الرأي عليهم.

بلغت مقالةُ عقةَ خالدًا ﷺ، فعزم على أن يُلَقِّنَ المغرورَ درسًا لكلِّ مغرور، ويخبره أيُّ رجالِ حربٍ هُمُ المسلمون،

فسارَ خالدُ وتلقاه عقةُ، فلما تواجهوا قال خالدُ لمجنبته: احفظوا مكانكم فإني حامل، وأمر حُمَاتَه أن يكونوا من ورائه، وفي أناةِ القَطَاةِ ووثوب الأسدِ قام عاشق المفاجأة، من لا ينام ولا يُنيم، ولا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه،

فما كانَ إلا الليثَ أَنْهَضَهُ الطوى .. وما كانَ إلا السيفَ فارقه الغِّمْدُ

خرج إليه في جريدةٍ من الخيلِ وهو مشغول بتسوية صفوف جيشه، وجيشه منشغل بالنظر إلى خالد، ما عسى أن يفعل أمام عشرات الآلاف!، وبينا هم غارقون في دهشتهم، إذ انقض خالدٌ في أسلوبٍ صاعقٍ مفاجئٍ كالبرق الخاطف، والرعد القاصف، والريح العاصف على المغرور فاختطفه من بين يدي جيشه كأنه ذباب،

ذبابٌ طارَ في لَهَوَاتِ ليثٍ ... كذاك الليثُ يلتهمُ الذبابَ

حمله على فرسه كما يُحملُ الصبيُّ الرضيعُ ليرجع به إلى المسلمين،

وحاله:

فلو كنتَ حُرَّ العرْضِ أو ذا حفيظةٍ .. غلبتَ ولكن لم تلدكَ الحرائرُ

ثم قال له خالدُ نفس مقالته : نحنُ العربَ أعلم بقتال العرب،

ثم قَدَّهُ بالسيفِ ورماهُ على الجسرِ وقال: هكذا فاصنعوا بهم!

للّه در أبي سليمان.. انتَضَحَ بحرُهُ فأغرَق، وقَدَحَ زَنْدُه فأحرق،

فصار حيهم مَيْتًا، وهَذَرُهُم صمتًا، وجبالهم لا ترى فيها عِوَجًا ولا أَمْتًا، لم يتحملوا الصدمة فلاذوا بالفرار، فركبهم المسلمون يقتلون ويأسرون ويسبون، وهرب من هرب منهم إلى الحصن، ثم نزلوا على رأيه فدمر جيشهم بأكمله ولم يخسر من جيشه!

لا يُغْمِدُ السيفَ إلا بعدَ ملحمةٍ ... ولا يُعاقِبُ إلا بعدَ تحذيرِ

وبارز رجلًا من فارس يعدل عندهم ألف فارس، فصرعه ثم اتَّكَأَ عليه ودعا بغَدَائه، إمْعانا في إغاظَةِ أعْدائه.

وفي إنْجازٍ تعجزُ عن تحقيقه أعْتى الجيوش المُدجَّجَة، بكافة الأسلحة، يُسَيْطر على أكثر من ثُلُثي العراق في أربعين يومًا!.

عَضْبٌ إذا ما قام يومًا خاطبًا ... فالْهَامُ تسجدُ والجماجم تَرْكعُ

فلله درّه كم انْدَقّ في يده من سيف!

قد أتعب السيفَ من طول القِرَاعِ به، فالسيف في راحةٍ منه وفي تعَبِ

**وفي فتح دمشق...**

حمل خالد بن الوليد على جيش الروم حملةً ورفع رمحه ورأى العسكر من أمور الحرب حتى جزع الروم من شجاعته، فلما نظر إليه البطريق كلوس - أحد قادة الروم من البطاريق - علم أنه أمير الجيش وعلم أنه يقصده فتأخر كلوس إلى ورائه من مخافته، فلما نظر خالد إلى قهقرة كلوس إلى ورائه حمل عليه ليرده فوقعت عليه البطارقة ورموه بالسهام فلم يلتفت إليهم خالد ولم يعبأ بهم ولم يرجع حتى قتل عشرين!، ثم انثنى بجواده بين الصفين وجال بجواده بين الفريقين وطلب البراز فلم يجبه أحد، وقالوا: أخرجوا غيره منكم فقال: ويلكم ها أنا رجل واحد من العرب وكلنا في الحرب سواء فما منهم من فهم كلامه، فأقبل عزازير - أحد قادة الروم من

البطاريق – على كلوس وقال: أليس الملك قد قدمك علي جيشه وبعثك إلى قتال العرب فدونك حام عن بلدك ورعيتك.

فقال كلوس: أنت أحق مني بذلك لأنك أقدم مني وقد عزمت أنك لا تخرج إلا بإذن الملك هرقل، فما بالك لا تخرج إلى قتال أمير العرب، فقال لهما العساكر: تقارعا فمن وقعت عليه القرعة فلينزل إلى قتال أمير العرب، فقال كلوس: لا بل نحمل جميعًا فهو أهيب لنا، وخاف كلوس أن يبلغ الملك ذلك فيطرده من عنده أو يقتله، فتقارعا فوقعت القرعة على كلوس، فقال عزازير: اخرج وبين شجاعتك، فقال كلوس لأصحابه: أريد أن تكون همتكم عندي فإن رأيتم مني تقصيرًا فاحملوا وخلصوني، فقال أصحابه: هذا كلام عاجز لا يفلح أبدًا، فقال: يا قوم إن الرجل بدوي ولغته غير لغتي، فخرج معه رجل اسمه جرجيس وقال له: أنا أترجم لك، فسار معه فقال كلوس: اعلم يا جرجيس أن هذا رجل ذو شجاعة فإن رأيته غلبني فاحمل أنت عليه حتى نقضي يومنا معه ويخرج له غدا عزازير فيقتله ونستريح منه وأتخذك أنا صديقي، فقال له: ما أنا أهل حرب وإنما أخوِّفُه بالكلام، فسكت وسارا حتى قربا من خالد، فنظر إليهما، فهم أن يخرج إليهما رافع بن عميرة – ليكون مع خالد –، فصاح فيه خالد قال: مكانك لا تبرح فإني كفؤ لهما!، فلما دنوا من خالد قال كلوس لصاحبه: قل له: من أنت وما تريد وخوِّفْهُ من سطواتنا، فقرب جرجيس من خالد وقال له: يا أخا العرب، أنا اضرب لك مثلًا، إن مثلكم ومثلنا كمثل رجل له غنم فسلمها إلى راعٍ وكان الراعي قليل الجرأة على الوحوش فأقبل عليه سبعٌ عظيم فجعل يلتقط منه كل ليلة رأسًا إلى أن انقضت الأغنام والسبع ضارٍ عليها ولم يجد له مانعًا عنها، فلما نظر صاحب الغنم ما حل بغنمه علم أنه لم يؤت إلا من الراعي، فانتدب لغنمه غلامًا نجيبًا

فسلمه الغنم، فكان كل ليلة يكثر الطَّوَفَان حول الغنم، فبينما الغلام كذلك إذ أقبل عليه السبع على عادته الأصلية واخترق الغنم فهجم الغلام على السبع وبيده منجل فضربه فقتله ولم يقرب الغنم وحش بعدها، وكذلك أنتم نتهاون بأمركم لأنه ما كان أضعف منكم لأنكم جياع مساكين ضعفاء وتعودتم أكل الذرة والشعير ومص النوى، فلما خرجتم إلى بلادنا وأكلتم طعامنا وفعلتم ما فعلتم، وقد بعث لكم الملك رجالًا لا تقاس بالرجال ولا تكترث بالأبطال ولا سيما هذا الرجل الذي بجانبي فاحذر منه أن ينزل بك ما أنزل الغلام بالأسد، وقد سألني أن أخرج إليك وأتلطف بك في الكلام، فأخبرني ما الذي تريد قبل أن يهجم عليك هذا الفارس، فلما سمع خالد منه ذلك قال: يا عدو الله، والله لا نحسبكم عندنا في الحرب إلا كقابض الطير بشبكة، وقد قبضتها يمينًا وشمالًا فلم يخرج إلا ما انفلت منها، وأما ما ذكرت من بلادنا وإنها بلاد قحط وجوع فالأمر كذلك إلا أن الله تعالى أبدلنا ما هو خير منه، فأبدلنا بدل الذرة الحنطة والفواكه والسمن والعسل، وهذا كله قد رضيه لنا ربنا ووعدنا به على لسان نبيه، وأما قولك ما الذي تريدونه منا؟ فنريد منكم إحدى ثلاث خصال: أما أن تدخلوا في ديننا، أو تؤدوا الجزية، أو القتال، وأما قولك إن هذا الرجل الذليل الذي هو عندكم مسكين، فهو عندنا أقل القليل، وإن يكن هو ركن الملك، فأنا ركن الإسلام، أنا الفارس الصنديد، أنا خالد بن الوليد، أنا صاحب رسول الله ﷺ، فلما سمع جرجيس كلام خالد تأخر إلى وراءه وقد تغير لونه، فقال له كلوس: يا ويلك رأيتك في بدايتك تهيم كالسبع فمالك قد تأخرت؟! فقال: وحق المسيح ما أعلم أنه الفارس الجحجاح، وبطلهم الصفاح، هذا صاحب القوم الذي ملأ الشام شرًا، فقال كلوس: يا جرجيس اسأله أن يؤخر الحرب بيننا إلى غد – حتى يكون يوم عزازير، فقد اتفقوا على التناوب

-، فالتفت جرجيس إلى خالد وقال له: يا سيد قومك هذا صاحبي يريد أن يرجع إلى قومه ليشاورهم، فقال خالد: ويحك أتريد أن تخدعني بالكلام، وأقبل برمحه في وجه جرجيس فلما نظر جرجيس ذلك انعقد لسانه وولى هاربًا، فلما رأى خالد ذلك طلب كلوس وحمل عليه وتطاعنا واحترز البطريق من طعنات خالد، فلما نظر خالد احتراز البطريق خط يده في أطواقه وجذبه فقلعه من سرجه!، فلما نظر المسلمون فعل خالد كبروا بأجمعهم وتسابق الفرسان إلى خالد فلما قربوا منه رمى لهم البطريق وقال أوثقوه كتافًا، فصار يبربر بلسانه فأتى المسلمون برومانس صاحب بصرى - رجل كان قد أسلم وانضم للمسلمين - وقالوا له: اسمع ماذا يقول! فقال لهم يقول لكم: لا تقتلوني فاني أجبت صاحبكم في المال والجزية، فقال خالد: استوثقوا منه ثم نزل عن جواده وركب جوادًا أهداه له صاحب تدمر، وعزم أن يهجم على الروم فقال ضرار بن الأزور: أيها الأمير دعني أنا أحمل على القوم حتى تستريح أنت، فقال: يا ضرار الراحة في الجنة غدًا، ثم عَوَّل خالدٌ على الحملة فصاح به البطريق كلوس وقال: وحق دينك ونبيك إلا ما رجعت إليَّ حتى أخاطبك فرجع خالد إليه، وقال لروماس: اسأله ما يريد! فقال: أعلمه أني صاحب الملك، وقد بعثني إليكم في خمسة آلاف فارس لأردكم عن بلده وأهله ورعيته وقد تحجبت أنا وعزازير متولي دمشق وقدم إلي معه كذا وكذا، وأنا اسألك بحق دينك إذا خرج إليك فأقتله، وإن لم يخرج إليك فاستدعه واقتله فإنه رأس القوم فإن قتلته فقد ملكت دمشق، فقال خالد لروماس: قل له: إنَّا لا نبقي عليك ولا عليه ولا على من أشرك بالله تعالى، ثم إنه بعد ذلك الكلام حمل وهو ينشد ويقول:

لك الحمد مولانا على كل نعمة، وشكر لما أوليت من سابغ النعم

مننت علينا بعد كفر وظلمة، وأنقذتنا من حندس الظُّلَمِ والظُّلَمِ

وأكرمتنا بالهاشمي محمد، وكشفت عنَّا ما نلاقي من الغمِّ

فتمم إله العرش ما قد ترومه، وعجل لأهل الشرك بالبؤس والنِّقَمِ

وألقهم ربي سريعًا ببغيهم، بحق نبي سيد العُرُبِ والعجمِ

قال الواقدي: لقد بلغني ممن أثق به إنه لما ولي جرجيس هاربًا من بين يدي خالد إلى أصحابه، رأوه يرتعد من الفزع فقالوا له: ما وراءك؟ فقال: يا قوم ورائي الموت الذي لا يُقَاتَل، والليث الذي لا يُنَازَل، وهو أمير القوم، وقد أخذ على نفسه أن يطلبنا أينما كنا، وما خلصت روحي إلا بالجهد، فصالحوا الرجل قبل أن يحمل عليكم بأصحابه فلا يُبقِي منكم أحدًا، فقالوا له: ما يكفيك أنك انهزمت! وقد هموا بقتله، فبينما هم كذلك إذا أقبل أصحاب كلوس على عزازير وهم خمسة آلاف وصاحوا به وقالوا له: ما أنت عند الملك أعز من صاحبنا، وقد كان بيننا وبينك شرط فاخرج أنت إلى خالد واقتله أو اسره وخلص لنا صاحبنا، وإلا وحق المسيح، والمذبح والذبيح، شننا عليك الحرب، فقال عزازير: وقد رجع به مكره ودهاؤه، يا ويلكم أتظنون أني جزعت من الخروج إلى هذا البدوي من أول مرة!، ولكني ما تأخرت عن الخروج إليه وتقاعدت عن قتاله حتى يتبين عجز صاحبكم، وسوف ينظر الفريقان أيُّنَا أفرس وأشجع وأثبت في مقام القتال إذا نحن تشابكنا بالنصال، ثم إنه في الحال ترجَّل عن جواده ولبس لأمته وركب جوادًا يصلح للجولان، وخرج إلى قتال سيدنا خالد بن الوليد، الفارس الصنديد ﷺ، فلما قرب منه قال: يا أخا العرب ادن مني حتى أسألك، وكان الملعون يعرف العربية، فلما سمع خالد ذلك قال: يا عدو الله ادن أنت على أم رأسك ثم هم أن يحمل عليه، فقال: على رسلك يا أخا العرب أنا أدنو منك، فعلم خالد أن الخوف داخله فأمسك عنه حتى قرب منه، فقال: يا أخا العرب ما حملك أن تحمل أنت بنفسك أما

تخشى الهلاك فلو قُتلتَ بقيتْ أصحابُك بلا مقدم، فقال خالد: يا عدو الله قد رأيت ما فعل الرجلان من أصحابي يعني - ضرار بن الأزور وعبدالرحمن بن أبي بكر -، لو تركتهم لهزموا أصحابك بعون الله تعالى، وإنما معي رجال وأي رجال! يرون الموت مغنمًا، والحياة مغرمًا، ثم قال له خالد: من أنت؟ فقال: أو ما سمعت باسمي أنا فارس الشام، أنا قاتل الروم والفرس، أنا كاسر عساكر الترك، فقال خالد: ما اسمك؟ فقال أنا الذي تسميت باسم ملك الموت، اسمي عزرائيل.

قال الواقدي: فضحك خالد من كلامه وقال: يا عدو الله تخوفني، إنَّ الذي تسميت باسمه هو طالبك، ومشتاق إليك ليرديك إلى الهاوية، فقال له عزازير: وما منعك فعلت بأسيرك كلوس؟ فقال هو موثق بالقيود والأغلال، فقال له عزازير: وما منعك من قتله وهو داهية من دواهي الروم؟ فقال خالد: منعني من ذلك أني أريد قتلكم جميعًا، فقال عزازير: هل لك أن تأخذ ألف مثقال من الذهب، وعشرة أثواب من الديباج، وخمسة رؤوس من الخيل وتقتله وتأتيني برأسه! فقال له خالد: هذه ديته، فما الذي تعطيني أنت عن نفسك، قال: فغضب عدو الله من ذلك وقال: ما الذي تأخذ مني؟ قال: الجزية وأنت صاغر ذليل!، فقال عزازير كلما زدنا في كرامتكم زدتم في إهانتنا! فخذ الآن لنفسك الحذر فإني قاتلك ولا أبالي، فلما سمع خالد كلام عزرائيل حمل عليه حملة عظيمة كأنه شعلة نار، فاستقبله البطريق وقد أخذ حذره، وكان عزازير ممن يُعرف بالشجاعة في بلاد الشام، فلما نظر خالد إلى عدو الله أظهر شجاعته وبراعته تبسم، فقال عزازير: وحق المسيح لو أردتُ الوصول إليك لقدرت على ذلك، ولكنني أبقيت عليك لأني أريد أن أستأسرك ليعلم الناس أنك أسيري، وبعد ذلك أطلق سبيلك على شرط أنك ترحل من بلادنا وتسلم لنا ما أخذت من بلاد الشام، فلما

سمع خالد كلام عزازير قال له: يا عدو الله قد داخلك الطمع فينا، وهذه العصابة قد ملكوا تدمر وحوران وبصرى، وهم ممن باعوا أنفسهم بالجنة واختاروا دار البقاء على دار الفناء وستعلم أيُّنَا من يملك صاحبه ويذل جانبه، ثم إن خالد أرى البطريق أبواب الحرب، قال: فندم عزازير على ما كان منه من الكلام وقال: يا أخا العرب أما تعرف الملاعبة؟ فقال خالد: ملاعبتي الضرب في طاعة الرب، ثم إن الملعون هاجم خالد ولوَّح إليه بسيفه وضربه به، فلم يقطع شيئًا، فذهل عدو الله من جولان خالد وثباته وعَلِمَ أنه لا يقدر عليه ولا على ملاقاته، فولى هاربًا وكان جواده أسبق من جواد خالد، قال عامر بن الطفيل ﷺ: وكنت يوم حرب دمشق في القلب، وشاهدنا ما جرى بين خالد وعزازير لما ولى هاربًا وقصَّرَ جواد خالد عن طلبه، فوقع في قلبه الطمع وقال: كأنَّ البدوي خاف مني ومالي إلا أن أقف حتى يلحقني وآخذه أسيرًا ولعل المسيح ينصرني عليه، فلما وقع ذلك في نفسه وقف حتى لحق به خالد وقد جلل فرسَه العرقُ، فلما قرب منه صاح عزازير وقال: يا عربي لا تظن أني هارب خوفًا منك، وإنما أبقيت عليك خوفًا على شبابك، فارحم نفسك، وإن أردت الموت أسوقه إليك، أنا قابض الأرواح، أنا ملك الموت، فعند ذلك ترجَّل خالد عن جواده وسحب السيف وسار إليه كأنه الأسد الضاري.

فلما نظر عزازير إلى ذلك وإلى ترجل خالد زاد طمعه فيه وحام حوله وهَمَّ إليه يريد أن يعلو رأسه بالسيف، فزاغ خالد عنها وصاح فيه وضرب قوائم فرسه بضربة عظيمة فقطعها فسقط عدو الله على الأرض ثم ولى هاربًا يريد أصحابه، فسبقه خالد وقال: يا عدو الله إن الذي تسميت باسمه قد غضب عليك، واشتاق إليك، وها هو قد أقبل عليك يقبض روحك ليؤديك إلى جهنم، ثم هجم عليه، وهمَّ أن يَجْلِدَ به الأرض، ونظَرَتِ الرومُ إلى صاحبها وهو في يد خالد، فهمُّوا أن يحملوا على خالد ويخلصوه

من يده، إذ قد أقبلت جيوش المسلمين وأبطال الموحدين مع الأمير أبي عبيدة بن الجراح ﷺ، كان قد سار من بصرى فوجدوه وقد أخذ عزازير في تلك الساعة، فلما نظرت عساكر دمشق إلى جيوش المسلمين قد أقبلت داخلهم الجزع والفزع فوقفوا عن الحملة.

ثم إن خالدًا أحضر البطريقين بين يديه، وهما كلوس وعزازير فعرض عليهما الإسلام فأبيا، فأمر ضرار بن الأزور أن يضرب عنقيهما ففعل![1].

وفتح خالد ﷺ دمشق، والشام، بل وفتح الأرض كلها!.

فلله درك يا أبا الوليد

إنه أبو سليمان خالدُ بن الوليد، الذي أخذ الراية يوم مؤتة بعد أن استشهد الثلاثة القادة، وقاتل قتالًا شديدًا حتى قال ﷺ: لَقَدِ انْدَقَّ يَوْمَئِذٍ فِي يَدِي سَبْعَةَ أَسْيَافٍ فَمَا ثَبَتَ فِي يَدِي إِلا صَفِيحَةٌ يَمَانِيَّةٌ!،

وما زال يدافع القوم حتى انحازوا عنه، ثم ارتد بانتظام وعاد بجيش المسلمين سالمًا إلى المدينة، تلك الغزوة التي سماه النبي ﷺ فيها سيفًا من سيوف الله، بل وسمى انسحابه العبقري هذا فتحًا، إذ لولا تدبره وإحكامه خطة التقهقر لقضي على الجيش لقلة عدده أمام ذلك الجيش العظيم، فقال ﷺ: "...إِنَّ إِخْوَانَكُمْ لَقُوا الْعَدُوَّ، فَأَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ أَوِ اسْتُشْهِدَ، ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ جَعْفَرٌ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ أَوِ اسْتُشْهِدَ، ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ أَوِ اسْتُشْهِدَ، ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فَفَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ..."[2].

---

١- فتوح الشام للواقدي (٣١/١ : ٣٦)، محاضرة إيماض البرق لعلي القرني.

٢- رواه البخاري (٤٠١٤) وأحمد (١٧٥٠) والنسائي (٨٥٥٠) والحاكم (٥٢٩٥).

بعضُ المواقفِ يا رجالُ حرائرُ ... والبعضُ يا ابنَ الأكرمينَ إماءُ

ما جاءَ سيفُ اللهِ من خَمَّارَةٍ ... ما أنجبتْهُ الليلةُ الحمراءُ

إنه أبو سليمان خالدُ بن الوليد الذي شهد زُهاءَ مائةِ معركةٍ لم ينهزم فيها قط، وحاله:

أُناضِلُ عن دينٍ عظيمٍ وهبْتُهُ ... عطاءَ مُقِلٍّ مهجتي وحياتيَ

فممتثلٌ للّهِ أسلمَ وَجْهَهُ ... يقولُ أنا وحدي سأحميَ دينيَ

بظهري ببطني بالذراعِ بمُقلَتي ... بجنبي بعظم الصدر حتى التراقيَ

على ذروةِ التوحيدِ تخفقُ رايتي ... وتحتَ روابيها تصبُّ دمائيَ

وبعد.. فهذا فيضٌ من غيضٍ بطولاتٍ ومواقفٍ ومشاهدِ هذا الفارسِ والقائدِ والمُقاتِلِ الأسطوريِّ الذي أجزمُ أنه ليسَ له مثيلٌ ولا نظيرٌ على مرِّ التاريخِ في إقدامِه وكَرِّه، وحَمْلِه وضربِه، وقوتِه وبطشِه، وشجاعَتِه وبأسِه، وقَلبِه ونفسِه، وذكائِه وحِسِّه، وعبقريتِه وحدْسِه، وعقلِه ورأسِه، في يومِه ولا أمسِه..

كما أن الحديث عنهُ وعن أمجادِه يحتاجُ إلى كتابٍ كاملٍ، بل كتبٍ، بل مجلداتٍ.. فعذرًا سيفَ اللّه، وحسبكُ قولُ رسولِ اللّه:

«لا تؤذوا خالداً، فإنه سيفٌ من سيوف اللّه صَبَّهُ اللّهُ على الكفار»[1].

ذاك سيفُ اللّه لا تُبْصِرُ في ... حدّه الماضي فُلولًا وانثلامًا

---

١- رواه أحمد في فضائل الصحابة (١٣) والطبراني في الكبير (٣٨٠١) والصغير (٥٨٠) وابن حبان (٧٠٩١) بسند رجاله ثقات، والبزار في مسنده (٣٣٦٥) والحاكم وصححه (٥٢٩٧) وأعله الذهبي، قال الألباني: ضعيف بهذا السياق والتمام وقد صح منه بعضه - التعليقات الحسان (٧٠٤٩).

## سليمان حلمي طوناخان

إنه الإمام التقي، والبطل الأبي، سليل النبي، الشيخ التركي، سليمان حلمي ...

الذي كان كذلك كسائر أضيافنا، أسطورة بمعنى الكلمة،

أسطورة في الخُلُقِ والكرم، والعلم والعمل، والتعليم والدعوة، والتبصير والتنوير، والإصلاح والتغيير، والكفاح والجهاد، والبذل والعطاء...

ذلك الرجل الذي بلغ به الاهتمام بالعلم أنه كان يقاوم النوم حتى تنزف عيناه، وكان يحتسي القهوة حتى لا يغلبه النعاس، وفي الشتاء يضع الثلج بين قميصه وظهره حتى يظل مستيقظًا يُطعم رجال الشرطة!.

والذي بلغ به الكرم أنه كان يطعم رجال الشرطة الذين جاءوا للقبض عليه حتى أن بعضهم أصبحوا من تلاميذه، والذي كان كذلك شديد العطف على تلاميذه حتى أنه كان يذهب بهم للطبيب في حال مرض أحدهم!.

والذي عمل في خدمة أمته طيلة حياته التي امتدت إحدى وسبعين سنة، ولما صدر في تركيا قانون تعطيل الشريعة وإلغاء المدارس الدينية وفصل مُعَلِّمِيهَا الذين بلغوا أكثر من خمسمائة، وقف مُحَرِّضًا لزملائه المعلمين قائلًا:

إن الدين شرفٌ لا يعلوه شرفٌ وإنَّا ضمانه، فلو قام كُلٌّ مِنَّا بتعليم أمور الدين لثلاثةٍ في البيوت خُفْيَة، لأمكن أن نربي ألفًا وخمسمائة فردٍ يمد الله بهم في عمر الإسلام في تركيا خمسين سنة!.

ولما أحجموا خوفًا صرخ فيهم قائلًا:

كيف تَدَّعُون وِراثة النبوة وأحدكم عاجزٌ عن تعليم ولده؟!.

وانطلق يعلم خفية بمفرده، فاستأجر مزرعة بعيدة يُخَبِّئُ فيها طلابه كأنهم عمال له، يزرعون في الصباح ويعلمهم في المساء، يسافر إليهم متنقلًا عبر أربع وسائل للمواصلات يوميًا رغم مرضه وكِبَرِ سِنِّه، ويعلنها كل مرة:

«إنَّا نخدُمُ الإسلام ونأمُلُ أن نكونَ مكانَ الأحذيةِ في سبيله!».

وحاله:

نحن رحالةٌ قصدنا مَليكًا ... عَزَّ في مُلْكِه الذي لا يزولُ

اشترانا مِنَّا فقلنا رَبِحْنَا ... لا نُقيلُ يا ربِ ولا نستقيلُ

على ذا عاش باذلًا لأمته، زاهدًا في دنياه، إلى أن لقي مولاه، وهو يقول لطلابه:

عليكم الاستمرار في أداء هذه المهمة فلا خيار لكم في ذلك، فإن لم تفعلوا فستجدون أصابعي العشرة هذه في تلابيبكم، عليكم الاستمرار في تدريس الطلبة حتى في أصعب الظروف، حتى إذا كنتم على رأس جبل ووجدتم رجلًا واحداً، فعلموه القرآن والدين.

وقال لهم في آخر وصاياه ما فحواه:

لا يُلهِيَنَّكُمُ القلقُ على المعيشة، فالمعيشة تأتي راغمة، ولسان حاله:

«وَمَنْ يَتَقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ»[1].

كما كانت طريقته في التدريس مبتكرة لم يُسبَق إليها، إذ كانت مختلفةً عن باقي المدارس وتتلخص في التطبيق الذي يساعد على تنشيط الطالب باستمرار حيث يطلب من الطالب أن يقرأ الدرس بنفسه وتكون مهمة المدرس إكمال النواقص، فيكتسب الطالب الثقة وتصبح المادة أكثر رسوخًا.

---

١- (الطلاق: ٢، ٣).

فَنفعَ الله به نفعًا لا يُقاس، كما قال جل ذكره فيما ينفع الناس:

«وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ»[1].

فحتى اليوم لا يزال الآلاف يترددون على قبره بقراجا أحمد، ولا يزال المسلمون إلى الآن في تركيا يقطفون ثمار جهاده وكفاحه في سبيل إحياء الإسلام وعلومه في بلاد كان مقدرًا حسب إرادة البشر أن يُقضى فيها على كتاب الله وعلى اللغة العربية والعلوم الإسلامية، وحتى يومنا هذا لم تتوقف طريقة تدريس سليمان حلمي ولا تزال مستمرة في تلاميذه الذين أحبهم وأحبوه وساروا على منهاجه بعد وفاته، فلا يزال له إلى الآن، أتباع ومدارس في كل مكان، ليبقى سليمان حلمي طوناخان، أسطورةً تتردد عبر الأزمان[2].

---

١- (الرعد : ١٧).

٢- انظر: الإسلاميون وتركيا العلمانية هدى درويش، محاضرة جؤنة العطار لعلي القرني.



obeikandl.com

obeikandl.com

# الزبير بن العوام
# (المقاتل الأسطوري)

«أشجع الناس الزبير، .. ولا يعرف قدر الرجال إلا الرجال»

علي بن أبي طالب ﷺ

أما أسطورة هذا الفصل فهي أسطورةٌ من نوع فريد،

لأنها أسطورة تفردت بما لم يجتمع لبشر على وجه الأرض إلا لها،

إنه الزبير ... حواري رسول الله، وابن عمة رسول الله، وعمته أخت أبيه خديجة أم المؤمنين زوج رسول الله، وزوجته بنت الصديق صاحب رسول الله، وأخت عائشة الصديقة زوج رسول الله!.

إنه الزبير ... أحد العشرة المبشرين، وأحد الستة أهل الشورى، وأول من سلَّ سيفه في سبيل الله!.

إنه البطل المقدام، والفارس الهُمام، والصائم القوَّام، حواري خير الأنام، الزبير بن العوام.

ويمكن أن نلخص جزءًا من أسطورة هذا الأسطورة في عدة مشاهد، كل مشهد منها كفيلٌ بأن يجعله أسطورة من الأساطير، وواحدًا من الأعلام المشاهير...

**المشهد الأول: في السنوات الأولى من البَعْثَة النبوية..**

لما نُفِحَتْ نَفْحَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ وأُشِيعَ بين النَّاسِ في مَكَّةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أُخِذَ بِأَعْلَى مَكَّةَ وقُتِل، خَرَجَ الزُّبَيْرُ وَهُوَ غُلَامٌ ابْنُ اثْنَتَي عَشْرَةَ سَنَةً شاهِرًا سيفَهُ يريدُ رسولَ

اللهِ ﷺ، فَمَنْ رَآهُ مِمَّنْ لاَ يَعْرِفُهُ تعجَّبَ واندهَشَ قائلًا: الْغُلاَمُ مَعَهُ السَّيْفُ!

حَتَّى رآهُ النبيُّ ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَا لَكَ يَا زُبَيْرُ؟"

قَالَ: أُخْبِرْتُ أَنَّكَ أُخِذْتَ،

قَالَ: "فَكُنْتَ صَانِعًا مَاذَا؟"

قَالَ: كُنْتُ أَضْرِبُ بِهِ مَنْ أَخَذَكَ!،

فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلِسَيْفِهِ، وَكَانَ أَوَّلَ سَيْفٍ سُلَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ![1].

**المشهد الثاني: في غزوة بدر الكبرى..**

ها هو الزبير عليه عمامة صفراء معتجرًا بها، ثم تكون المفاجأة الكبرى، والكرامة العظمى، جبريل عليه السلام، وملائكة الله العظام، ينزلون بهيأة الزبير بن العوام .. فعَنْ أَبِي الْمَلِيحِ، عَنْ أَبِيهِ ﷺ، قَالَ: نَزَلَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَوْمَ بَدْرٍ عَلَى سِيمَاءِ الزُّبَيْرِ عَلَيْهَا عَمَائِمُ صُفْرٌ[2].

وعَنْ عُرْوَةَ، قَالَ: نَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام يَوْمَ بَدْرٍ عَلَى سِيمَاءِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ وَهُوَ مُعْتَجِرٌ بِعِمَامَةٍ صَفْرَاءَ[3].

ومن إحدى مواقف بطولته في هذا اليوم، ما رواه هو بنفسه قائلًا: لَقِيتُ يَوْمَ بَدْرٍ عُبَيْدَةَ بْنَ سَعِيدِ بْنِ العَاصِ، وَهُوَ مُدَجَّجٌ، لاَ يُرَى مِنْهُ إِلَّا عَيْنَاهُ، وَهُوَ يُكْنَى أَبُو ذَاتِ الكَرِشِ، فَقَالَ: أَنَا أَبُو ذَاتِ الكَرِشِ، فَحَمَلْتُ عَلَيْهِ بِالعَنَزَةِ فَطَعَنْتُهُ فِي عَيْنِهِ فَمَاتَ، لَقَدْ وَضَعْتُ رِجْلِي عَلَيْهِ، ثُمَّ تَمَطَّأْتُ، فَكَانَ الجَهْدَ أَنْ نَزَعْتُهَا وَقَدِ انْثَنَى طَرَفَاهَا، قَالَ عُرْوَةُ: فَسَأَلَهُ إِيَّاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَاهُ، فَلَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَخَذَهَا، ثُمَّ طَلَبَهَا أَبُو بَكْرٍ

---

١- السنن الكبرى للبيهقي (١٣٤٦٥).

٢- رواه البزار في مسنده (٢٣٣٨).

٣- رواه الطبراني في الكبير (٢٣٠) وقال الهيثمي في المجمع: وهو مرسل صحيح الإسناد.

فَأَعْطَاهُ، فَلَمَّا قُبِضَ أَبُو بَكْرٍ، سَأَلَهَا إِيَّاهُ عُمَرُ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا، فَلَمَّا قُبِضَ عُمَرُ أَخَذَهَا، ثُمَّ طَلَبَهَا عُثْمَانُ مِنْهُ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا، فَلَمَّا قُتِلَ عُثْمَانُ وَقَعَتْ عِنْدَ آلِ عَلِيٍّ، فَطَلَبَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، فَكَانَتْ عِنْدَهُ حَتَّى قُتِلَ[1].

وقتل الزبير يومها عمه نوفل بن خويلد بن أسد، وكذا عبيدة بن سعيد بن العاص.

**المشهد الثالث: في غزوة أحد..**

عند بدء المعركة وقبل أن يلتحم الجيشان، أقبل حامل لواء المشركين (طلحة بن أبي طلحة العبدري) راكبًا على جمل ضخم، وكان أعظم فارس في جيش الكفار لدرجة أنه كان يلقب بـ(كبش الكتيبة) لشدة بأسه وضراوته في القتال، فدعا إلى البراز، فأحجم عنه الناس، فبرز إليه الزبير ﷺ، وتقدم يمشي إليه واثق الخطوات، فما أن وصل إليه وأصبح أمام الجمل، حتى قفز الزبير كالنمر حتى صار معه على جمله، فجذبه بذراعيه حتى اقتحم به الأرض، فألقاه عنه، ثم ذبحه بسيفه!.

فما كان إلا الليث أنهضه الطوى وما كان إلا السيف فارقه الغمد

والنبي ينظر إليه بكل فخر، مرددًا مع المسلمين بجهر: الله أكبر[2].

**المشهد الرابع: في يوم الخندق..**

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: اشْتَدَّ الْأَمْرُ يَوْمَ الْخَنْدَقِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ بَنِي قُرَيْظَةَ؟"، فَانْطَلَقَ الزُّبَيْرُ، فَجَاءَ بِخَبَرِهِمْ، ثُمَّ اشْتَدَّ الْأَمْرُ أَيْضًا، فَذَكَرَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، - وفي كل مرة ينطلق الزبير ويجيء بخبر القوم - فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ، وَإِنَّ حَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ"![3].

---

١- رواه البخاري (٣٧٧٦).

٢- حياة الصحابة (٢/١٦٤).

٣- رواه البخاري (٢٦٩١) ومسلم ٦٣٢٢-(٤٨-٢٤١٥) وأحمد (١٤٣٧٥) واللفظ له.

وصدق علي حين قال: أشجع الناس الزبير، ... ولا يعرف قدر الرجال إلا الرجال.

وحسبه قول الثوري: نجدةُ الصحابة: حمزة وعلي والزبير![1].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: كُنْتُ يَوْمَ الأَحْزَابِ جُعِلْتُ أَنَا وَعُمَرُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ فِي النِّسَاءِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا أَنَا بِالزُّبَيْرِ، عَلَى فَرَسِهِ، يَخْتَلِفُ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا، فَلَمَّا رَجَعْتُ قُلْتُ: يَا أَبَتِ رَأَيْتُكَ تَخْتَلِفُ؟ قَالَ: أَوَهَلْ رَأَيْتَنِي يَا بُنَيَّ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "مَنْ يَأْتِي بَنِي قُرَيْظَةَ فَيَأْتِينِي بِخَبَرِهِمْ؟"، فَانْطَلَقْتُ، فَلَمَّا رَجَعْتُ جَمَعَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَوَيْهِ فَقَالَ: "فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي"![2].

الله أكبر .. منقبة ما بعدها منقبة، وشرف لا يدانيه شرف

وكذلك في يوم الخندق، يقول عبد الرحمن بن أبي الزّناد: ضرب الزُّبَيْرُ بن العوّام يوم الخَنْدَق عثمانَ بنَ عبد الله بن المغيرة بالسيف عَلَى مِغْفَرِه فَقَدَّه إلى القُرْبُوس، - مقدم السرج ومؤخره - فقالوا: مَا أَجْوَدَ سيفك!، فغضب الزبير، يريد أنَّ العملَ ليده لا لسيفه[3].

**المشهد الخامس: في يوم حنين..**

لما انهزَمَتْ هوازنُ في الغزوة ذَهَبَتْ فرقةٌ منهُم، بما فيهم مَلِكُهُم مالكُ بنُ عوفٍ النصريِّ، إلى الطائف ليتَحَصَّنُوا بها، بينما توجَّهَ بنو غيرةَ من قبيلةِ ثقيفٍ نحو نخلةٍ، وسارتْ فرقةٌ أخرَى فتَحَصَّنُوا بمكانٍ يقالُ لهُ أوطاس...

وبينَمَا وَقَفَ مَلِكُهُمْ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ النَّصْرِيُّ عَلَى ثَنِيَّةٍ مَعَ طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ قَائِلًا لَهُم: قِفُوا حَتَّى تَجُوزَ ضُعَفَاؤُكُمْ وَتَلْحَقَ أُخْرَاكُمْ، إذ طَلَعَتْ خَيْلٌ وَمَالَكٌ وَأَصْحَابُهُ عَلَى الثَّنِيَّةِ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ مَاذَا تَرَوْنَ؟ قَالُوا نَرَى قَوْمًا وَاضِعِي رِمَاحِهِمْ بَيْنَ آذَانِ خَيْلِهِمْ

١- تاريخ الإسلام (٢٠٦/٣).

٢- رواه البخاري (٣٥١٥) ومسلم ٦٣٢٤-(٤٩-٢٤١٦) وأحمد (١٤٢٣).

٣- رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٨٠/١٨) لكنه ضعيف الإسناد.

طَوِيلَةً بِوَادُّهُمْ، فَقَالَ هَؤُلَاءِ بَنُو سُلَيْم وَلَا بَأْسَ عَلَيْكُمْ مِنْهُمْ، فَلَمَّا أَقْبَلُوا سَلَكُوا بَطْنَ الْوَادِي، ثُمَّ طَلَعَتْ خَيْلٌ أُخْرَى تَتْبَعُهَا فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ مَاذَا تَرَوْنَ؟ قَالُوا نَرَى قَوْمًا عَارِضِي رِمَاحِهِمْ أَغْفَالًا عَلَى خَيْلِهِمْ، فَقَالَ هَؤُلَاءِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ وَلَا بَأْسَ عَلَيْكُمْ مِنْهُمْ، فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَى أَصْلِ الثَّنِيَّةِ سَلَكُوا طَرِيقَ بَنِي سُلَيْم، ثُمَّ طَلَعَ فَارِسٌ فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ مَاذَا تَرَوْنَ؟ فَقَالُوا نَرَى فَارِسًا طَوِيلَ الْبَادِّ وَاضِعًا رُمْحَهُ عَلَى عَاتِقِهِ عَاصِبًا رَأْسَهُ بِمُلَاءَةٍ حَمْرَاءَ، قَالَ: هَذَا الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ وَأُقْسِمُ بِاللَّاتِ لَيُخَالِطَنَّكُمْ فَاثْبُتُوا لَهُ، فَلَمَّا انْتَهَى الزُّبَيْرُ إِلَى أَصْلِ الثَّنِيَّةِ أَبْصَرَ الْقَوْمَ فَصَمَدَ لَهُمْ فَلَمْ يَزَلْ يُطَاعِنُهُمْ حَتَّى أَزَاحَهُمْ عَنْهَا![1].

من أجل ذلك وغير ذلك، لما جاء رجل إلى علي بن أبي طالب، وهو في مسجد رسول الله ﷺ فقال له: يا أبا الحسن، من أشجع الناس؟ فقال له: ذاك الذي يغضب غضب النمر، ويثب وثوب الأسد، وأشار إلى الزبير!.

**المشهد السادس: في يوم اليرموك..**

هناك حيث يتعجب الروم من فارس ملثم يتقدم وحده بفرسه قبل بدء المعركة كالصقر الكاسر، ليخترق جيش الرومان بفرسه، وفي يده اليمنى سيف، وفي يده اليسرى سيف آخر يحارب بهما معًا!.

لتتطاير رؤوس الروم عن اليمين وعن الشمال، لقد كان هذا الفارس الملثم هو الزبير بن العوام!.

عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالُوا لِلزُّبَيْرِ يَوْمَ اليَرْمُوكِ: أَلَا تَشُدُّ فَنَشُدَّ مَعَكَ؟ فَقَالَ: إِنِّي إِنْ شَدَدْتُ كَذَبْتُمْ، فَقَالُوا: لاَ نَفْعَلُ، فَحَمَلَ عَلَيْهِمْ حَتَّى شَقَّ صُفُوفَهُمْ، فَجَاوَزَهُمْ وَمَا مَعَهُ أَحَدٌ، ثُمَّ رَجَعَ مُقْبِلًا، فَأَخَذُوا بِلِجَامِهِ، فَضَرَبُوهُ ضَرْبَتَيْنِ

---

١- البداية والنهاية (٤/٣٣٧).

عَلَى عَاتِقِه، بَيْنَهُمَا ضَرْبَةٌ ضُرِبَهَا يَوْمَ بَدْرٍ، قَالَ عُرْوَةُ: كُنْتُ أُدْخِلُ أَصَابِعِي فِي تِلْكَ الضَّرَبَاتِ أَلْعَبُ وَأَنَا صَغِيرٌ، قَالَ عُرْوَةُ: وَكَانَ مَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ يَوْمَئِذٍ وَهُوَ ابْنُ عَشْرِ سِنِينَ فَحَمَلَهُ عَلَى فَرَسٍ وَوَكَّلَ بِهِ رَجُلا[1].

ويا لروعة إقدام الزبير حين يحجم الأبطال من صحابة رسول الله ﷺ، ولا يصبرون معه[2].

وهذا ابن كثير يروي بطولته يوم اليرموك قائلًا:

وَقَدْ كَانَ فِيمَنْ شَهِدَ الْيَرْمُوكَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ، وَهُوَ أَفْضَلُ مَنْ هُنَاكَ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَكَانَ مِنْ فُرْسَانِ النَّاسِ وَشُجْعَانِهِمْ، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَبْطَالِ يَوْمَئِذٍ فَقَالُوا: أَلَا تَحْمِلُ فَنَحْمِلَ مَعَكَ؟

فَقَالَ: إِنَّكُمْ لَا تَثْبُتُونَ، فَقَالُوا: بَلَى! فَحَمَلَ وَحَمَلُوا فَلَمَّا وَاجَهُوا صُفُوفَ الرُّومِ أَحْجَمُوا وَأَقْدَمَ هُوَ فَاخْتَرَقَ صُفُوفَ الرُّومِ حَتَّى خَرَجَ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ وَعَادَ إِلَى أَصْحَابِهِ. ثُمَّ جَاءُوا إِلَيْهِ مَرَّةً ثَانِيَةً فَفَعَلَ كَمَا فَعَلَ فِي الْأُولَى، وَجُرِحَ يَوْمَئِذٍ جُرْحَيْنِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ[3].

وفي موضع آخر: وَخَرَجَ مَعَ النَّاسِ إِلَى الشَّامِ مُجَاهِدًا فَشَهِدَ الْيَرْمُوكَ فَتَشَرَّفُوا بِحُضُورِهِ، وَكَانَتْ لَهُ بِهَا الْيَدُ الْبَيْضَاءُ وَالْهِمَّةُ الْعَلْيَاءُ، اخْتَرَقَ جيوش الروم وصفوفهم مَرَّتَيْنِ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ[4].

---

١- رواه البخاري (٣٧٥٦).

٢- علو الهمة للعفاني (٣/٣٢٠).

٣- البداية والنهاية (٧/١١).

٤- البداية والنهاية (٧/٢٤٨).

**المشهد السابع: في فتح مصر..**

لمَّا قصد عمرو بنُ العاصِ مصرَ لفتحها كان معه قواتٌ لم تكن كافيةً لفتحِهَا، فكتب إلى عمرَ بنِ الخطابِ يستمدُّهُ ويطلب المدد من الرجال، فأشفق عمر من قلة عدد قوات عمرو، فأرسل الزبيرَ بنَ العوام في اثني عشر ألفًا، وقيل: أرسل عمر أربعة آلاف رجل، عليهم من الصحابة الكبار: الزبير، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد، وقال آخرون: خارجة بن حذافة هو الرابع، وكتب إليه: إني أمددتك بأربعة آلاف، على كل ألفٍ منهم رجلٌ مقام ألف. وكان الزبير على رأس هؤلاء الرجال!.

وحين قَدِمَ الزبيرُ على عمروٍ، وجده محاصِرًا حصنَ (بابليون)، فلم يلبث الزبير أن ركب حصانه وطاف بالخندق المحيط بالحصن، ثم فرَّقَ الرجال حول الخندقِ، وطال الحصارُ حتى بلغت مدته سبعة أشهر، فقيل للزبير: إن بها الطاعون. فقال: إنا جئنا للطعن والطاعون!.

وأبطأ الفتح على عمرو بن العاص، فقال الزبيرُ: إني أهبُ نفسي لله، أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين، فوضع سُلَّمًا وأسنده إلى جانب الحصنِ من ناحيةِ سوق الحمام ثم صَعد، وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعًا، فجعل يتسلق الحصن كأنه مارد يشق الأسوار شقًا بيديه، وما هي إلا ثوانٍ معدودة حتى أصبح ذلك الأسطورةُ فوق أعلى نقطة في الحصن، وعند هذه اللحظة رفع هذا البطل سيفهُ في عنانِ السماءِ وصاح بصوتٍ زلزل الأرض كهزيم الرعد: الله أكبر!.

وما شَعَرَ المسلمون إلا والزبيرُ على رأس الحصن يكبر ومعه السيف، فتحامل الناس على السُّلم حتى نهاهم عمرو؛ خوفًا من أن ينكسِر، فلما رأى الرومُ أن العربَ قد ظفروا بالحصن انسحبوا وهرعوا من ثكناتهم من هول هذا المنظر العجيب،

وبذلك فَتَحَ حصنُ (بابليون) أبوابه للمسلمين، فانتهت بفتحه المعركة الحاسمة لفتح مصر، وكانت شجاعةُ الزبيرِ النادرة السببَ الرئيسَ المباشرَ لانتصارِ المسلمين على المقوقس[1].

وبعد ... فما ذكرناه من هذه المشاهد ما هو إلا غيضٌ من فيضِ أسطورةٍ حقيقيةٍ لفارسٍ أسطوريٍّ حقيقيّ، هو الزبيرُ بن العوام حواريُّ النبيّ ﷺ[2].

obeikandl.com

١- قادة فتح الشام ومصر (٢٠٨-٢٢٧)، أسمى المطالب (٦٠٨/١).

٢- انظر: فرسان النهار من الصحابة الأخيار للعفاني.

# خولة بنت الأزور
## (المرأة الأسطورية)

عاديٌّ أن تجد أسطورةً من الرجال في القتال والبطولة والشجاعة، بل إن هذا هو الأصل، أما الغريب أن تجد أسطورةً من النساء كذلك في القتال والحرب والبطولة والكرِّ والإقدام...

نعم يوجد أساطيرٌ من هذا النوع في النساء، ولكن عش معي هذه القصة وكأنك لم تعرِف ذلك، أو كأني لم أذكر اسم أسطورتنا، ولم أذكر هذه المقدمة..

في فتح دمشق.. لمَّا أُسِرَ الأسطورة ضرار بن الأزور، ووصل الخبر إلى خالد، أرسل إلى أبي عبيدة يستشيره في ذلك، فبعث إليه أبو عبيدة يقول له: اترك على الباب الشرقي من تثق به وسر إليهم فإنك تطحنهم بإذن الله تعالى، فلما وصل الجواب إلى خالد قال: والله ما أنا ممن يبخل بنفسه في سبيل الله، ثم أوقف بالمكان ميسرة بن مسروق العبسي ﷺ ومعه ألف فارس، وقال له: احذر أن تنفذ من مكانك، فقال ميسرة: حبًا وكرامة، وعطف خالد بالناس وقال لهم: أطلقوا الأعنَّة وقوموا الأسنَّة، فإذا أشرفتم على العدو فاحملوا حملة واحدة ليخلص فيها ضرار إن شاء الله تعالى إن كانوا أبقوا عليه، والله إن كانوا عجلوا عليه – قتلوه – لنأخذن بثأره إن شاء تعالى، وأرجو أن لا يُفجِعَنَا به، ثم تقدم أمام القوم وجعل يقول:

اليومُ يومٌ فاز فيه من صدق، لا أرهب الموت إذا الموت طرق

لأروينَّ الرمح من ذوي الحَدَق، لأهتكنَّ البيض هتكًا والدرق

فبينما خالد يترنم بهذه الأبيات، إذ نظر إلى فارسٍ على فرسٍ طويل وبيده رمح طويل وهو لا يَبِيْنُ منه إلا الحَدَق - العينين -، والفروسية تلوح من شمائله، وعليه ثياب سود وقد تظاهر بها من فوق لامته، وقد خرم وسطه بعمامة خضراء وسحبها على صدره ومن ورائه، وقد سبق أمام الناس كأنه نار، فلما نظره خالد قال: ليت شعري من هذا الفارس، وايم الله إنه لفارس شجاع، ثم اتبعه خالد والناس، وكان هذا الفارس أسبق الناس المشاركين. وكان رافع بن عميرة الطائي ﷺ في قتال المشركين وقد صبر لهم هو ومن معه إذ نظر خالدًا وقد أنجده هو ومن معه من المسلمين، ونظر إلى الفارس الذي وصفناه وقد حمل على عساكر الروم كأنه النار المحرقة، فزعزع كتائبهم وحطم مواكبهم، ثم غاب في وسطهم فما كانت إلا جولة الجائل حتى خرج وسنانه ملطخ بالدماء من الروم، وقد قتل رجالًا وجندل أبطالًا، وقد عرَّضَ نفسه للهلاك، ثم اخترق القوم غير مكترث بهم ولا خائف، وعطف على كراديس الروم في الناس، وكثُر قلقهم عليه، فأما رافع بن عميرة ومن معه فما ظنوا إلا أنه خالد وقالوا: ما هذه الحملات إلا لخالد، فَهُم على ذلك إذ أشرف عليهم خالد ﷺ وهو في كبكة من الخيل، فقال رافع بن عميرة: من الفارس الذي تقدم أمامك فلقد بذل نفسه ومهجته؟ فقال خالد: والله إنني أشد إنكارًا منكم له - أي لا يعرفه -، ولقد أعجبني ما ظهر منه ومن شمائله، فقال رافع: أيها الأمير إنه منغمس في عسكر الروم يطعن يمينًا وشمالًا.

فقال خالد: معاشر المسلمين، احملوا بأجمعكم وساعدوا المحامي عن دين الله، فأطلقوا الأعنة وقوموا الأسنة، والتصق بعضهم ببعض وخالد أمامهم، إذ نظر إلى الفارس وقد خرج من القلب كأنه شعلة نار والخيل في أثره، وكلما لحقت به الروم

لوى عليهم وجندل، فعند ذلك حمل خالد ومن معه، ووصل الفارس المذكور إلى جيش المسلمين، فتأملوه فرأوه قد تخضَّبَ بالدماء، فصاح خالد والمسلمون: لله درك من فارس بذل مهجته في سبيل الله وأظهر على الأعداء، اكشف لنا عن لثامك، فمال عنهم ولم يخاطبهم وانغمس في الروم، فتصايحت به الروم من كل جانب وكذلك المسلمون وقالوا: أيها الرجل الكريم، أميرك يخاطبك وأنت تُعْرِضُ عنه!، اكشف عن اسمك وحسبك لتزداد تعظيمًا، فلم يردَّ عليهم جوابًا، فلما بعد عن خالد سار إليه بنفسه وقال له: ويحك لقد شغلتَ قلوب الناس وقلبي بفعلك، من أنت؟ فلما لَجَّ - أكثر - عليه خالد، خاطبه الفارس من تحت لثامه بلسان التأنيث وقال: إنني يا أمير لم أُعْرِض عنك إلا حياء منك، لأنك أمير جليل، وأنا من ذوات الخدور، وبنات الستور، وإنما حملني على ذلك أني محرقة الكبد، زائدة الكمد، فقال لها: من أنت؟ قالت: أنا خولة بنت الأزور المأسورُ بيدِ المشركين أخي وهو ضرار، وإني كنت مع بنات العرب وقد أتاني الساعي بأن ضرارًا أسير، فركبت وفعلت ما فعلت!.

قال خالد: نحمل بأجمعنا ونرجو من الله أن نصل إلى أخيك فنفكه، قال عامر بن الطفيل كنت عن يمين خالد بن الوليد حين حملوا، وحملت خولة أمامه، وحمل المسلمون وعظم على الروم ما نزل بهم من خولة بنت الأزور، وقالوا: إن كان القوم كلهم مثل هذا الفارس فما لنا بهم من طاقة!.

ولما حمل خالد ومن معه إذا بالروم قد اضطربت جيوشهم ونظر وردان إليهم فقال لهم: اثبتوا للقوم، فإذا رأوا ثباتكم ولَّوا عنكم، ويخرج أهل دمشق يعينونكم على قتالهم، فثبت المسلمون لقتال الروم، وحمل خالد بالناس حملةً منكرةً وفرق القوم يمينًا وشمالًا، وقصد خالد مكان صاحبهم وردان عند اشتباك الأعلام والصلبان

وإذا حوله أصحاب الحديد والزرد النضيد وهم محدقون به، فحمل خالد عليهم حملة منكرة واشتبك المسلمون بقتال الروم وكل فرقة مشغولة بقتال صاحبها، وأما خولة بنت الأزور فإنها جعلت تجول يمينًا وشمالًا وهي لا تطلب إلا أخاها وهي لا ترى له أثرًا ولا وقفت له على خبر إلى وقت الظهر، وافترق القوم بعضهم عن بعض وقد أظهر الله المسلمين على الكافرين وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وتراجعت كل فرقة إلى مكانها، وقد كمدت أفئدة الروم ما ظهر لهم من المسلمين، وقد هموا بالهزيمة وما يمسكهم إلا الخوف من صاحبهم وردان، فلما رجع القوم إلى مكانهم أقبلت خولة بنت الأزور على المسلمين وجعلت تسألهم رجلًا رجلًا عن أخيها، فلم تر من المسلمين من يخبرها أنه نظره أو رآه أسيرًا أو قتيلًا، فلما يئست منه بكت بكاءً شديدًا وجعلت تقول: يا ابن أمي ليت شعري، في أي البيداء طرحوك؟ أم بأي سنان طعنوك؟ أم بالحسام قتلوك؟ يا أخي أختك لك الفداء، لو أني أراك أنقذتك من أيدي الأعداء، ليت شعري، أترى أني أراك بعدها أبدا؟ فقد تركت يا ابن أمي في قلب أختك جمرة لا يخمد لهيبها ولا يُطفا، ليت شعري، لحقت بأبيك المقتول بين يدي النبي ﷺ، فعليك مني السلام إلى يوم اللقاء، فبكى الناس من قولها وبكى خالد وهم أن يعاود بالحملة إذ نظر إلى كردوس من الروم قد خرج من ميمنة العقبان فتأهب الناس لحربهم وتقدم خالد وحوله أبطال المسلمين، فلما قربوا من القوم رموا رماحهم من أيديهم والسيوف وترجلوا ونادوا بالأمان، فقال خالد: اقبلوا أمانهم وائتوني بهم، فأتوا إليه فقال خالد: من أنتم فقالوا: نحن من جند هذا الرجل وردان ومقامنا بحمص، وقد تحقق عندنا أنه ما يطيقكم ولا يستطيع حربكم فأعطونا الأمان واجعلونا من جملة من صالحتم من سائر المدن حتى نؤدي لكم المال الذي أردتم في كل سنة فكل من في حمص يرضي بقولنا.

فقال خالد: إذا وصلت إلى بلادكم يكون الصلح إن شاء الله تعالى إن كان لكم فيه أرب ولكن نحن ههنا لا نصالحكم ولكن كونوا معنا إلى أن يقضي الله ما هو قاض، ثم إن خالدًا قال لهم: هل عندكم علم عن صاحبنا الذي قتل ابن صاحبكم؟ قالوا: لعله عاري الجسد الذي قتل منا مقتله عظيمة وفجع صاحبنا في ولده؟ قال خالد: عنه سألتكم، قالوا: بعثه وردان عندنا أسيرًا على بغل ووكل به مائة فارس، وأنفذه إلى حمص ليرسله إلى الملك ويخبره بما فعل، ففرح خالد بقولهم، ثم دعا برافع بن عميرة الطائي وقال: يا رافع ما أعلم أحدًا أخبر منك بالمسالك، وأنت الذي قطعت بنا المفازة من أرض السماوة وأعطشت الإبل وأوردتها الماء – حتى تشرب ماء كثيرًا وتحفظه –، وأوردتنا أركة شجرة – آراك كان تحتها الماء – وما وطئها جيش قبلنا لمفازتها وأنت أوحد أهل الأرض في الحيل والتدبير، فخذ معك من أحببت واتبع أثر القوم فلعلك أن تلحق بهم وتخلص صاحبنا من أيديهم، فلئن فعلت ذلك لتكونن الفرحة الكبرى، فقال رافع بن عميرة: حبًا وكرامة، ثم إنه في الحال انتخب مائة فارس شدادًا من المسلمين وعزم على المسير فأتت البشارة إلى خولة بمسير رافع بن عميرة ومن معه في طلب أخيها ضرار، ففرحت وأسرعت إلى لبس سلاحها، وركبت جوادها وأتت إلى خالد بن الوليد ثم قالت له: أيها الأمير سألتك بالطاهر المطهر محمد سيد البشر إلا ما سرَّحتني مع من سرَّحت فلعلي أن أكون مشاهدة لهم! فقال خالد لرافع: أنت تعلم شجاعتها فخذها معك، فقال له: رافع السمع والطاعة، وارتحل رافع ومن معه، وسارت خولة في أثر القوم ولم تختلط بهم، وسار إلى أن قرب من سليمة فنظر رافع فلم يجد للقوم أثرًا، فقال لأصحابه: أبشروا فإن القوم لم يصلوا إلى ههنا، ثم إنه كمن بهم في وادي الحياة فبينما هم كامنون إذا بغبرة قد لاحت فقال رافع لأصحابه: أيقظوا

خواطركم وانتبهوا فأيقظ القوم هممهم وبقوا في انتظار العدو، وإذا بهم قد أتوا وهم محدقون بضرار فلما رأى رافع ذلك كبر وكبر المسلمون معه وحملوا عليهم فلم يكن غير ساعة حتى خلص الله ضرارًا وقتلوهم جميعًا وأخذوا سلبهم وهزموهم، وفرح المسلمون بضرار، كما فرحت به أخته الأسطورة، خولة بنت الأزور[1].

ولما هجم الروم على أبي عبيدة بن الجراح ﷺ وكان على الساقة ومعه النساء والصبيان، اقتطعوا قطعة من القوم، فأسروا بعض النساء، وكانت خولة بنت الأزور فيمن أُسِر من النساء، فسار بهم بطرس أخو بولص إلى أن نزل بهم إلى النهر، ثم قال بطرس: أنا لا أبرح من ههنا حتى أنظر ما يكون من أمر أخي، ثم إنه عرض عليه النساء المأسورات فلم يعجبه منهن إلا خولة بنت الأزور، قال بطرس: هذه لي وأنا لها لا يعارضني فيها أحد، فقال له أصحابه: هي لك وأنت لها، وكل من سبق إلى واحدة يقول: هي لي، حتى قسموا الغنيمة على ذلك ووقفوا ينتظرون ما يكون من أمر بولص وأصحابه، وكان في النساء عجائز من حمير وتبع من نسل العمالقة والتبابعة وكن قد اعتدن ركوب الخيل، فقالت لهن خولة بنت الأزور: يا بنات حمير بقية تبع، أترضين بأنفسكن علوج الروم ويكون أولادكن عبيدًا لأهل الشرك؟! فأين شجاعتكن وبراعتكن التي نتحدث بها عنكن في أحياء العرب ومحاضر الحضر؟! ولا أراكن إلا بمعزل عن ذلك، وإني أرى القتل عليكن أهون من هذه المصائب وما نزل بكم من خدمة الروم الكلاب.

فقالت عفرة بنت غفار الحميرية: صدقت، ووالله يا بنت الأزور نحن في الشجاعة كما ذكرتِ، وفي البراعة كما وصفتِ، لنا المشاهد العظام، والمواقف الجسام، ووالله

---

١- فتوح الشام (١/٤٠ : ٤٣).

لقد اعتدنا ركوب الخيل، وهجوم الليل، غير أن السيف يحسُن فعله في مثل هذا الوقت، وإنما دهمنا العدو على حين غفلة وما نحن إلا كالغنم، فقالت خولة: يا بنات التبابعة والعمالقة، خذوا أعمدة الخيام وأوتاد الأطناب ونحمل بها على هؤلاء اللئام فلعل الله ينصرنا عليهم أو نستريح من معرة العرب، فقالت عفرة بنت غفار: والله ما دعوت إلى ما هو أحب إلينا مما ذكرتِ، ثم تناولت كل واحدةٍ عمودًا من أعمدة الخيام، وصحن صيحةً واحدةً، وألقت خولة على عاتقها عمود الخيمة، وسعت من ورائها عفرة وأم أبان بنت عتبة وسلمة بنت زراع ولبنى بنت حازم ومزروعة بنت عملوق وسلمة بنت النعمان ومثل هؤلاء رضي الله عنهن، فقالت لهن خولة: لا ينفك بعضكن عن بعض، وكُنَّ كالحلقة الدائرة ولا تتفرقن فتُمْلَكْن فيقع بكن التشتيت، وحطمنَّ رماح القوم واكسرن سيوفهن، فهجمت خولة أمامهن، فأول ما ضربت رجلًا من القوم على هامته بالعمود فتجندل صريعًا، والتفت الروم ينظرون ما الخبر، فإذا هم بالنسوة وقد أقبلن والعُمُدُ بأيديهن، فصاح بطريق: يا ويلكنَّ ما هذا فقالت عفرة: هذه فعالنا، فلنضربنَّ بالقوم بهذه الأعمدة، ولا بد من قطع أعماركم وانصرام أجالكم يا أهل الكفر، فجاء بطرس وقال: تفرقوا عن النسوة ولا تبذلوا فيهن السيوف ولا أحد منكم يقتل واحدة منهن وخذوهن أسارى ومن وقع منكم بصاحبتي فلا ينلها بمكروه، فتفرق القوم عليهن وحدَّقوا بهن من كل جانب وراموا الوصول إليهن فلم يجدوا إلى ذلك سبيلًا، ولم تزل النساء لا يدنوا إليهن أحد من الروم إلا ضربن قوائم فرسه فإذا تكس عن جواده بادرت النساء بالأعمدة فيقتلنه ويأخذن سلاحه.

قال الواقدي: ولقد بلغني أن النسوة قتلن ثلاثين فارسًا من الروم، فلما نظر بطرس إلى ذلك غضب غضبًا شديدًا وترجل وترجلت أصحابه نحو النساء، والنساء

يحرض بعضهن بعضًا ويقلن متنَ كِرامًا ولا تمتن لئامًا، وأظهر بطرس رأسه وتلهف عندما نظر إلى فعلهن، ونظر إلى خولة بنت الأزور وهي تجول كالأسد وتقول:

نحن بنات تبع وحِمْيَر، وضربنا في القوم ليس يُنْكَر

لأننا في الحرب نار تسعَّر، اليوم تُسْقَونَ العذاب الأكبر

فلما سمع بطرس ذلك من قولها ورأى حسنها وجمالها قال لها: يا عربية أقصري عن فعالك فإني مكرمك بكل ما يسركِ، أما ترضين أن أكون أنا مولاكِ، وأنا الذي تهابني أهل النصرانية ولي ضياع ورساتيق وأموال ومواشي ومنزلة عند الملك هرقل وجميع ما أنا فيه مردود إليكِ، أما ترضين أن تكوني سيدة أهل دمشق!، فلا تقتلي نفسك، فقالت له: يا ملعون ويا ابن ألف ملعون والله لئن ظفرت بك لأقطعن رأسك، والله ما أرضى بك أن ترعى لي الإبل، فكيف أرضاك أن تكون لي كفؤًا، فلما سمع كلامها حرض أصحابه على القتال وقال: أترون عارًا أكبر من هذا في بلاد الشام أن النسوة غلبنكم فانتقوا غضب الملك، فافترق القوم وحملوا حملة عظيمة وصبر النساء لهم صبر الكرام، فبينما هم على ذلك إذ أشرفت عليهم المواكب والكتائب والأعلام والرايات، فصاحت خولة: يا بنات التبابعة قد جاءكم الفرج ورب الكعبة، ونظر بطرس إلى الكتائب المحمدية وقد أشرفت فخفق فؤاده وارتعدت فرائصه، وأراد الهرب، فتقدم إليه خالد بن الوليد وضرار بن الأزور يقودان المسلمين، فضربت خولة قوائم فرسه، فكبا به الجواد وقتله ضرار، وكانت خولة قد قتلت وحدها، خمسةً من الروم يومها[1]!.

---

١- فتوح الشام (١/٤٧ : ٥٠).

فلله درك يا خولة، يا من كنت بمائة رجل، بل إن شئت قل بألف رجل..

ولله درُّ من قال:

فلو كان النساء كمثل هذي ... لفُضِّلَت النساء على الرجال

وما التأنيث لاسم الشمسِ عيبٌ ... ولا التذكيرُ فخرٌ للهلال

obeikandl.com

obeikandl.com

# ساموري توري
## (الإمام الأسطورة)

«فليعلم الغرب الكافر أن لا أثمن وأغلى عند المسلم من دينه، وأنهم لن يمنعونا الجهاد بسلبهم عقول أبنائنا، ولسوف نذبحهم بأيدينا قبل الخروج للجهاد ضد الكفار، حتى لا يكون هناك شيء أحب إلينا من الله ورسوله ودينه».

ساموري توري

بهذه الكلمات الخالدة لهذا الأسطورة أبدأ حديثي عنه لتقفوا على شيءٍ من عظمته، وبها كذلك أختم الحديث ذاكرًا قصة هذه الكلمات...

يُعدُّ ساموري توري من الزعماء الأفارقة المسلمين الذين لعبوا دورًا مهمًا في غرب القارة قبل الاستعمار وبعده، وقد استمر يحارب الغزاة الاستعماريين حوالي سبعة عشر عامًا.

ولد ساموري توري عام ١٨٣٥م في سانكورو في جمهورية غينيا كوناكري، وهو ينتمي إلى مجتمع الديولا التجاري، ولما بلغ سنة السابعة ذهب للعيش مع خالته على بعد عشرين ميلًا في إحدى القرى المجاورة، وعندما بلغ ١٨ عامًا أرسله أبوه إلى صديق له بدولة ساحل العاج ليتعلم تجارة السلاح، ومن خلال ذلك عرف ساموري أماكن الحصول على السلاح؛ فبدأ يفكر في بناء إمبراطوريته، ومن خلال هذه المرحلة سافر إلى عدة مناطق في غرب إفريقيا فاطلع على نظام حياة عدة مجتمعات هناك.

وفي عام ١٨٥٢م أُسِرَت والدته من قبل ملك بيساندوجو الوثني وعند سماعه هذا الخبر أخذ يفكر في أفضل الطرائق لإنقاذ والدته من الأسر، وقرر خدمة ذلك الملك لسبع سنوات مقابل الإفراج عن والدته، ومن خلال تلك المرحلة استطاع أن يتعلم طرق الدبلوماسية بالإضافة إلى تدربه على فن قيادة الإغارة والحروب.

كوَّنَ ساموري جماعة تولى رئاستها بنفسه وأقسم على بناء دولة إسلامية في تلك المنطقة ثم قام ساموري بتدريب رجاله على فنون القتال وتم تسليحهم، ومن ثم بدأ نفوذه يمتد!.

في عام ١٨٧٤م بدأ الغزوَ التدريجي لكل القرى المجاورة لعاصمته، وتحالف مع المسلمين في مدينة كانكان، وبهذا استطاع أن يهزم جماعات مهمة من القبائل، وازدادت سيطرته على كافة فوتاجالون، ونجح في تحطيم كل القوى المنافسة له، وصار أكبر قائد لإمبراطورية إسلامية عرفها شعب المالينك!.

في الخامس والعشرين من يوليو سنة ١٨٧٤م جمع ساموري توري أهله في احتفال وأعلن لهم أنه سيلقب نفسه بلقب (الإمام)، وطلب من أهله ورعاياه أن يعتنقوا الإسلام، وفي نوفمبر من العام نفسه منع الخمر شربًا وبيعًا في مملكته، ومنع العادات الوثنية، وبدأ في تطبيق الشريعة الإسلامية.

وتفاصيل إنشائه الدولة ومقاومته الجليلة - رحمه الله تعالى - للفرنسيين أنه اتخذ من بلدة بيساندوجو عاصمة لملكه، وأقامها على الجهاد في سبيل الله تعالى وأحكام الشريعة الإسلامية، وهذا ما أكسبه حيوية وطاقة متجددة لا تنضب، واضطر أن يهادن جيرانه من الإنجليز حتى لا يفتح عليه بابًا ثالثًا هو في غنى عنه فيكفيه أعداءه.

كان عامة جيش ساموري توري من المشاة وقليل منهم من الفرسان، وسلَّحَهُم بأسلحة أوروبية حديثة كان يشتريها من البريطانيين في فريتون مقابل بيع الذهب والعاج وأسرى الحروب، وكان حرسه الشخصي مكونًا من ٥٠٠ رجل، وكان لأخيه مالنكي تورو قوة خاصة تقدر بمائتي فارس وألف راجل.

كان الفرنسيون قد عزموا على الاستيلاء على كل المنطقة التي يجري فيها نهر النيجر، فأتاهم الله بهذا البطل ساموري توري الذي كبدهم من الخسائر في الأموال والرجال ما لم يتوقعوه، حتى أن بيروز وهو من كبار عساكر الفرنسيين لقبه بـ(نابليون السودان)، وهذا البطل العظيم هو في الحقيقة فوق هذا اللقب بكثير، فقد دوَّخ الفرنسيين بجهاد جليل دام ثلاثة عشر عامًا بالرغم من بدائية أسلحته أمام آلة الحرب الفرنسية الجبارة، لكنه الإيمان إذا وقر في القلوب فلا يقوم أمامه شيء!.

أنشأ ساموري توري جيشًا قويًا نسبيًا قسمه ثلاثة أقسام، على النحو التالي:

أفضلها وأعظمها قوة جعلها قائمة في وجه الفرنسيين ليمنعهم من التدخل في البلاد.

والقسم الثاني جعله لحفظ الأمن في بلاده.

والقسم الثالث جعله للتوسعات والفتوحات الجديدة للقضاء على الوثنية ونشر الإسلام.

وبلغ من حرصه على جيشه أنه استطاع أن يصنع بعض الأسلحة وقطع الغيار محليًا، وباقي الأسلحة يشتريها من مدينة فريتون بسيراليون.

وقد فرض ساموري توري على زعيم كل قرية أن يأتيه بمجموعة من الشباب الصالحين للجندية، وفي أوقات السلم كانت القوات الاحتياطية تُسرَّحُ ستة أشهر لتعمل

في فلاحة الأرض وإجراء المنافع، لتعود بعد ذلك، فإن كان في حاجة لها أبقاها وإلا سرَّحَها مدة أخرى وهكذا.

قسم ساموري توري بلاده تقسيمًا إداريًا منضبطًا إلى مائة واثنين وستين إقليم، في كل منه عشرون قرية على كل منها زعيم، وفوق الزعيم حاكم الإقليم، وفوق حكام الأقاليم الإمام الذي من مهامه نشر الإسلام والقضاء على الوثنية، وتقوية الدولة والمحافظة عليها.

وقد أكثر ساموري توري رحمه الله تعالى من بناء المدارس والمساجد، ونشر الوعاظ، واهتم بتحفيظ القرآن الكريم.

كان لرحلات ساموري الأولى التي بدأها من الدبولا أكبر الأثر في تأثره بحركة إحياء الإسلام المعاصرة، واكتسب تجربته الأولى عندما كان يعمل جنديًا في خدمة ملك الماندي، واكتسب كذلك خبرة في مجال التوسع، فحلم في فتح دولة إسلامية جديدة من بين دويلات الماندي الصغيرة الواقعة في الجنوب من أملاك الحاج عمر القوني. وتمكن ساموري من تأسيس نواة دولته في منتصف الستينات من القرن التاسع عشر الميلادي.

وبنى المساجد وطبق أحكام الشريعة الإسلامية على رعاياه. وسيطر على مصادر الذهب في البوري، ومد فتوحاته بهمة إلى النيجر، ودخل في حرب مع أحمد سيكو عام ١٨٨٤م. ومن المحتمل أن يكون قد شيد دولة جديدة في مالي، وكان عليه أن يواجه الاستعمار الفرنسي الذي قدم للاستيلاء على الموارد الكثيرة، ودخل معهم في مناوشات يسيرة في بادئ الأمر.

وفي الفترة ما بين ١٨٨٢/١٨٨٧م قدم الفرنسيون من جهة واحدة، وطلبوا عقد معاهدة لتحديد الحدود المشتركة بينه و بينهم. وكان الزحف الفرنسي مؤقتًا، ولكن في عام ١٨٩١م تصادموا مع بيساندوجو وأصبح على ساموري أن يتوجه إلى الشرق لمواجهتهم فيما يعرف في الوقت الحاضر بساحل العاج، كما كان عليه أن يتجه إلى الجنوب الغربي من غانا، ولكن في النهاية تمكنت فرنسا من الالتقاء معه مرة ثانية وأسَرَتْه، وكان ذلك عام ١٨٩٨م في الأثناء التي كان فيها مشغولًا بتشييد دولته الجديدة، ومات في المنفى عام ١٩٠٠م.

**قصة الكلمات والموقف العظيم...**

كان الأسطوري توري كما ذكرت مجاهداً ضد الإنجليز و الفرنسيين و البلجيك لمدة ٢٠ عامًا تقريبًا، ولما يأس منه المستخبر الغربي سرقوا ابنه و هو ابن ١٢ عامًا و أخذوه إلى بلادهم و علموه مبادئ العلمانية والعصرانية والانفتاح، ورجع لما كبر وأخذ يعلم أبناء بلدته والقرى المجاورة تلك الأفكار الغربية العفنة وأصبح ضد جهاد والده، فقام إليه أبوه و منعه ولكن الفتى الذي أصبح شابًا جامعيًا مثقفًا ومحاضرًا في جامعات بريطانيا وفرنسا يصرخ في الناس طالبًا منهم ترك مقاومة العلم والمدنية والتنوير، والاستسلام والخضوع لنبراس الحضارة والخروج من الظلام، فيقوم الأب المجاهد ساموري توري الزعيم الإسلامي لغينيا ومالي وكينيا وقتها وحامل لواء الجهاد بجمع الناس ويقوم محذرًا ولده أن ما يفعله خيانة للدين وللأمة وخذلان للمسلمين وكفاحهم وردة توجب القتل فيرفض الفتى نصيحة والده، فيقوم الأب بذبحه علي رؤوس الأشهاد ويقول بأعلى صوته:

«فليعلم الغرب الكافر أن لا أثمن وأغلى عند المسلم من دينه، وأنهم لن يمنعونا الجهاد بسلبهم عقول أبنائنا، ولسوف نذبحهم بأيدينا قبل الخروج للجهاد ضد الكفار، حتى لا يكون هناك شيء أحب إلينا من الله ورسوله ودينه»!.

هنا تجرد ساموري توري لله تعالى، وعَظُمَت عنده عقيدة الولاء والبراء، وقتل ولده في مشهد عام بين الناس حتى لا يؤثر على حركة الجهاد، متمثلاً قول الله تعالى: «لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ»[1].

ومُسْتَوعِبًا بحقٍّ قوله تعالى: «قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ»[2].

فلله درك أيها الإمام العظيم، ورحمك الله أيها الأسطورة المجاهد ساموري توري[3].

---

١- (المجادلة: ٢٢).

٢- (التوبة: ٢٤).

٣- انظر الموسوعة العربية العالمية (٣٠٦/٧:...).

# سلمة بن الأكوع

إنه المقاتل الأشجع، الذي كان يقاتل ويدفع، وهو من الخيل أسرع، الأسطورة سلمة بن الأكوع...

عَنْ إِيَاسِ بْنِ سَلَمَةَ، حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ: قَدِمْنَا الْحُدَيْبِيَةَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِئَةً، وَعَلَيْهَا خَمْسُونَ شَاةً لاَ تُرْوِيهَا، قَالَ: فَقَعَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى جَبَا الرَّكِيَّةِ، فَإِمَّا دَعَا، وَإِمَّا بَصَقَ فِيهَا، قَالَ: فَجَاشَتْ، فَسَقَيْنَا وَاسْتَقَيْنَا، قَالَ: ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَعَانَا لِلْبَيْعَةِ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ، قَالَ: فَبَايَعْتُهُ أَوَّلَ النَّاسِ، ثُمَّ بَايَعَ، وَبَايَعَ، حَتَّى إِذَا كَانَ فِي وَسَطٍ مِنَ النَّاسِ، قَالَ: "بَايِعْ يَا سَلَمَةُ"، قَالَ: قُلْتُ: قَدْ بَايَعْتُكَ يَا رَسُولَ اللهِ، فِي أَوَّلِ النَّاسِ، قَالَ: "وَأَيْضًا"، قَالَ: وَرَآنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ عَزِلاً، يَعْنِي لَيْسَ مَعَهُ سِلاَحٌ، قَالَ: فَأَعْطَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ حَجَفَةً، أَوْ دَرَقَةً، ثُمَّ بَايَعَ، حَتَّى إِذَا كَانَ فِي آخِرِ النَّاسِ، قَالَ: "أَلاَ تُبَايِعُنِي يَا سَلَمَةُ؟" قَالَ: قُلْتُ: قَدْ بَايَعْتُكَ يَا رَسُولَ اللهِ، فِي أَوَّلِ النَّاسِ، وَفِي أَوْسَطِ النَّاسِ، قَالَ: "وَأَيْضًا"، قَالَ: فَبَايَعْتُهُ الثَّالِثَةَ، ثُمَّ قَالَ لِي: "يَا سَلَمَةُ، أَيْنَ حَجَفَتُكَ، أَوْ دَرَقَتُكَ، الَّتِي أَعْطَيْتُكَ؟" قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَقِيَنِي عَمِّي عَامِرٌ عَزِلاً، فَأَعْطَيْتُهُ إِيَّاهَا، قَالَ: فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَقَالَ: «إِنَّكَ كَالَّذِي قَالَ الأَوَّلُ: اللَّهُمَّ أَبْغِنِي حَبِيبًا هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي»، ثُمَّ إِنَّ الْمُشْرِكِينَ رَاسَلُونَا الصُّلْحَ حَتَّى مَشَى بَعْضُنَا فِي بَعْضٍ، وَاصْطَلَحْنَا، قَالَ: وَكُنْتُ تَبِيعًا لِطَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ أَسْقِي فَرَسَهُ، وَأَحُسُّهُ، وَأَخْدِمُهُ، وَآكُلُ مِنْ طَعَامِهِ، وَتَرَكْتُ أَهْلِي وَمَالِي مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ، قَالَ: فَلَمَّا اصْطَلَحْنَا نَحْنُ وَأَهْلُ مَكَّةَ، وَاخْتَلَطَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ، أَتَيْتُ شَجَرَةً فَكَسَحْتُ شَوْكَهَا فَاضْطَجَعْتُ فِي

أَصْلِهَا، قَالَ: فَأَتَانِي أَرْبَعَةٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، فَجَعَلُوا يَقَعُونَ فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَبْغَضْتُهُمْ، فَتَحَوَّلْتُ إِلَى شَجَرَةٍ أُخْرَى، وَعَلَّقُوا سِلاَحَهُمْ وَاضْطَجَعُوا، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ نَادَى مُنَادٍ مِنْ أَسْفَلِ الْوَادِي، يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، قُتِلَ ابْنُ زُنَيْمٍ، قَالَ: فَاخْتَرَطْتُ سَيْفِي، ثُمَّ شَدَدْتُ عَلَى أُولَئِكَ الأَرْبَعَةِ وَهُمْ رُقُودٌ، فَأَخَذْتُ سِلاَحَهُمْ، فَجَعَلْتُهُ ضِغْثًا فِي يَدِي، قَالَ: ثُمَّ قُلْتُ، وَالَّذِي كَرَّمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ، لاَ يَرْفَعُ أَحَدٌ مِنْكُمْ رَأْسَهُ إِلاَّ ضَرَبْتُ الَّذِي فِيهِ عَيْنَاهُ، قَالَ: ثُمَّ جِئْتُ بِهِمْ أَسُوقُهُمْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: وَجَاءَ عَمِّي عَامِرٌ بِرَجُلٍ مِنَ الْعَبَلاَتِ، يُقَالُ لَهُ: مِكْرَزٌ يَقُودُهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى فَرَسٍ، مُجَفَّفٍ فِي سَبْعِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: دَعُوهُمْ، يَكُنْ لَهُمْ بَدْءُ الْفُجُورِ، وَثِنَاهُ، فَعَفَا عَنْهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾[1] الآيَةَ كُلَّهَا. قَالَ: ثُمَّ خَرَجْنَا رَاجِعِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَنَزَلْنَا مَنْزِلاً بَيْنَنَا وَبَيْنَ بَنِي لَحْيَانَ جَبَلٌ، وَهُمُ الْمُشْرِكُونَ، فَاسْتَغْفَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِمَنْ رَقِيَ هَذَا الْجَبَلَ اللَّيْلَةَ، كَأَنَّهُ طَلِيعَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، قَالَ سَلَمَةُ: فَرَقِيتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلاَثًا، ثُمَّ قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِظَهْرِهِ مَعَ رَبَاحٍ، غُلاَمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَنَا مَعَهُ، وَخَرَجْتُ مَعَهُ بِفَرَسِ طَلْحَةَ، أُنَدِّيهِ مَعَ الظَّهْرِ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْفَزَارِيُّ قَدْ أَغَارَ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاسْتَاقَهُ أَجْمَعَ، وَقَتَلَ رَاعِيَهُ، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَبَاحُ، خُذْ هَذَا الْفَرَسَ فَأَبْلِغْهُ طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللهِ، وَأَخْبِرْ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَدْ أَغَارُوا عَلَى سَرْحِهِ، قَالَ: ثُمَّ قُمْتُ عَلَى أَكَمَةٍ، فَاسْتَقْبَلْتُ الْمَدِينَةَ، فَنَادَيْتُ ثَلاَثًا: يَا صَبَاحَاهْ، ثُمَّ خَرَجْتُ فِي آثَارِ الْقَوْمِ أَرْمِيهِمْ بِالنَّبْلِ وَأَرْتَجِزُ، أَقُولُ:

أَنَا ابْنُ الأَكْوَعِ ... وَالْيَوْمُ يَوْمُ الرُّضَّعِ

---

١- (الفتح: ٢٤).

فَأَلْحَقُ رَجُلاً مِنْهُمْ فَأَصُكُّ سَهْمًا فِي رَحْلِهِ، حَتَّى خَلَصَ نَصْلُ السَّهْمِ إِلَى كَتِفِهِ، قَالَ: قُلْتُ: خُذْهَا.

وَأَنَا ابْنُ الأَكْوَعِ ... وَالْيَوْمُ يَوْمُ الرُّضَّعِ

قَالَ: فَوَاللَّهِ، مَا زِلْتُ أَرْمِيهِمْ وَأَعْقِرُ بِهِمْ، فَإِذَا رَجَعَ إِلَيَّ فَارِسٌ أَتَيْتُ شَجَرَةً، فَجَلَسْتُ فِي أَصْلِهَا، ثُمَّ رَمَيْتُهُ فَعَقَرْتُ بِهِ، حَتَّى إِذَا تَضَايَقَ الْجَبَلُ، فَدَخَلُوا فِي تَضَايُقِهِ، عَلَوْتُ الْجَبَلَ فَجَعَلْتُ أُرَدِّيهِمْ بِالْحِجَارَةِ، قَالَ: فَمَا زِلْتُ كَذَلِكَ أَتْبَعُهُمْ حَتَّى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ بَعِيرٍ مِنْ ظَهْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلاَّ خَلَّفْتُهُ وَرَاءَ ظَهْرِي، وَخَلَّوْا بَيْنِي وَبَيْنَهُ، ثُمَّ اتَّبَعْتُهُمْ أَرْمِيهِمْ حَتَّى أَلْقَوْا أَكْثَرَ مِنْ ثَلاَثِينَ بُرْدَةً ، وَثَلاَثِينَ رُمْحًا، يَسْتَخِفُّونَ وَلاَ يَطْرَحُونَ شَيْئًا إِلاَّ جَعَلْتُ عَلَيْهِ آرَامًا مِنَ الْحِجَارَةِ يَعْرِفُهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، حَتَّى أَتَوْا مُتَضَايِقًا مِنْ ثَنِيَّةٍ، فَإِذَا هُمْ قَدْ أَتَاهُمْ فُلاَنُ بْنُ بَدْرٍ الْفَزَارِيُّ، فَجَلَسُوا يَتَضَحَّوْنَ، يَعْنِي يَتَغَدَّوْنَ، وَجَلَسْتُ عَلَى رَأْسِ قَرْنٍ، قَالَ الْفَزَارِيُّ: مَا هَذَا الَّذِي أَرَى؟ قَالُوا: لَقِينَا مِنْ هَذَا الْبَرْحَ، وَاللَّهِ، مَا فَارَقَنَا مُنْذُ غَلَسٍ يَرْمِينَا حَتَّى انْتَزَعَ كُلَّ شَيْءٍ فِي أَيْدِينَا، قَالَ: فَلْيَقُمْ إِلَيْهِ نَفَرٌ مِنْكُمْ أَرْبَعَةٌ، قَالَ: فَصَعِدَ إِلَيَّ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ فِي الْجَبَلِ، قَالَ: فَلَمَّا أَمْكَنُونِي مِنَ الْكَلاَمِ، قَالَ: قُلْتُ: هَلْ تَعْرِفُونِي؟ قَالُوا: لاَ، وَمَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: قُلْتُ: أَنَا سَلَمَةُ بْنُ الأَكْوَعِ، وَالَّذِي كَرَّمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ ﷺ، لاَ أَطْلُبُ رَجُلاً مِنْكُمْ إِلاَّ أَدْرَكْتُهُ، وَلاَ يَطْلُبُنِي رَجُلٌ مِنْكُمْ فَيُدْرِكَنِي، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَنَا أَظُنُّ، قَالَ: فَرَجَعُوا، فَمَا بَرِحْتُ مَكَانِي حَتَّى رَأَيْتُ فَوَارِسَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَخَلَّلُونَ الشَّجَرَ، قَالَ: فَإِذَا أَوَّلُهُمُ الأَخْرَمُ الأَسَدِيُّ، عَلَى إِثْرِهِ أَبُو قَتَادَةَ الأَنْصَارِيُّ، وَعَلَى إِثْرِهِ الْمِقْدَادُ بْنُ الأَسْوَدِ الْكِنْدِيُّ، قَالَ: فَأَخَذْتُ بِعِنَانِ الأَخْرَمِ، قَالَ: فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ، قُلْتُ: يَا أَخْرَمُ، احْذَرْهُمْ لاَ يَقْتَطِعُوكَ حَتَّى يَلْحَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، قَالَ: يَا سَلَمَةُ، إِنْ كُنْتَ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتَعْلَمُ أَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، فَلاَ تَحُلْ

بَيْنِي وَبَيْنَ الشَّهَادَةِ، قَالَ: فَخَلَّيْتُهُ، فَالْتَقَى هُوَ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، قَالَ: فَعَقَرَ بِعَبْدِ الرَّحْمَنِ فَرَسَهُ، وَطَعَنَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَقَتَلَهُ، وَتَحَوَّلَ عَلَى فَرَسِهِ، وَلَحِقَ أَبُو قَتَادَةَ فَارِسُ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِعَبْدِ الرَّحْمَنِ، فَطَعَنَهُ فَقَتَلَهُ، فَوَالَّذِي كَرَّمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ ﷺ، لَتَبِعْتُهُمْ أَعْدُو عَلَى رِجْلَيَّ حَتَّى مَا أَرَى وَرَائِي مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلاَ غُبَارِهِمْ شَيْئًا حَتَّى يَعْدِلُوا قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى شِعْبٍ فِيهِ مَاءٌ يُقَالُ لَهُ: ذُو قَرَدٍ لِيَشْرَبُوا مِنْهُ، وَهُمْ عِطَاشٌ، قَالَ: فَنَظَرُوا إِلَيَّ أَعْدُو وَرَاءَهُمْ، فَخَلَّيْتُهُمْ عَنْهُ، يَعْنِي أَجْلَيْتُهُمْ عَنْهُ، فَمَا ذَاقُوا مِنْهُ قَطْرَةً، قَالَ: وَيَخْرُجُونَ فَيَشْتَدُّونَ فِي ثَنِيَّةٍ، قَالَ: فَأَعْدُو فَأَلْحَقُ رَجُلاً مِنْهُمْ، فَأَصُكُّهُ بِسَهْمٍ فِي نُغْضِ كَتِفِهِ، قَالَ: قُلْتُ: خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ الأَكْوَعِ وَالْيَوْمُ يَوْمُ الرُّضَّعِ، قَالَ: يَا ثَكِلَتْهُ أُمُّهُ، أَكَوَعُهُ بُكْرَةً؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ يَا عَدُوَّ نَفْسِهِ، أَكَوَعُكَ بُكْرَةَ، قَالَ: وَأَرْدَوْا فَرَسَيْنِ عَلَى ثَنِيَّةٍ، قَالَ: فَجِئْتُ بِهِمَا أَسُوقُهُمَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: وَلَحِقَنِي عَامِرٌ بِسَطِيحَةٍ فِيهَا مَذْقَةٌ مِنْ لَبَنٍ، وَسَطِيحَةٍ فِيهَا مَاءٌ، فَتَوَضَّأْتُ وَشَرِبْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمَاءِ الَّذِي حَلَّأْتُهُمْ عَنْهُ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ أَخَذَ تِلْكَ الإِبِلَ وَكُلَّ شَيْءٍ اسْتَنْقَذْتُهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَكُلَّ رُمْحٍ وَبُرْدَةٍ، وَإِذَا بِلاَلٌ نَحَرَ نَاقَةً مِنَ الإِبِلِ الَّذِي اسْتَنْقَذْتُ مِنَ الْقَوْمِ، وَإِذَا هُوَ يَشْوِي لِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ كَبِدِهَا وَسَنَامِهَا، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، خَلِّنِي فَأَنْتَخِبُ مِنَ الْقَوْمِ مِئَةَ رَجُلٍ فَأَتَّبِعُ الْقَوْمَ، فَلاَ يَبْقَى مِنْهُمْ مُخْبِرٌ إِلاَّ قَتَلْتُهُ، قَالَ: فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ فِي ضَوْءِ النَّارِ، فَقَالَ: "يَا سَلَمَةُ، أَتُرَاكَ كُنْتَ فَاعِلاً؟" قُلْتُ: نَعَمْ، وَالَّذِي أَكْرَمَكَ، فَقَالَ: "إِنَّهُمُ الآنَ لَيُقْرَوْنَ فِي أَرْضِ غَطَفَانَ"، قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ غَطَفَانَ، فَقَالَ: نَحَرَ لَهُمْ فُلاَنٌ جَزُورًا فَلَمَّا كَشَفُوا جِلْدَهَا رَأَوْا غُبَارًا، فَقَالُوا: أَتَاكُمُ الْقَوْمُ، فَخَرَجُوا هَارِبِينَ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "كَانَ خَيْرَ فُرْسَانِنَا الْيَوْمَ أَبُو قَتَادَةَ، وَخَيْرَ رَجَّالَتِنَا سَلَمَةُ"، قَالَ: ثُمَّ أَعْطَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ سَهْمَيْنِ سَهْمَ

الْفَارِسِ، وَسَهْمَ الرَّاجِلِ، فَجَمَعَهُمَا لِي جَمِيعًا، ثُمَّ أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَرَاءَهُ عَلَى الْعَضْبَاءِ رَاجِعِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ، قَالَ: فَبَيْنَمَا نَحْنُ نَسِيرُ، قَالَ: وَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ لاَ يُسْبَقُ شَدًّا، قَالَ: فَجَعَلَ يَقُولُ: أَلاَ مُسَابِقٌ إِلَى الْمَدِينَةِ؟ هَلْ مِنْ مُسَابِقٍ؟ فَجَعَلَ يُعِيدُ ذَلِكَ قَالَ: فَلَمَّا سَمِعْتُ كَلاَمَهُ، قُلْتُ: أَمَا تُكْرِمُ كَرِيمًا، وَلاَ تَهَابُ شَرِيفًا، قَالَ: لاَ، إِلاَّ أَنْ يَكُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، بِأَبِي وَأُمِّي، ذَرْنِي فَلأُسَابِقَ الرَّجُلَ، قَالَ: «إِنْ شِئْتَ»، قَالَ: قُلْتُ: اذْهَبْ إِلَيْكَ وَثَنَيْتُ رِجْلَيَّ، فَطَفَرْتُ فَعَدَوْتُ، قَالَ: فَرَبَطْتُ عَلَيْهِ شَرَفًا، أَوْ شَرَفَيْنِ، أَسْتَبْقِي نَفَسِي، ثُمَّ عَدَوْتُ فِي إِثْرِهِ، فَرَبَطْتُ عَلَيْهِ شَرَفًا، أَوْ شَرَفَيْنِ، ثُمَّ إِنِّي رَفَعْتُ حَتَّى أَلْحَقَهُ، قَالَ: فَأَصُكُّهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، قَالَ: قُلْتُ: قَدْ سُبِقْتَ وَاللَّهِ، قَالَ: أَنَا أَظُنُّ، قَالَ: فَسَبَقْتُهُ إِلَى الْمَدِينَةِ، قَالَ: فَوَاللَّهِ، مَا لَبِثْنَا إِلاَّ ثَلاَثَ لَيَالٍ حَتَّى خَرَجْنَا إِلَى خَيْبَرَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَجَعَلَ عَمِّي عَامِرٌ يَرْتَجِزُ بِالْقَوْمِ:

تَاللَّهِ لَوْلاَ اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا

وَنَحْنُ عَنْ فَضْلِكَ مَا اسْتَغْنَيْنَا ... فَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا

وَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: أَنَا عَامِرٌ، قَالَ: غَفَرَ لَكَ رَبُّكَ، قَالَ: وَمَا اسْتَغْفَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لإِنْسَانٍ يَخُصُّهُ إِلاَّ اسْتُشْهِدَ، قَالَ: فَنَادَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَهُوَ عَلَى جَمَلٍ لَهُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، لَوْلاَ مَا مَتَّعْتَنَا بِعَامِرٍ، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمْنَا خَيْبَرَ، قَالَ: خَرَجَ مَلِكُهُمْ مَرْحَبٌ يَخْطِرُ بِسَيْفِهِ، وَيَقُولُ:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي مَرْحَبُ ... شَاكِي السِّلاَحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ

إِذَا الْحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبُ.

قَالَ: وَبَرَزَ لَهُ عَمِّي عَامِرٌ، فَقَالَ:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي عَامِرُ ... شَاكِي السِّلاَحِ بَطَلٌ مُغَامِرُ

قَالَ: فَاخْتَلَفَا ضَرْبَتَيْنِ، فَوَقَعَ سَيْفُ مَرْحَبٍ فِي تُرْسِ عَامِرٍ، وَذَهَبَ عَامِرٌ يَسْفُلُ لَهُ، فَرَجَعَ سَيْفُهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَقَطَعَ أَكْحَلَهُ، فَكَانَتْ فِيهَا نَفْسُهُ.

قَالَ سَلَمَةُ: فَخَرَجْتُ، فَإِذَا نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، يَقُولُونَ: بَطَلَ عَمَلُ عَامِرٍ، قَتَلَ نَفْسَهُ، قَالَ: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، بَطَلَ عَمَلُ عَامِرٍ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "مَنْ قَالَ ذَلِكَ؟" قَالَ: قُلْتُ: نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِكَ، قَالَ: "كَذَبَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ، بَلْ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ"، ثُمَّ أَرْسَلَنِي إِلَى عَلِيٍّ وَهُوَ أَرْمَدُ، فَقَالَ: "لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلاً يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، أَوْ يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ"، قَالَ: فَأَتَيْتُ عَلِيًّا، فَجِئْتُ بِهِ أَقُودُهُ وَهُوَ أَرْمَدُ، حَتَّى أَتَيْتُ بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَبَسَقَ فِي عَيْنَيْهِ فَبَرَأَ وَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، وَخَرَجَ مَرْحَبٌ، فَقَالَ:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي مَرْحَبُ ... شَاكِي السِّلاَحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ

إِذَا الْحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبُ.

فَقَالَ عَلِيٌّ:

أَنَا الَّذِي سَمَّتْنِي أُمِّي حَيْدَرَهْ ... كَلَيْثِ غَابَاتٍ كَرِيهِ الْمَنْظَرَهْ

أُوفِيهِمُ بِالصَّاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ.

قَالَ: فَضَرَبَ رَأْسَ مَرْحَبٍ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ كَانَ الْفَتْحُ عَلَى يَدَيْهِ[1].

فرضي الله عن الأسطورة سلمة، وعن عمه الأسطورة عامر، وعن الإمام الأسطورة عليٍّ، وعن سائر أصحاب النبي ﷺ.

---

١- رواه البخاري (٣٩٥٨) مختصرًا ومسلم ٤٧٠٢- (١٣٢-١٨٠٧) واللفظ له وأحمد (١٦٥٣٩).

# صلاح الدين الأيوبي

يا أيها الملكُ الذي ... لمعالم الصلبانِ نَكَّس
جاءت إليك ظُلَامةٌ ... تسعى من البيت المُقَدّس
كلُّ المساجدِ طُهِّرَت ... وأنا على شرفي أُدَنَّس

تلك هي الرسالةُ التي جاءت على لسانِ المسجد الأقصى بعد معركة (حطين)، إلى الأسطورة (صلاح الدين).

صلاح الدين الذي كان رجلًا بأمَّةٍ، هو إحدى معجزات الإسلام الباهرة، وآياته الظاهرة...

إنه ناصر الدين، ومحرر فلسطين، وبطل حطين، وقاهر الصليبيين، الأسطورة صلاح الدين...

هو أسطورة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، أسطورةٌ يعرفها ويسمع بها الصغيرُ قبل الكبير، والعاميُّ قبل المثقف، والأميُّ قبل القارئ، والجاهلُ قبل المتعلم، بل والأصمُّ قبل من يسمع!.

هي أسطورةٌ يُغني اسمها عن رسمها، لذا لن أُسْهِبَ في وصفها، أو بمعنىً أصح، لن أتحدثَ عنها، وإلا فذِكْرَهُ بمنزلةِ الفرضِ والواجب!.

ذاكم السلطان صلاح الدين، يقول: والله إني لأستحيي من اللهِ أن أضحكَ والمسجدُ الأقصى ما زال بأيدي الصليبيين!.

ثم قام أولًا بالقضاء على الخونة الروافضِ العُبَيديِّين، إذ تبيَّن له أنهم مصدرُ إمداداتِ الصليبيين، وعندها تمهَّدَ الطريق إلى حطين، ليبرَّ بقسمِهِ ويُطهِّرَ الأقصى من دنسِ الصليبيين!.

وهكذا كان صلاح الدين - رحمه الله - كانت حياته كلها جهادًا، وكان يعود من غزو إلى غزو، ومن معركة إلى معركة، وكانت معركة حطين من معاركه التي كُتبت له بأقلام من نور على صفحات من ذهب، وسُطِّرَت على جبين التاريخ شاهدة له بكل معاني الجهاد والتضحية. وكان من كلامه - رحمه الله - كما ذكرتُ: كيف يطيبُ لي الفرح والطعام ولذة المنام، وبيت المقدس بأيدي الصليبيين؟!.

يقول بهاء الدين بن شداد واصفًا صلاح الدين: كان - رحمه الله - عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله إلا الجبال!.

وقال أيضًا: وهو كالوالدة الثكلى، يجول بفرسه من طلب إلى طلب، ويحث الناس على الجهاد، ويطوف بين الأطلاب بنفسه وينادي: يا للإسلام، وعيناه تذرفان بالدموع، وكلما نظر إلى عكا، وما حلّ بها من البلاء، اشتد في الزحف والقتال، ولم يطعم طعامًا البتة، وإنما شرب أقداح دواء كان يشير بها الطبيب، ولقد أخبرني بعض أطبائه أنه بقي من يوم الجمعة إلى يوم الأحد لم يتناول من الغذاء إلا شيئًا يسيرًا لفرط اهتمامه!.

ولله درُّ من قال:

وإذا النفوسُ كُنَّ كِبَارًا ... تَعِبَتْ فِي مُرَادِهَا الأَجْسَامُ

وكأني بابن القيم - رحمه الله - يصف صلاح الدين الأيوبي حين قال: النعيم لا يُدرك بالنعيم، وبحسب ركوب الأهوال واحتمال المشاق تكون الفرحة واللذة، فلا فرحة

لمن لا همّ له، ولا لذة لمن لا صبر له، ولا نعيم لمن لا شقاء له، ولا راحة لمن لا تعب له!.

ولذا أطلق عليه الروافض (خراب الدين)، وتلك شهادةٌ له بأنه (صلاح الدين)!.

فما ضرَّني ندلٌ غدا وهو من شآني، إذا رَضِيَّتْ عني كرامُ عشيرتي.. فغِرْبَانُها لا يخطرونَ على بالي[1].

obeikandl.com

١- صلاح الدين الأيوبي بطل حطين للدكتور عبد الله ناصح علوان، أيعيد التاريخ نفسه؟ للدكتور محمد العبدة، صلاح الدين الأيوبي لبسام العسيلي، صلاح الدين الأيوبي لأبي الحسن الندوي، محاضرة ريًّا البشام لعلي القرني.

obeikandl.com

# ضرار بن الأزور
## (الشيطان عاري الصدر)

المقاتل المغوار، والبطل الكرار، مرعب الكفار، ومبيد الأشرار، والفارس الذي لا يُشَقُّ له غبار، الأسطورة ضرار..

**عند فتح دمشق...**

في اليوم الأولِ حملَ ضرار بن الأزور ﷺ على المشركينَ، ومُذْ حملَ ضرارُ لم يولِّ عنهم، بل قتل من الميمنة خمسة فرسان، ومن الميسرة كذلك، ثم حمل ثاني مرة فقتل منهم ستة فرسان، ولولا سهام القوم لما رد عن قتالهم، فشكره خالد بن الوليد ﷺ.

وفي اليوم الثاني أَمَرَهُ الأميرُ خالد بقتل البطريقين الكبيرين (كلوس وعزازير) من بطارقة الروم اللذين كان خالد قد أسرهما بالأمس ففعل.

وبعد حصار المسلمين لدمشق عشرين يومًا، أراد خالد بن الوليد أن يترك مكانه ويذهب لأجنادين لملاقاة من أرسلهم هرقل من الروم لقطع الطريق على المدد الآتي للمسلمين بقيادة عمرو بن العاص ﷺ، فأنكر أبو عبيدة بن الجراح ﷺ على خالد ذلك لئلا يأخذ أهل دمشق مواضعهم ويحلوا محلهم، فلما سمع خالد ذلك من أبي عبيدة قال: يا أمين الأمة، إني أعرف رجلًا لا يخاف الموت، خبيرًا بلقاء الرجال، قد مات أبوه وجده في القتال. قال: ومن هذا الرجل يا أبا سليمان؟ قال: هو ضرار بن الأزور بن طارق، قال أبو عبيدة: والله لقد صدقت ووصفت رجلًا باذلًا معروفًا فافعل، فرجع خالد إلى بابه واستدعى بضرار بن الأزور فجاء إليه وسلم عليه فقال: يا ابن

الأزور إني أريد أن أُقْدِمَكَ على خمسة آلاف قد باعوا أنفسهم لله عز وجل واختاروا دار البقاء والآخرة على الأولى وتسيروا إلى لقاء هؤلاء القوم الذين وردوا علينا فإن رأيت لك فيهم طمعًا فقاتلهم، وإن رأيت أنك لا تقدر عليهم فابعث إلينا رسولك!، فقال ضرار بن الأزور: وافرحتاه والله يا ابن الوليد، ما دخل قلبي مسرةٌ أعظمُ من هذه، فاتركني أسير وحدي!. قال خالد: لعمري إنك ضرار، ولكن لا تُلقِ نفسك إلى الهلاك، وسر بما نُدِبَ معك من المسلمين، فقام ضرار ﷺ مسرعًا، فقال خالد: ارفق بنفسك حتى يجتمع عليك الجيش، فقال: والله لا وقفتُ ومن علم اللهُ فيهِ خيرًا أدركني!، ثم ركب ضرار وأسرع إلى أن وصل إلى بيت لهيا - وهو الموضع الذي كان يصنع فيه الأصنام - فوقف هناك حتى لحق به أصحابه، فلما تكاملوا نظر ضرار وإذا بجيش الروم ينحدر كأنه الجراد المنتشر وهم غائصون في الدروع، وقد أشرقت الشمس على لأماتهم وطوارقهم.

فلما نظر إليهم أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: لضرار أما والله إن هذا الجيش عرمرم والصواب أننا نرجع، فقال ضرار: والله لا زلت أضربُ بسيفي في سبيل الله واتبع من أناب إلى الله ولا يراني الله مهزومًا ولا أولي الدبر لأن الله تعالى يقول: "فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ × وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ"[1]، وتكلم رافع بن عميرة الطائي وقال: يا قوم وما الخيفة من هؤلاء العلوج؟! أما نصركم الله في مواطن كثيرة والنصر مقرون مع الصبر ولم تزل طائفتنا تلقى الجموع الكثيرة والجموع اليسيرة فاتَّبِعُوا سبيل المؤمنين وتضرعوا إلى رب العالمين وقولوا كما قال قوم طالوت عند لقائهم جالوت «رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا

---

١- (الأنفال: ١٦).

وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ»[1]. فلما سمع ضرار كلامهم وأنهم اشتروا الآخرة على الأولى كمن بهم عند بيت لهيا وأخفى أمره وجلس عاري الجسد بسراويله على فرس له عربي بغير سلاح وبيده قناة كاملة الطول وهو يوصي القوم.

عن عمرو بن دارم قال: كنت يوم بيت لهيا ممن صحب ضرار بن الأزور ﷺ وهو بهذه الصفة رغبة منه في الشهادة، فلما قارب العدو كان أول من برز وكبر ضرار بن الأزور قَبْلُ فأجابه المسلمون بتكبيرة واحدة رعبت منها قلوب المشركين وفاجئوهم بالحملة، ونظروا إلى ضرار بن الأزور وهو في أول القوم وهو في حالته التي وصفناها فهالهم أمره وكان وردان – قائدهم وهو البطريق الذي ولاه هرقل – في المقدمة والأعلام والصلبان مشتبكة على رأسه، فما طلب ضرار غيره، لأنه علم أنه صاحبهم، فحمل عليه غير مكترثٍ به، وطعن فارسًا كان في يده العلم فتجندل من على فرسه قتيلًا، ثم إنه طعن آخر في الميمنة فأرداه، وحمل يريد القلب – قلب الجيش –، وكان قد عاين وردان والصليب على رأسه يحمله فارس من الروم والجواهر تلمع من أربع جوانبه، فعارضه ضرار وطعن حامله طعنة عظيمة فخرج السنان يلمع من خاصرته، فسقط الصليب منكسًا إلى الأرض، فلما نظر وردان إلى الصليب أيقن بالهلاك وهم أن يترجل لأخذه أو يميل في ركابه ليأخذه، فلم يجد لذلك سبيلًا لما قد أحدق به، وترجل عليه قوم من المسلمين ليأخذوه وقد اشتغل كل عن نفسه، ونظر ضرار إلى من ترجل لأخذ الصليب، فقال: معاشر المسلمين إن الصليب لي دونكم وأنا صاحبه، فلا تطمعوا فإني إليه راجع إذا فرغت من كلب الروم، فسمع ذلك وردان وكان يعرف العربية، فعطف من القلب يريد الهرب فقالت البطارقة: إلى أين أيها السيد؟ أتفر من

---

١- (البقرة: ٢٥٠).

الشيطان؟ فما رأوا أدنى من منظره ولا أهول من مخبره، ونظر إليه ضرار وقد عطف راجعًا فعلم إنه قد عزم على الهرب، فصاح بقومه ثم اقتحم في أثره ومد رمحه وهمز جواده فتصارخت به الروم وعطفت عليه المواكب من كل جانب فأنشد يقول:

الموت حق أين لي منه المفر ... وجنة الفردوس خير المستقر

هذا قتالي فاشهدوا يا من حضر ... وكل هذا في رضا رب البشر

ثم اخترق القوم وحمل عليهم وحمل المسلمون في أثره فأحدقوا بهم من كل مكان، ونظروا إلى ضرار وقد قصده وردان صاحب حمص عندما علم أنه اخترق القوم فمد إليه رمحه وقد أحدقت به بطارقته وضرار يمانع عن نفسه يمينًا وشمالاً، فما طعن أحدًا إلا أباده، إلى أن قتل من القوم خلقًا كثيرًا وهو يصرخ بقومه ويقول: "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ"[1]، ثم أقبل عليه جيوش الروم من كل جانب ومكان، واشتعل الحرب بينهم ووصل همدان بن وردان إلى ضرار بن الأزور ورماه بسهم فأصاب عضده الأيمن فوصل السهم إليه فأوهنه وأحس ضرار بالألم، فحمل ضرار على همدان وصمم عليه برمحه وطعنه فأصاب بالطعنة فؤاده – قلبه – فوصل السنان – نصل الرمح – إلى ظهره فجذب الرمح منه فلم يخرج، وإذا به قد اشتبك في عظم ظهره – همدان بن وردان – فخرج الرمح من غير سنان، فطمعوا فيه وحملوا عليه وأخذوه أسيرًا.

لكن هل انتهى أمره إلى هنا؟!

كلا والله ... جَدَّ المسلمون في طلبه، ومعهم أخته البطلة خولة بنت الأزور، وخلصوه من الأسر، ثم ها هو يعود من جديد إلى مواقفه المعهودة، وبطولاته المشهودة..

---

١- (الصف:٤).

فبعدما عاد المسلمون إلى دمشق، كان خالدٌ على مقدم الجيش وأبو عبيدة على الساقة مع النساء والصبيان، فهاجمه فارس عظيم مُعَظَّمٌ من فرسان الروم يقال له بولص في ستة آلاف فارس وعشرة آلاف راجل، فاقتطعوا قطعة من النساء والصبيان - أسروا منهم -، فبينما أبو عبيدة في القتال مع بولص لعنه الله، إذ تلاحقت به جيوش المسلمين وحملوا على أعداء الله وداروا بهم من كل مكان، فعند ذلك تنكست الصلبان وأيقن الروم بالهوان، وتقدم الأمير ضرار بن الأزور كأنه شعلة نار وقصد نحو بولص، فلما رآه عدو الله تبلبل خاطره ووقعت الرعدة في فرائصه وقال لأبي عبيدة: يا عربي وحق دينك إلا ما قلت لهذا الشيطان: يبعد عني، وكان بولص قد سمع به ورآه من سور دمشق وما صنع بعسكر كلوس وعزازير وسمع بفعاله في بيت لهيا، فلما رآه مقبلا إليه عرفه فقال لأبي عبيدة: قل لهذا الشيطان: لا يقربني، فسمعه ضرار ﷺ فقال له: أنا شيطانٌ إن قصرت عن طلبك، ثم إنه فاجأه وطعنه فلما رأى بولص أن الطعنة واصلة إليه رمى نفسه عن جواده وطلب الهرب نحو أصحابه، فسار ضرار في طلبه وقال له: أين تروح من الشيطان وهو في طلبك؟! ولحقه وهم أن يعلوه بسيفه، فقال بولص: يا بدوي ابق عليَّ ففي بقائي بقاء أولادكم وأموالكم، فلما سمع ضرار قوله أمسك عن قتله وأخذه أسيرًا، هذا والمسلمون قد قتلوا من الروم مقتلة عظيمة.

وَوُجِّهَ خبرٌ لضرار أن خولة مع النسوان المأسورات، فعظم ذلك عليه وأقبل على خالد وأعلمه بذلك فقال له خالد: لا تجزع فقد أسرنا منهم خلقا كثيرا وقد أسرت أنت بولص صاحبهم وسوف نخلص من أسر من حريمنا، ولا بد لنا من دمشق في طلبهم، ثم أمر خالد أن يسيروا بالناس على مهل، حتى ننظر ما يكون من أمر حريمنا، ثم إنه سار في ألف فارسٍ جريدة وبعث العسكر كله إلى أبي عبيدة مخافة أن يلحقهم وردان

بجيوشه فسار القوم وتوجه خالد بمن معه في طلب المأسورات وقد قدم أمامه رافع بن عميرة الطائي وميسرة بن مسروق العبسي وضرار بن الأزور.

وقد أبلت النساء المأسورات بلاءً عظيمًا في حماية أنفسهن ودفع كلاب الروم عنهن بقيادة البطلة خولة بنت الأزور، وعفرة بنت غفار.

فبينما النساء يدفعن ويقاتلن كلاب الروم غير مستسلمات لهم، إذ أقبل المسلمون، وإذا فارسان قد خرجا من قلب العسكر، أحدهما قد تكمَّى في سلاحه، والآخر عاري الجسد، وقد أطلقا عنانيهما كأنهما أسدان، وكانا خالدًا وضرارًا، فلما رأت خولة أخاها قالت له: إلى أين يا أخي أقبل، فصاح بها بطرس - الذي كانت في أسره - انطلقي إلى أخيك فقد وهبتك له، ثم ولى يطلب الهرب فقالت له خولة: وهي تهزأ به ليس هذا من شيم الكرام تظهر لنا المحبة والقرب، ثم تظهر الساعة الجفاء والتباعد، وخطت نحوه، فقال: قد زال عني ما كنت أجد من محبتك، فقالت له خولة: لا بد لي منك على كل حال، ثم أسرعت إليه وقد قصده ضرار، فقال له بطرس: خذ أختك عني فهي مباركة عليك، وهي هدية مني إليك، فقال له الأمير ضرار: قد قبلتُ هديتك وشكرتها وإني لا أجد لك على ذلك إلا سنان رمحي فخذ هذه مني إليك، ثم حمل عليه ضرار وهو يقول: "وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا"[1]، ثم همهم إليه بالطعنة ووصلت إليه خولة فضربت قوائم فرسه فكبا به الجواد ووقع عدو الله إلى الأرض، فأدركه ضرار قبل سقوطه وطعنه في خاصرته فأطلع السنان من الجانب الآخر فتجندل صريعًا إلى الأرض، فصاح به خالد لله درك يا ضرار هذه طعنة لا يخيب طاعنها!.

---

١- (النساء: ٨٦).

ثم حملوا في أعراض القوم وجميع المسلمين معهم فما كانت إلا جولة جائل حتى قُتِلَ من الروم ثلاثة آلاف رجل، قال حامد بن عامر اليربوعي لقد عددت لضرار بن الأزور في ذلك اليوم ثلاثين قتيلًا، ثم ساروا عائدين ليلحقوا بأبي عبيدة، وضرار قد جعل رأس البطريق على سنان رمحه.

فلما ذهبوا إلى أجنادين لملاقاة جيوش الروم بقيادة وردان، قال خالد: معاشر المسلمين!، من فيكم يُحَذِّرُ لنا القوم وينذِرُهُم؟ فقال ضرار بن الأزور: أنا أيها الأمير، فقال خالد: أنت لها والله، ولكن يا ضرار إذا أشرفت على القوم فإياك أن تُحَمِّل نفسك ما لا تطيق وأن تغرر بنفسك وتحمل على القوم، فما أمرك الله بذلك فقد قال الله تعالى: «وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ»[1]، فأطلق ضرار عنان جواده حتى أشرف على جيش الروم فرأى أثاثهم وخيامهم وشعاع البيض والطوارق والرايات كأجنحة الطيور ،وكان وردان ينظر نحو جيش المسلمين إذ نظر إلى ضرار وهو مشرف على القوم فقال للبطارقة: إني أرى فارسًا قد أقبل ولست أشك أنه طليعة للقوم فأيكم يأتيني به؟ فانتدب من القوم ثلاثين فارسًا طلبوا ضرارًا، فلما نظر إليهم ضرار ولى من بين أيديهم فتبعوه وظنوا أنه قد انهزم، وإنما أراد بذلك أن يبعدهم عن أصحابهم، فلما بعدوا علم أنه تمكن منهم فلوى رأس جواده إليهم وصوب السنان عليهم، فأول ما طعن فارسًا من القوم أرداه، وثنى على الآخر فأعدمه الحياة، وصال فيهم صولة الأسد على الغنم، ودخل رعبه في قلوبهم فولوا منهزمين فتبعهم وهو يصرع منهم فارسًا بعد فارس إلى أن صرع منهم تسعة عشر فارسًا، فلما رأوا ذلك وقرب هو من جيوش الروم لوى راجعًا إلى خالد ومعه أسلابهم وخيولهم وأعلمه بما كان فقال له خالد: ألم أقل لك

---

١- (البقرة : ١٩٥).

لا تغرر بنفسك ولا تحمل عليهم؟! فقال: إن القوم طلبوني فخفت أن يراني الله منهزمًا فجاهدت بإخلاص ولا جرم أن الله ينصرنا عليهم والله لولا خوفي من ملامك لأحملن على الجميع، واعلم أن القوم غنيمة لنا!.

فلما تقارب الجمعان رمت الأروام سهامهم رمية واحدة فقتلوا رجالًا وجرحوا أناسًا، وخالد قد منع الناس من الحملة، فقال ضرار بن الأزور: وما لنا والوقوف والحق سبحانه وتعالى قد تجلى علينا والله ما يظن أعداء الله إلا أننا قد فشلنا عنهم وجزعنا! فأمرنا بالحملة حتى نحمل معك، قال: فأنت لها يا ضرار، فخرج ضرار بن الأزور وقال: والله ما من شيء أشهى إلى قلبي من ذلك، ثم حمل ضرار وقد تدرع بدرع كان لبطرس أخي بولص وألقى الزرد على وجهه وركب جواده، وكان عليه يومئذ جبتان من جلود الفيلة كان قد أخذهما أيضًا من بطرس وقد أخفى نفسه عن الروم بلباسه ذلك وقد أطلق عنانه وقوَّم سنانه وحمل في صفوف الروم فرشقوه بالسهام فلم يصل إليه منهم أذى وهو يخترق صفوفهم فما كان قدر ساعة حتى قتل من الروم عشرين فارسًا ومثلها رجالة!. قال عنان بن عوف النجبي: كنت ممن يعد قتلى ضرار بن الأزور وكنت كلما قتل فارسًا من الروم أعده فكان جملة قتل ضرار في حملته هذه فرسانًا ورجالًا ثلاثين فارسًا.

قال عمر بن سالم هكذا حدثني نوفل بن زياد ثم إنه رمى البيضة عن رأسه والزرد عن وجهه ونادى بأعلى صوته: أنا الموت الأصفر، أنا ضرار بن الأزور، أنا صاحبكم، أنا قاتل همدان بن وردان، أنا البلاء المسلط عليكم وعلى من أشرك بالرحمن، قال: فلما سمعت الروم كلامه عرفوه وتقهقروا إلى ورائهم، قال: فطمع فيهم وحمل على أثرهم فعند ذلك انطبقت عليه الروم فقال وردان: من هذا البدوي؟ فقالوا: أيها الملك

هذا الذي بقى طول عمره عاري الجسد ومرة برمح ومرة بنبل، فلما سمع ذلك وبذكر ضرار بن الأزور تنفس الصعداء وقال: هذا قاتل ولدي ولقد اشتهيت من يأخذ منه بثأري وله مني ما يريد!، قال: فبرز إليه بطريق وكان صاحب طبرية وقال لوردان أنا أخذ لك بالثأر، ثم لوى عنانه وحمل على ضرار فجالا أكثر من ساعة ثم طعنه ضرار طعنة صادقة خرق بها كبد عدو الله فتجندل صريعًا، فقال وردان لهم: ما أتى به ولو أتى به عينا ما صدقته، فإن هذا لا تطيق الإنس أن تقاتله وأنا لا أرى لهذا غيري ثم ترجل وغير لامته وألقى عليه درعًا وجعل على رأسه التاج وركب جوادًا من الخيول العربية وهم أن يخرج إلى ضرار بن الأزور، فتقدم إليه بطريق اسمه أصطفان وهو صاحب عمان وبأس ركاب وردان، قال: أيها السيد أن آخذ بثأرك من هذا الذميم أو أسرته لك أتزوجني ابنتك؟ فقال له وردان: هي لك وأشهد عليه من حضر من ملوك الشام، فلما سمع أصطفان بذلك خرج كأنه شعلة نار وحمل على ضرار وقال له: ويلك قد نزل بك ما لا قدرة لك به، قال: فلم يدر ضرار ما يقول: غير أنه أخذ حذره منه وقد أخرج أصطفان صليبًا من الذهب وجعله في عنقه في سلسلة من الفضة وجعل يقبله ويرفعه على رأسه، فعلم ضرار أنه يستنصر به عليه، فقال ضرار ﷺ إن كنت تستنصر علي به فأنا أستنصر بالقريب المجيب، الذي هو ممن دعاه قريب، ثم حمل عليه وأرى الناس أبوابًا من الحرب حتى ضج الناس من قتالهما، فصاح خالد يا ابن الأزور ما هذا التكاسل والتغافل والجنة قد فتحت لك والنار قد فتحت لأعدائك؟! وإياك الكسل فإن الله عز وجل يعينك، قال: فأيقظ ضرار نفسه وانقضَّ من سرجه وحمل على خصمه وتصايحت الروم بصاحبها تشجعه وكلاهما في ضرب عظيم وقد حميت الشمس وتعب الجوادان، فأشار البطريق إلى ضرار أن ترجل حتى نتقابل فهم

ضرار أن يترجل شفقة على الجواد، وإذا بصفوف الروم قد خرجت ورجل يقود جنيبًا أمامهم وكان ذلك غلام البطريق فلما نظر إليه ضرار صاح في جواده وقال له: اجلَد معي ساعة وإلا شكوتك إلى رسول الله ﷺ!.

قال: فحمحم الجواد وشَمَّرَ أجنحته جريًا واستقبل ضرار غلام البطريق بطعنة فقتله وأخذ الجنيب فركبه وأطلق جواده نحو عساكر المسلمين فتناولوه، وعاد ضرار نحو البطريق فلما رآه أقبل إليه بعد ما قتل غلامه وركب جواده أيقن عدو الله بالهلاك وعلم أنه إن ولى قتله بلا محالة، وإن وقف أهلكه فلما نظر ضرار إلى عدو الله علم ما عنده، فهجم عليه إذ نظر إلى الروم وقد خرج منهم دوس، وذلك أن وردان لما نظر إلى صاحبه وقد أشرف على الموت علم أنه أن لم يدركه هلك، فقال لقومه: يا قوم إن هذا الشيطان قد أكل من كبدي قطعة وإذا لم أقتله قتلت نفسي ولا بد لي من الخروج إليه، قال: فخرج في عشرة من البطارقة وهم مدرعون وفي أرجلهم أخفاف من الحديد وسواعد من الحديد وبأيديهم أعمدة من الحديد، ووردان قد لبس لامته وعلى رأسه تاج عظيم، فخرجوا ووردان أمامهم كأنه شعلة نار، ونظر أصطفان إلى من خرج فصرخ بضرار فلم يلتفت إلى من خرج إليه إلا أنه تأهب، فبينما هم كذلك إذ نظر خالد إلى القوم وخروجهم ونظر إلى التاج وهو يلمع على رأس صاحبهم فقال: إن التاج لا يكون إلا على رأس الملك ولا شك إنه صاحب القوم قد خرج إلى صاحبنا فما الذي يقعدنا عن نصرته؟ ثم قال لأصحابه: لا يخرج إلا عشرة حتى نساوي القوم، فخرج خالد في عشرة أصحابه وأطلقوا الأعِنَّة وقوموا الأَسِنَّة، قال: ووصل الروم إلى ضرار فاستقبلهم بقلب أقوى من الحجر الجلمود، قال: فناداه خالد: أبشر يا ضرار، فقد أسعدك الجبار، ولا تجزع من الكفار، فقال ضرار رضي الله عنه: ما أقرب النصر من الله،

وجاء خالد ومن معه والتقت الرجال بالرجال وانفرد كل واحد بصاحبه وطلب خالد وردان، ولم يبرح ضرار عن خصمه أصطفان، وقد كلَّ ساعده، وارتعدت فرائصه، عندما نظر إلى خالد ومن معه فنظر يمينًا وشمالًا ليطلب الهرب، فعلم ضرار منه ذلك فهجم عليه بسنانه فلما أيقن بالموت ألقى نفسه إلى الأرض وولى هاربًا فبادر إليه ضرار وألقى نفسه عن جواده وطلب عدو الله حتى لحقه وتقابضا على وجه الأرض وكان عدو الله كالصخر الجلمود وكان ضرار نحيف الجسم غير أن الله تعالى أعطاه قوة الإيمان فلما طال بهم العراك ضرب بيده إلى مراق بطنه وقلعه من الأرض بحيله وجلد به الأرض فصاح عدو الله وجعل يستنجد بوردان وقال بالرومية: أيها السيد أنجدني مما أنا فيه فقد هلكت، فصاح وردان: يا ويلك ومن ينقذني أنا من هؤلاء السباع الكاسرة فسمع خالد ذلك فطمع فيه وحمل على وردان، وهم ضرار بخصمه ونظر إليهما الفريقان وأقبل صاحب رسول الله ﷺ ضرار فلم يمهل خصمه حتى برك على صدره وذبحه مثل البعير، وكل واحد مشتغل عن نصرة صاحبه قال فأخذ ضرار رأس عدو الله وهو ملطخ بالدماء وركب جواده.

وبعدها.. لما دبر وردان المكيدة لخالد، كاد له ضرار رادًا مكيدته بذكاء بقتل أصحابه الكامنين، ليحمل الصحابة على وردان بدلًا من أن يحمل الروم على خالد وهما يتفاوضان، فبادر إليه الصحابة كأنهم عقبان يتقدمهم ضرار بن الأزور وقد رموا النشاب عنهم وجردوا سيوفهم، وضرار عاري الجسد بسراويله قابض على سيفه وهو يزأر كالأسد، وأصحابه من ورائه، فالتفت عدو الله ونظر إلى القوم وهم يتسابقون إليه وهو يظن أنهم قومه، حتى إنهم وصلوا إليه ونظر في أوائلهم ضرار بن الأزور فقال لخالد: سألتك بحق معبودك أن تقتلني أنت بيدك ولا تدع هذا الشيطان يقتلني، فقال

خالد: هو قاتلك لا محالة، فهز ضرار سيفه وقال: يا عدو الله أين خديعتك من خديعة أصحاب رسول الله ﷺ؟ فقال خالد: اصبر يا ضرار حتى آمرك بقتله، ثم وصل إليه أصحاب رسول الله ﷺ فهزوا سيوفهم في وجهه ومرادهم أن يقتلوه، ونظر عدو الله إلى ما دهمه فوقع إلى الأرض وهو يشير بأصبعه الأمان الأمان، فقال خالد: يا عدو الله لا نعطي الأمان إلا لأهل الأمان وأنت أظهرت لنا المكر والخديعة "وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ"[1]، فلما سمع ضرار كلام خالد لم يمهله دون أن ضربه على عاتقه فخرج السيف يلمع من علائقه ثم أخذ التاج من على رأسه وقال: من سبق إلى شيء كان أولى به، وكان النصر![2].

وهذا كله في معركة واحدة، وإن كانت الكلمات شيئًا زائدة، فهي للتعريف بأسطورة خالدة، وأحسِبُها مما يُرَوِّح القلوب والأفئدة، كما لا أظنها تخلو من فائدة.

---

١- (آل عمران: ٥٤).

٢- فتوح الشام للواقدي (١/٣٧ : ٦٤).



obeikandl.com

## أبو بكر النابلسي
## (الأسطورة الشهيد)

إِنَّهُ الزَّاهِدُ الْعَابِدُ التَّقِيّ، أَبُو بَكْرٍ النَّابُلُسِيّ، عليه رحمةُ العَلِيّ،

لَمَّا أُحْضِرَ إِلَى الْمُعِزِّ الفاطميِّ – كما يدعي - فَأُوقِفَ بَيْنَ يَدَيْهِ،

قَالَ لَهُ الْمُعِزُّ: بَلَغَنِي أَنَّكَ قُلْتَ: لَوْ أَنَّ مَعِي عَشَرَةُ أَسْهُمٍ لَرَمَيْتُ الرُّومَ بِسَهْمٍ، وَرَمَيْتُ الْمُعِزِّيِّينَ بِتِسْعَةٍ،

فَقَالَ: مَا قُلْتُ هَذَا،

فَظَنَّ أَنَّهُ قَدْ رَجَعَ، وَقَالَ: كَيْفَ قُلْتَ؟

قَالَ: قُلْتُ: يَنْبَغِي أَنْ يَرْمِيَكُمْ بِتِسْعَةٍ، ثُمَّ يَرْمِيَكُمْ بِالْعَاشِرِ،

قَالَ: وَلِمَ؟

قَالَ: لِأَنَّكُمْ غَيَّرْتُمْ دِينَ الْأُمَّةِ، وَقَتَلْتُمُ الصَّالِحِينَ، وَادَّعَيْتُمْ نُورَ الْإِلَهِيَّةِ،

فَأَمَرَ بِإِشْهَارِهِ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ، ثُمَّ ضُرِبَ بِالسِّيَاطِ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي ضَرْبًا شَدِيدًا مُبَرِّحًا، ثُمَّ أَمَرَ بِسَلْخِهِ حَيًّا فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ، فَجِيءَ بِيَهُودِيٍّ فَجَعَلَ يَسْلُخُهُ، وَهُوَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، قَالَ الْيَهُودِيُّ: فَأَخَذَتْنِي رِقَّةٌ عَلَيْهِ، فَلَمَّا بَلَغْتُ تِلْقَاءَ قَلْبِهِ طَعَنْتُهُ بِالسِّكِّينِ، فَمَاتَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى...

حكَى ابْنُ السَّعسَاعِ المِصْرِيُّ، أَنَّهُ رَأَى فِي النَّوْمِ أَبَا بَكْرٍ بنُ النَّابُلُسِيِّ بَعْدَمَا صُلبَ وَهُوَ فِي أَحسنِ هيئَةٍ، فَقَالَ: مَا فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ فَقَالَ:

حبَانِي مَالِكِي بِدَوامِ عِزٍّ ... وَوَاعَدَنِي بِقُرْبِ الانتصَارِ

وَقَرَّبَنِي وَأَدْنَانِي إِلَيْهِ ... وَقَالَ: انْعَمْ بعَيْشٍ فِي جِوَارِي.

فَقِيلَ لَهُ: الشَّهِيدُ، وَإِلَيْهِ يُنْسَبُ بَنُو الشَّهِيدِ مِنْ أَهْلِ نَابُلُسَ إِلَى الْيَوْمِ[1].

obeikandl.com

١- سير أعلام النبلاء (١٥٠/١٦)، تاريخ الإسلام (٢١٦/٨)، البداية والنهاية (٣٦٧/١٥)، محاضرة إياك والتلون لعلي القرني.

## طليحة بن خويلد
## (أشجع جاسوس في التاريخ)

هو الأسطورة طليحة بن خويلد الأسدي، رجلٌ لا يهاب الموت..

قيل عنه: كان يُعَدُّ بألف فارسٍ لشجاعته وشِدَّته.

لكنه في الحقيقة يُعَدُّ بأضعاف ذلك...

ففي معركة القادسية:

لما استمدَّ - طلب المدد - سعدٌ أمير المؤمنين عمرًا رضي الله عنهما، كتب عمر بن الخطاب ﷺ إلى سعد بن أبي وقاص ﷺ: قد وجَّهت إليك، أو أمددتك بألفيْ رجل: عمرو بن معدِ يكرب وطُلَيحة بن خُوَيْلِد - رضي الله عنهما -، فشاوِرْهما في الحرب ولا تولِّهما شيئاً(١).

وقبل بدأ المعركة...

أرسل سعد بن أبي وقاص ﷺ سبعةً لاستطلاع خبر الفرس، وأمرهم بأن يأسروا رجلًا منهم إن استطاعوا!.

وما إن خرج السبعةُ وساروا مسافة فَرسَخٍ وبعض فرسخ - الفرسخ يساوي خمسة كيلو متر تقريبًا -، حتى تفاجئوا بجيش الفرس أمامهم، إذ كانوا يظنون أنه أبعد من ذلك، فقالوا: نرجع، خوفًا من أن يُنذِرَ بهم العدو، إلا طليحةُ ﷺ فقد أبى إلا أن يتم المهمة التي كُلِّفَ بها!.

---

١- حياة الصحابة (٢/٢٨٠).



obeikandl.com

وبالفعل عاد الستة الرجال إلى جيش المسلمين، واتجه طليحة رضي الله عنه وحده ليقتحم جيش الفرس في مهمة مستحيلة أو كما يُسمِّيها الغرب (Mission Impossible)!.

التفَّ طليحة حول الجيش، وجعل يتخيَّر الأماكن التي بها مستنقعات مياه، ثم مضى يعارِضُ المياه على الطُّفُوفِ، فاجتاز مقدمة الجيش المكونةِ من أربعين ألف مقاتل، ثم قَلَبَ الجيشِ، حتى أصبح داخل معسكر رستم، معسكر رستم الذي يضم قُرابةَ ثمانين ألف مقاتل ومثلهم من الخدم والحرس!، وبات ليلةً يجوس ويتخبَّر، فلما أدبر الليل، أتى أفضل من توسَّم في ناحية العسكر، فإذا فرسٌ له لم يَر في خيلِ القومِ مثلَه، وفسطاطٌ – بيت يُتَّخَذُ من الشَّعَر كالخيمة – أبيضٌ لم يَر مثله، فعلم أن هذا الفرس لرستم، وأن هذا الفسطاط هو فسطاطه، فانتضى سيفه، ثم قطع مِقْوَد الفرس وضمه إلى مِقْوَدِ فرسه، وقطع حبال الفسطاط حتى سقط الفسطاط على رستم ومن معه بداخله، ثم حَرَّك فرسه وخرج يعدو به، وكان يقصد من ذلك أن يهين الفرس، ويلقي الرعب في قلوبهم!.

وعندما هرب بالخيل تبعه فرسان الفرس، فكان كلما اقتربوا منه أسرع، وكلما ابتعدوا عنه تباطأ حتى يُطمِعَهُم في اللحاق به، حتى يستدرج أحدهم ويذهب به إلى سعد كما أراد!.

فأصبح وقد لحقه فارسٌ من الجند، فلما تمكن من طليحة وصوَّبَ له الرمحَ ليطعنه عَدَلَ طليحة فرسه، فأصبح الفارسي بين يديه، فكَرَّ عليه طليحة، فقصم ظهره بالرمح، ثم لحق به آخر، ففعل به مثل ذلك، ثم لحق به آخر، وقد رأى مصرع صاحبيه– وهما ابنا عمه– فازداد حنقًا، فلما لحق بطليحة، وصوَّب له الرمح، عَدَلَ

طليحة فرسه، فأصبح الفارسي أمامه، وكرَّ عليه طليحة، ودعاه إلى الإسار، فعرف الفارسي أنه قاتله فاستأسر، وأمره طليحة أن يركض بين يديه، ففعل ولحق الناس فرأوا فارسي الجند قد قُتِلا وقد أُسِرَ الثالث، وقد شارف طُليحةُ عسكرهم، فأحجموا عنه، ونكسوا، وأقبل طليحة حتى غشي عسكر المسلمين، وهُم على تعبئة، فأفزع الناس، وأدخلوه إلى سعد، فلما انتهى إليه، قال له سعد: ويحك ما وراءك؟! قال: دخلت عساكرهم وجُسْتُها منذ الليلة، وقد أخذت أفضلهم توسُّمًا، وما أدري أصبت أم أخطأت! وها هو ذا فاستخبره، فأقيم الترجمان بين سعد وبين الفارسي ليترجم الحديث، فقال له الفارسي: أتؤمنُني على دمي إن صدقتك؟

قال: نعم، الصدق في الحرب أحب إلينا من الكذب، فلما سأله سعد عن خبر الفرس، قال الفارسي: أخبركم عن صاحبكم هذا قبلَ أن أخبركم عمَّن قِبَلي، - فانظر ماذا قال؟! -

باشرتُ الحروب وغشِيتُها، وسمعتُ بالأبطالِ ولقِيتُها، منذ أنا غلام إلى أن بلغتُ ما ترى، ولم أر ولم أسمع بمثل هذا، أن رجلًا قطع عسكرين لا يجترئ عليهما الأبطال إلى عسكر فيه سبعون ألفًا، يخدم الرجلُ منهم الخمسةَ والعشرةَ إلى ما هو دون، فلم يرضَ أن يخرج كما دخل حتى سَلَبَ فارسَ الجندِ، وهتكَ أطنابَ بيته فأنذَرَه، فأنذَرَنَا به، فطلبناه، فأدركه الأول وهو فارس النَّاس، يعدل ألف فارس فقتله، فأدركه الثاني وهو نظيرُه فقتله، ثم أدركتُهُ، ولا أظن أنني خلَّفتُ بعدي من يعدِلُني وأنا الثائر بالقتيلين، وهما ابنا عمي، فرأيتُ الموت فاستأسرت!.

ثم أخبره عن أهل فارس، بأن الجند عشرون ومائة ألف، وأن الأتباع مثلهم خدام لهم، وأسلم الرجلُ وسماه سعدٌ مسلمًا،

وعاد إلى طُليحة، وقال: لا والله، لا تُهزمون ما دمتم على ما أرى من الوفاء والصدق والإصلاح والمؤاساة، لا حاجة لي في صحبة فارس، فكان من أهل البلاء يومئذٍ مع المسلمين، لأنه فارسي يعرف الفرس جيدًا، كما أنه بألف فارس[1].

فدخل طُليحةُ متحديًا جيشًا فيه ضعفُ المائة وعشرين ألفًا، فأذلهم وأهانهم، وأفزعهم وأهالهم، وزلزل أركانهم، ثم ولَّى يتلاعبُ بهم، فقتل فارسين، الفارس منهما بألف فارس، وأسر الثالث الذي هو كذلك بألف فارس، فأصبح يعدل ألفي فارس، وثلاثة آلاف فارس، بل إن شئتَ قل: يعدل مائةً وعشرين ألف فارس!.

obeikandl.com

١- تاريخ الطبري (٣/ ٥١٢ : ٥١٤).

## عاصم بن عمرو

إنه بطلُ الأبطال، وقائدُ كتيبةِ الأهوال، ومُسَمِّلُ الأفيال...

إنه الأسطورةُ عاصم بن عمرٍو التميمي، أخو الأسطورة القعقاع بن عمرٍو التميمي، والذي سيأتي ذكره في فصلٍ استثنائي..

وفي الحقيقة كنت أنتوي أن أؤخر الحديث عنه، حتى أُلحِقَه بأخيه في فصلٍ واحدٍ، كما سيكون الحالُ مع الأخوين بربروسا، - على الرغم أنني قد قمت بالفراغ من الكتابة عن أخيه القعقاع مسبَقًا في أوائل من كتبت في هذا الكتاب، إذ لم أُطِق أن أنتظر حتى يحين دوره -، والسبب في هذه النية أنَّهما تشاركا وأجادا وأبليا في ملاحم عظيمةٍ من ملاحم الإسلام، كمعركة القادسية، وفتح المدائن وغيرها، تجلَّت فيها إبداعاتهما، وإن كان ذكرهما مع بعضِهما لا يُقَلِّلُ البتة من أيٍّ منهما، إلا أنَّ كلَّ واحدٍ منهما أسطورةٌ بذاته!.

ففي وقعة (المذار) في شهر صفر من السنة الثانية عشرة من الهجرة:

بَرَزَ نجمُ عاصمٍ كبطل من الأبطال الأفذاذ، وقام بقتل (أنوشجان) الذي كان قائدًا عظيمًا من قواد الفرس!.

وكذلك في السنة الثانية عشرة، أرسله خالد إلى أكيدر بن عبدالملك في طائفة من الفرسان، فأسره وأخذه وسلَّمه إلى خالد!.

وبعد معركة (كسكر) وجَّهه أبو عبيدة إلى نهر (جور) فهزم الفرس!.

وغير ذلك الكثير والكثير من البطولات التي لا يتسع المقام لذكرها.

**أما في القادسية...**

قبل بدء المعركة، وأثناء المفاوضات مع كسرى، غضب كسرى في نهاية المفاوضات على المفاوضين المسلمين، ثم استدعى بوِقْرٍ من تراب فقال لرجاله: احملوه على أشراف هؤلاء، ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن، ثم قال للمسلمين: ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أني مرسل إليه رستم حتى يدفنه ويدفنكم معه في خندق القادسية، ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم بأنفسكم بأشد مما نالكم من سابور.

فقام عاصم بن عمرو ليأخذ التراب وقال: أنا أشرفهم، أنا سيد هؤلاء. فحمله على عنقه وخرج إلى راحلته فركبها، وأخذ التراب وقال لسعد: أبشر فوالله لقد أعطانا الله أقاليد ملكهم!.

واشتدَّ ذلك على جلساء الملك، وقال الملك لرستم، وكان قد حضر عنده من ساباط: ما كنت أرى أن في العرب مثل هؤلاء، ما أنتم بأحسن جوابًا منهم، ولقد صدقني القوم، لقد وعدوا أمرًا لَيُدْرِكُنَّهُ أو ليموتُنَّ عليه، على أني وجدت أفضلهم أحمقهم حيث حَمَلَ التراب على رأسه. فقال رستم: أيها الملك، إنه أعقلهم. وتطيَّر إلى ذلك وأبصرَهَا دونَ أصحابِه، وخرج رستم من عند الملك غضبانًا كئيبًا، وبعث في أثر الوفد وقال لثقته: إن أدركهم الرسول تلافينا أرضنا، وإن أعجزه سَلَبَكُم اللهُ أرضكم، فرجع الرسول من الحيرة بفواتهم، فقال: ذهب القوم بأرضكم من غير شك. وكان منجمًا كاهنًا![1].

---

١- الكامل في التاريخ (٢/ ٢٩٣، ٢٩٤).

فكانت نتيجة تلك المفاوضات بداية النصر، إذ كانت نصرًا معنويًا كبيرًا للمسلمين على الفرس، لا سيما ما فعله عاصم.

وعندما نشب القتال بين المسلمين والفرس، برز عاصمٌ في اليوم الاول من أيام المعركة بروزًا جعله سيد الموقف بلا منازع، فقد كان أحد ذوي الرأي والنجدة، الذين أرسلهم سعد لتحريض الناس على القتال، فأجرى الله الحقَّ على لسانه، فقال هنا وهناك قولًا عظيمًا، هيَّج به المشاعر، وألهب النفوس، ورفع الهمم، حتى وصلت إلى القمم!.

وخرج عاصم أمام مواقع بني تميم، فطارد رجلًا من العجم، فهرب منه، فتبعه عاصم حتى خالط صفَّهم، فالتقى بفارس معه بغلٌ، فترك الفارسُ البغلَ، واعتصم بأصحابه، فاحتمى بهم، واستاق عاصمٌ البغل والرَّحل، وكشف عن الغنيمة، فإذا ذلك الرجل هو خبَّاز أو طبَّاخ رستم، وإذا ذلك الذي كان معه: طعامه من الأخبصة والعسل المعقود، فتغدَّى عاصم ومن معه يومها بغداء رستم!.

ثم حدث ما لم يكن في الحسبان...

إذ حملت الفيلة - فيلة الفرس التي كانوا يقاتلون بها – على الميمنة والميسرة، وأحجمت خيول المسلمين، وبقيَ المشاةُ يقاتلون وحدهم!.

في ذلك الموقف العصيب أرسل سعد إلى عاصم، وقال له: يا معشر بني تميم، ألستم أصحاب الإبل والخيل! أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة؟! فقال عاصم: بلى والله، ثم نادى في رجالٍ من قومه رُمَاة، وآخرين لهم ثقافة، فقال لهم:

يا معشر الرماة ذُبُّوا - أبعدوا - ركبان الفيلة عنهم بالنَّبْل، وقال: يا معشر أهل الثقافة استدبروا الفيلة فقطعوا وُضُنَهَا - أحزمتها -، وخرج يحميهم، والرَّحى تدور

على بني أسد، وقد جالت الميمنة والميسرة غير بعيد، وأقبل أصحاب عاصم على الفيلة، فأخذوا بأذنابها وذباذب توابيتها، فقطعوا وُضُنَها، وارتفع عواؤهم، فما بقي لهم يومئذ فيل إلا أعري، وقُتِلَ أصحابها، وتقابل الناس ونُفِّسَ عن بني أسد، وردوا فارس عنهم إلى مواقفهم، فاقتتلوا حتى غربت الشمس ثم حتى ذهبت هدأة من الليل، ثم رجع هؤلاء وهؤلاء، وأصيب من بني أسد تلك العشية خمسمائة، وكانوا رِدْءًا للناس، وكان عاصم عاديَّةَ الناس وحاميتهم، وهذا يومها الأول وهو يوم أرماث![1].

وفي اليوم الثالث من أيام القادسية:

لمَّا رأى سعدٌ الفيلة تفرِّقُ الناس، وعادت لفعلها يوم أرماث، سأل: هل لها مَقَاتِل؟ فقيل له: نعم، المشافر - جمع مشفر وهو خرطوم الفيل - والعيون لا يُنْتَفَعُ بها بعدها، فأرسل إلى القعقاع وأخيه عاصم: أن اكفياني الفيل الأبيض، وكان بإزائهما، فأخذ القعقاع وعاصم رمحين أصمين ليِّنين ودنوا في خَيْلٍ ورَجُل، وقالا: اكتنفوه لتُحَيِّرُوه، وفعل الآخران مثل ذلك، فلما اكتنفَ الفيلان نظر كل واحدٍ منهما يمنة ويسرة وهما يريدان أن يتخبَّطَا، فحمل القعقاع وعاصم، والفيل الأبيض متشاغل بمن حوله فوضعا رمحيهما معًا في عينيه، وقبع ونفض رأسه فطرح سائسه ودلَّى مشفره، فنفخه القعقاع - قطعه - ورمى به ووقع لجنبه، وقتلوا كل من كان عليه![2].

فلله درُّ عاصم مُسَمِّل عين الفيل، ولله درُّ القعقاع قاتِلِ الفيل...

ولما هربت الفيلة، أخذ أبطال المسلمين يضيِّقون الخناق على الفرس، وكان أبرز هؤلاء الأبطال، الأسطورة عاصم بن عمرو!.

---

١- تاريخ الطبري (٣/٥٤٠).

٢- تاريخ الطبري (٣/٥٥٥).

وفي ليلة (الهرير).. هزم عاصم قائد الفرس الذي كان بإزائه، وسحق قواته![1].

ولله درُّ من قال عن عاصم: كانت له في القادسية مقاماتٌ محمودة، وبلاءٌ حسن![2].

أمَّا في فتح المدائن، فكانت قصة (كتيبة الأهوال)...

لما فتح سعدٌ نهر شير واستقر بها، وذلك في صفة لم يجد فيها أحدًا ولا شيئًا مما يُغْنَم، بل قد تحولوا بكمالهم إلى المدائن وركبوا السفن وضموا السفن إليهم، ولم يجد سعدٌ ﷺ شيئًا من السفن وتعذَّرَ عليه تحصيل شيء منها بالكلية، وقد زادت (دجلة) زيادةً عظيمةً واسودَّ ماؤها، ورمت بالزَّبَدِ من كثرة الماء بها، وأُخْبِرَ سعدٌ بأن كسرى يزدجرد عازم على أخذ الأموال والأمتعة من المدائن إلى حُلْوَان، وأنك إن لم تدركه قبل ثلاث فات عليك وتفارط الأمر. فخطب سعدٌ المسلمين على شاطئ (دجلة)، فحمد الله وأثنى عليه وقال: إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون إليهم معه، وهم يخلصون إليكم إذا شاءوا فينا وشونكم في سفنهم، وليس وراءكم شيءٌ تخافون أن تُؤتَوا منه، وقد رأيتُ أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا، ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم!.

فقالوا جميعًا: عَزَمَ اللهُ لنا ولك على الرشد فافعل.

فعند ذلك ندب سعدٌ الناس إلى العبور ويقول: من يبدأ فيحمي لنا الفراض- يعني ثغرة المخاضة من الناحية الأخرى- ليجوز الناس إليهم آمنين؟ فانتدَبَ عاصمُ بن عمرو وذو البأس من الناس قريبٌ من ستمائة، فأمَّرَ سعدٌ عليهم عاصم بن عمرو، فوقفوا على حافة (دجلة) فقال عاصم: من ينتدب معي لنكون قبل الناس دخولًا في هذا البحر فنحمي الفراض من الجانب الآخر؟ فانتدَبَ له ستون من الشجعان

١- تاريخ الطبري (٣/٥٦١).

٢- الإصابة (٤/٦).

المذكورين، وهم الذين أطلق عليهم اسم (كتيبة الأهوال)- والأعاجم وقوفٌ صفوفًا من الجانب الآخر- فتقدم عاصمٌ وقد أحجم الناس عن الخوض في (دجلة)، فقال:

أتخافون من هذه النطفة؟ ثم تلا قوله تعالى "وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتاباً مُؤَجَّلا"[1]. ثم أقحم فرسه فيها واقتحم الناس، وقد افترق السِّتُّون فرقتين أصحاب الخيل الذكور، وأصحاب الخيل الإناث.

فلما رآهم الفرس يطفون على وجه الماء قالوا: دبوانا دبوانا - يقولون مجانين مجانين -. ثم قالوا: والله ما تقاتلون إنسًا بل تقاتلون جِنًّا. ثم أرسلوا فرسانًا منهم في الماء يلتقون أول المسلمين ليمنعوهم من الخروج من الماء، فأمر عاصمٌ بن عمرو أصحابه أن يشرعوا لهم الرماح ويتوَّخُوا الأعين، ففعلوا ذلك بالفُرْس فقلعوا عيون خيولهم، فرجعوا أمام المسلمين لا يملكون كَفَّ خيولهم - منعها ولا السيطرة عليها - حتى خرجوا من الماء، واتَّبَعَهُم عاصمٌ وأصحابه فساقوا وراءهم حتى طردوهم عن الجانب الآخر، ووقفوا على حافة الدجلة من الجانب الآخر، ونزل بقية أصحاب عاصم من الستمائة في دجلة فخاضوها حتى وصلوا إلى أصحابهم من الجانب الآخر فقاتلوا مع أصحابهم حتى نفوا الفرس عن ذلك الجانب، وكانوا يُسَمَّونَ كما ذكرتُ الكتيبة الأولى (كتيبة الأهوال)، وأميرها عاصم بن عمرو، والكتيبة الثانية (الكتيبة الخرساء) وأميرها القعقاع بن عمرو[2].

وهنا يقف التاريخ، وبأحرف من نور يُسَجِّلُ لعاصم معجزة عسكرية، يقف العقل والقلب معًا أمامها وقفة إكبار وإعجاب![3].

---

١- (آل عمران: ١٤٥).

٢- البداية والنهاية (٦٥/٧).

٣- فرسان النهار من الصحابة الأخيار للعفاني (١٦٥/٥).

كل هذا وغيره الكثير والكثير، من البطولات المشهودة، والمواقف المعهودة التي أَبْلَى فيها الأسطورة عاصمٌ بن عمرو، هو وأخوه الأسطورةُ القعقاع بن عمرو، ضاربين ومجسدين أروع الأمثلة في الثبات والقوة، والإقدام والشجاعة، والتفاني والبسالة، والذكاء والعبقرية، ليُسَطِّروا أسمائهم بحروف من نورٍ في سجل الأساطير الخالدة عبر التاريخ.

كما كان عاصمٌ كأخيه القعقاع، معجزةً في الشِّعْرِ من المعجزات، وله كثيرٌ وعظيمٌ أبيات، من أشعار الفتوحات والانتصارات، ليكون كلٌّ منهما شاعرَ الفرسان، أو فارسَ الشعراء!.

obeikandl.com

obeikandl.com

# قراقوش
## (الأسطورة المظلومة)

هو بالفعل كغيره ممن ذكرنا أسطورة مشهورة معروفة لا تحتاج إلى إثبات، لكنه كبعضهم، أسطورةٌ مظلومة، بل إن شئتَ قل: أسطورةٌ مُشوَّهَة!.

فهو بالفعل أسطورة، إذ ليس أشهرُ من القولِ الشائع - لا سيِّما عند المصريين - عند ضرب المثل للظلم والقسوة في الحكم: (حكم قراقوش)!.

لكنه أسطورةٌ مظلومة، فقد ظُلِمَ (قراقوش) حَيًّا ومَيِّتًا!.

فالذي شاع واشتُهِر عن قراقوش أنه كان طاغيةً ظالمًا، يُضرب به المثلُ في البغي والظلمِ والإجحافِ والقسوةِ في الأحكام، وعلى جانب آخر صوَّرت بعضُ المصادر قراقوش كمثال للسذاجة والبَلَه، وحُكِيتْ عنه حكاياتٌ تشير إلى شخصٍ أحمقٍ وغبيٍّ ويثيرُ الضحك، والبعض يتصور أن قراقوش شخصيَّةٌ وهميةٌ لا وجود لها!.

لكنَّ الحقيقة غير ذلك...

فقد كان قراقوش في الحقيقة أسطورة من أساطير العدل والعطاء، والإخلاص والوفاء، والشجاعة والإباء، والعبقرية والذكاء، والتنمية والبناء، والهمة العلياء!.

إنه الأمير الوفي، والقائد العسكري، والمهندس العبقري، الأمير بهاء الدين بن عبدالله الأسدي، وزير صلاح الدين الأيوبي...

الذي كان شخصه مثالًا للعدل، ومثالاً للعطاء بلا حدود، وكان واحدًا من ثلاثةٍ بَنَى عليهم صلاح الدين الأيوبي أركان حكمه، لأنه كان قائدًا عسكريًّا كبيرًا، وكان

مشهورًا بصبره وجلده وعزيمته الفولاذية التي لا تلين، إضافةً إلى مواهبه الهندسية التي كشفت عنها أعماله.

قال عنه ابن إياس في (بدائع الزهور): كان قراقوش القائم بأمور الملك، يسوس الرعية في أيامه أحسن سياسة، وأحبته الرعية ودعوا له بطول البقاء.

وقال عنه ابن خلكان في (وفيات الأعيان): كان حسن المقاصد، جميل النية، وكان له حقوق كثيرة على السلطان وعلى الإسلام والمسلمين.

أما ابن تغري بردي فقال عنه في (النجوم الزاهرة) عند ذكره صلاح الدين الأيوبي: وكان وزيره بمصر الصاحب بهاء الدين قراقوش، صاحب الحارة المعروفة بسويقة الصاحب القديمة في الجامع الحاكمي، وكان رجلاً صالحًا غلب عليه الانقياد إلى الخير، وكان السلطان يعلم منه الفطنة والنباهة، وكان إذا سافر السلطان من مصر إلى الشام في زمان الربيع كما هي عادته كل سنة، يفوض إليه أمر البلاد، لكنه في سنة إحدى وستين وخمسمائة حكمها منفردًا من غير مشاركة؛ لوفاة ولي العهد المشارك له في ذلك، فلم يستقم له الحال، ووضعت عليه الحكايات المضحكة.

فقد كان (قراقوش) في البداية خادمًا لأسد الدين شيركوه، ثم أسلم على يد سيِّده أسد الدين، وأصبح اسمه بهاء الدين عبد الله الأسدي، وأعتقه بعد ذلك، وصار مشهورًا بالأمير بهاء الدين قراقوش، وأصبح بعد ذلك من كبار أمراء أسد الدين شيركوه، وأيضًا من كبار قادة جيشه.

ولما تُوفِّي أسد الدين، انتقل (قراقوش) الذي أصبح قائدًا عسكريًا كبيرًا، إلى خدمة ومعاونة صلاح الدين الأيوبي، فأصبح من كبار وزرائه وأمرائه، بل أحد الثلاثة الذين كان صلاح الدين الأيوبي يقيم أركان حكمه عليهم، وهم: الفقيه عيسى الهَكَّاري،

والقاضي الفاضل، وقراقوش. وكان هؤلاء الثلاثة هم وراء تثبيت دعائم دولة صلاح الدين الجديدة، ومن بين الثلاثة برز قراقوش وتميَّز عن الجميع، فكان دوره كبيرًا في السيطرة على حالة الفوضى التي عمَّت في مصر بعد موت الخليفة العاضد ومحاولة بعض رجاله الدخول في صدام مع صلاح الدين لبقاء مصر تحت راية الفاطميين. لكنَّ قراقوش تمكن من السيطرة على الموقف، فقام بنقل أسرة العاضد من قصر الخلافة إلى منزل الأمير برجوان، صاحب الحارة التي تعرف باسمه حتى يومنا هذا بالقاهرة، وعزل النساء عن الرجال من أسرة العاضد، كما قام ببيع العبيد والجواري، وسيطر على ثروة القصر الفاطمي الذي كان به ثروة لم تتوفر لأي ملك من ملوك الدنيا قبل ذلك.

ثم تجلَّت مواهبه وعبقريته الهندسية في مصر، فقام ببناء (قلعة الجبل) على جزء مرتفع من الأرض منفصل عن جبل المقطم بالقاهرة، ثم قام ببناء (قلعة المقياس) بجزيرة الروضة، ثم (سور مجرى العيون) الذي ينقل المياه من فم الخليج حتى القلعة، وهو عمل هندسي عظيم بكل المقاييس لما فيه من دقة وحرفية هندسية عالية، وبنى القناطر التي بالجيزة على طريق الأهرام، ثم شرع في بناء سور عظيم يحيط بالقاهرة والجيزة، أحجاره من صحراء الهرم، لكنه مات قبل أن يُتِّمَه!.

أما في الشام، وبالتحديد في عكا، فبعد انتصار صلاح الدين على الصليبيين ونجاحه في طردهم من بيت المقدس، واصل زحفه حتى استولى على واحد من أهم وأكبر حصونهم في الشام، وهو حصن عكا، بعد أن دفع فيه ثمنًا غاليًا من المال والشهداء، وكان الحصن قد تهدمت منه أجزاء كثيرة أثناء المعارك، ورأى صلاح الدين أن يترك عكا وحصنها أمانة في يد قراقوش، ويذهب هو ليواصل زحفه لامتلاك

حصون الصليبيين الأخرى، قبل أن يفيقوا من هزيمتهم في عكا. وبقي قراقوش حارسًا للمدينة مع حامية صغيرة، وواصل الليل بالنهار يبني ويرمم ما تهدَّم من سور المدينة وحصنها، وعكف على هذا العمل بهمةٍ لا تعرف الملل، وعزيمة لا تعرف الكلل.

ولما توفي صلاح الدين الأيوبي، ظلَّ قراقوش على وفائه مع ابنه العزيز، يحمي عرش مصر والشام، ثم كان وصيًّا على عرش المنصور، ومارس كل مهام السلطنة بهذه الصفة، إلى أن أعفاه منها الملك العادل أخو السلطان صلاح الدين، وبعدها لزم بيته حتى توفاه الله عام ١٢٠١م!.

أما سبب هذا الظلم والإجحاف الذي تعرض له (قراقوش) فهو بسبب كتابٍ ألَّفَهُ أحدُ معاصريه (الأسعد بن مماتي) نِقمةً عليه، بعنوان (الفاشوش في أحكام قراقوش)، وفيه من القصص والأحاديث والتشويه ما جعله ينتقل من قائمة المحاربين والمهتمين بالعمارة إلى قائمة الحمقى والمغفلين والطغاة!.

وعلى الرغم من قسوة التهم التي تعرض لها (قراقوش) إلا أنها رُبَّمَا كانت سببًا في شهرته وتداول اسمه بين الناس، مما دفع بالكثير من المؤرخين إلى التطرق إلى سيرته ونفي ما يُنسب إليه من أحكام.

ومن الكتب التي صدرت حديثًا في ذلك على سبيل المثال لا الحصر (قراقوش المظلوم حيًّا وميِّتًا) للأستاذ/ صالح محمد الجاسر، الذي تطرق في مقدمته إلى ما تعرضت له سيرة العديد من أعلام المسلمين من تشويه وانتقاص، وتطرق إلى ما تعرضت له شخصية بهاء الدين قراقوش من تشويه، مُدافعًا عنه، ومُبْرِزًا حقيقته وعظمته.

إلى جانب العديد من المقالات التي دافعت عنه وأنصفته كـ: قراقوش ما زال حيًّا، قراقوش وتشويه تاريخ عظماء الأمة، قراقوش بين الواقع والأسطورة، عذراً قراقوش، اللوذعي الألمعي.. بهاء الدين قراقوش، قراقوش عبقريةٌ ظلمها التاريخ... إلخ من مقالات الوفاء، لِكُتَّابِها الفضلاء.

وأختم بشهادة الأسطورة (صلاح الدين الأيوبي)، في حق أسطورة هذا الفصل الأسطورة (قراقوش)، عندما عَهِدَ إليه ببناء سور عكا، حيث قال صلاح الدين: ما أرى لكفاية الأمر المهم، وكف الخطب الملم، غير الشهم الماضي السهم، والمضيء الفَهم، الهمام المحرب، النقاب المجرب، المهذب اللوذعي، المرجب الألمعي، الراجح الرأي، الناجح السعي، الكافي، الكافل بتذليل الجوامح، وتعديل الجوانح، وهو الثبت الذي لا يتزلزل، والطود الذي لا يتحلحل، بهاء الدين قراقوش، الذي يكفل جأشه بما لا تكفل به الجيوش![1].

---

١- وفيات الأعيان لابن خلكان، النجوم الزاهرة، البداية والنهاية، الفتح القسي في الفتح القدسي للعماد الأصفهاني، صلاح الدين الأيوبي لجمال الدين الرمادي، قراقوش ما زال حيًّا لمشعل الزعبي، قراقوش وتشويه تاريخ عظماء الأمة لنظمي خليل أبو العطا، قراقوش بين الواقع والأسطورة لمحمد علي محيي الدين، عذراً قراقوش لعي أحمد البغلي، اللوذعي الألمعي.. بهاء الدين قراقوش لأشرف صالح، قراقوش عبقرية ظلمها التاريخ لمحسن محمود خضر.



obeikandl.com

obeikandl.com

# عبَّاد بن بشر
## (الأسطورة الصابر)

لا أكون مبالغًا إن قلتُ إن العقل يقف مذهولًا أمام سيرة وقصة هذا البطل الأسطوري النادر.

هو أسطورةٌ بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ سَمِيَّة، وليس كذلك أسطورةً عادية، بل أسطورةٌ من طرازٍ فريدٍ وطينةٍ أبيَّة...

إنه الصحابيُّ البدريّ، الإمام أبو الربيع الأنصاريّ، عبَّادُ بن بشر الأشهلي..

هذا الرجل الذي كان إلى جانب بطولاته المشهودة، ومواقفه المحمودة، له وافر النصيب من اسمه في عبادته المعهودة، ومن الكرامات المنشودة..

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: تَهَجَّدَ النَّبِيُّ ﷺ فِي بَيْتِي، فَسَمِعَ صَوْتَ عَبَّادٍ يُصَلِّي فِي المَسْجِدِ، فَقَالَ: "يَا عَائِشَةُ أَصَوْتُ عَبَّادٍ هَذَا؟"، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: "اللَّهُمَّ ارْحَمْ عَبَّادًا"[1].

أما الكرامة العظيمة:

فَعَنْ أَنَسٍ، «أَنَّ أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ، وَعَبَّادَ بْنَ بِشْرٍ كَانَا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي لَيْلَةٍ ظَلْمَاءَ حِنْدِسٍ، قَالَ: فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ أَضَاءَتْ عَصَا أَحَدِهِمَا فَكَانَا يَمْشِيَانِ بِضَوْئِهَا، فَلَمَّا تَفَرَّقَا أَضَاءَتْ عَصَا هَذَا وَعَصَا هَذَا»[2].

الله أكبر ...

---

١- رواه البخاري (٢٥١٢).

٢- رواه أحمد (١٢٩٨٠) وابن حبان (٢٠٣٢) ورواه البخاري تعليقًا (٣٨٠٥) وصححه الألباني.

أمَّا عن شجاعته وبطولاته وثباته، فحَدِّث ولا حرج..

فقد شهد بدرًا، وأحدًا، والخندق، والحديبية، وحُنينًا، وتبوك، وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ.

وقد أوجز الذهبي معالم وملامح الإقدام والبسالة والشجاعة فيه قائلًا: كان أحد الشجعانِ الموصوفين!.

إذ كان بشدة البأس موصوفًا، وبالشجاعة معروفًا، حتى قال عمر ﷺ لرسول الله ﷺ في غزوة بني المصطلق: يَا رَسُولَ اللَّهِ مُرْ عَبَّادَ بْنَ بِشْرٍ فَلْيَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ - يعني عبدالله بنَ أبيٍّ بنَ سلول -[1].

وفي غزوة تبوك جعله النبي ﷺ على حرسه.

وفي غزوة الأحزاب تولى عباد حراسة قبة رسول الله ﷺ.

كما كان ممن شارك في تلك العملية الفدائية العظيمة، عملية قتل الفاجر الأفاك (كعب بن الأشرف اليهودي) الذي كان يؤذي الله ورسوله والمؤمنين.

أما في غزوة ذات الرقاع.. فهاكَ المشهد الذي سطره التاريخ:

عَنْ جابرِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ الأَنْصَارِيِّ ﷺ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ مِنْ نَخْلَ، فَأَصَابَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ امْرَأَةً مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَلَمَّا انصرف رسولُ الله ﷺ قَافِلًا أَتَى زَوْجُهَا وَكَانَ غَائِبًا، فَلَمَّا أُخْبِرَ الْخَبَرَ، حَلَفَ أَلا يَنْتَهِيَ حَتَّى يُهْرِيقَ فِي أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ دَمًا، فَخَرَجَ يَتْبَعُ أَثَرَ رَسُولِ الله ﷺ، فنزل رسولُ الله ﷺ مَنْزِلًا، فَقَالَ: مَنْ رَجُلٌ يَكْلَؤُنَا - يحرسنا - لَيْلَتَنَا هَذِهِ؟ فَانْتُدِبَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ،

---

١- تاريخ الإسلام (١/١٧٣)، وسير أعلام النبلاء (١/٤٧١).

فَقَالا: نَحْنُ يَا رَسُولَ اللَّه، قَالَ: فَكُونَا بفم الشِّعْبِ من الْوَادِي، وَهُمَا عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ وَعَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ، فَلَمَّا خَرَجَ الرَّجُلانِ إِلَى فَمِ الشِّعْبِ، قَالَ الأَنْصَارِيُّ - عبَّاد - لِلْمُهَاجِرِيِّ - عمَّار -، أَيُّ اللَّيْلِ تُحِبُّ أَنْ أَكْفِيَكَهُ؟ أَوَّلَهُ أَوْ آخِرَهُ؟ قَالَ: بَل اكْفِنِي أَوَّلَهُ، فَاضْطَجَعَ الْمُهَاجِرِيُّ فَنَامَ، وَقَامَ الأَنْصَارِيُّ يُصَلِّي - الذي هو عبَّاد -، وَأَتَى زَوْجُ الْمَرْأَةِ، فَلَمَّا رَأَى شَخْصَ الرَّجُلِ عَرَفَ أَنَّهُ رَبِيئَةُ الْقَوْمِ - أي عينهم وحارسهم -، فَرَمَى بِسَهْمٍ فَوَضَعَهُ فِيهِ، فَنَزَعَهُ فَوَضَعَهُ وَثَبَتَ قَائِمًا يُصَلِّي، ثُمَّ رَمَاهُ بِسَهْمٍ آخَرَ فَوَضَعَهُ فِيهِ، فَنَزَعَهُ فَوَضَعَهُ وَثَبَتَ قَائِمًا يُصَلِّي، ثُمَّ عَادَ لَهُ بِالثَّالِثِ فَوَضَعَهُ فِيهِ، فَنَزَعَهُ فَوَضَعَهُ ثُمَّ رَكَعَ وَسَجَدَ، ثُمَّ أَهَبَّ صَاحِبَهُ - أيقظ صاحبه -، فَقَالَ: اجْلِسْ، فَقَدْ أُثْبِتُّ - أو أُتيتُ - قَالَ: فَوَثَبَ الْمُهَاجِرِيُّ، فَلَمَّا رَآهُمَا الرَّجُلُ، عَرَفَ أَنَّهُمْ قَدْ نَذَرُوا بِهِ، وَلَمَّا رَأَى الْمُهَاجِرِيُّ مَا بِالأَنْصَارِيِّ مِنَ الدِّمَاءِ، قَالَ: سُبْحَانَ اللَّه! أفلا، أهبَبْتَنِي أَوَّلَ مَا رَمَاكَ! قَالَ: كُنْتُ فِي سُورَةٍ أَقْرَؤُهَا فَلَمْ أُحِبَّ أَنْ أَقْطَعَهَا حَتَّى أَنْفِدَهَا، فلما تتابع عليَّ الرميُ ركعتُ فَآذَنْتُكَ، وَايْمُ اللَّه لَوْلا أَنْ أُضَيِّعَ ثَغْرًا أمرني رسولُ الله ﷺ بِحِفْظِهِ لَقُطِعَ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَقْطَعَهَا أَوْ أَنْفِدَهَا![1].

الله أكبر.. لله درك يا عباد.. أي قوةٍ هذه؟ وأي ثباتٍ هذا؟ وأي إخلاصٍ وخشوعٍ وورعٍ وعبادةٍ هذه؟ وأي التزامٍ وطاعةٍ لرسول الله تلك؟ وأي حرصٍ وخوفٍ على ثغور الإسلام والمسلمين ذاك؟!

والله إن الكلمات وقواميس اللغات كلها لتقف عاجزة أن تصور روعة وعظمة هذا الموقف.

---

١- تاريخ الطبري (٥٥٨/٢)، والبداية والنهاية (٨٥/٤).

ثم في معركة اليمامة ... وهنا كانت النهاية ... نهاية ذلك البطل الأسطوري العظيم، ولكن بعد بطولة نادرة، وشجاعة ظاهرة، وقتال واستبسال منقطع النظير، وبعد أن قتل بمفرده أكثر من عشرين مشركًا صنديدًا عنيدًا، ثم رزقه الله الشهادة..

إذ رُوِيَ أنه أبلى يومها بلاءً، لم يُرَوَ لأحدٍ مثلُه، وأنه كان يضرب بسيفه حتى ينحني، فيقوِّمُه على ركبته، ثم يبدأ فيضرب به وجوه المرتدين![1].

وقال رافع بن خديج: رأيت عبَّادًا يوم اليمامة، وتقدم إليه رجل من بني حنيفة كأنه جمل، فقال: إليَّ يا أخا الأنصار، أتحسب أنَّا كمنْ لاقيتم في بلدان الحجاز؟! فتقدَّم إليه عبَّاد وهو على ذلك مجروح كثير الجراح، فاختلفا ضربتينْ، فضربه عبَّاد ضربة قطعت رجليه من الساقين، ثم تجاوزه وغادره ينوء على ركبتيه، - أي تركه وهو يزحف على ركبتيه - فناداه الحنفي: أجهز على قتيلك يا ابن الأكارم، فرجع إليه فقتله، ثم برز له آخر فضربه عبَّاد بالسيف على عاتقه مُستمكِنًا ضربةً أبدى سَحْره، - أبان عن رئتيه - ثم تجاوزه يفري في بني حنيفة، فلما رأت ذلك حنيفة، حنقت عليه، فحملوا عليه فضربوه بأسيافهم حتى قتلوه ﷺ.

قال رافع: وإن حنيفة لتذكره، فكان إذا كان بالرجل منهم جراحة يقول: هذا ضربني[2].

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ، أن عبَّادًا قال له يوم اليمامة:

يَا أَبَا سَعِيدٍ، رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ كَأَنَّ السَّمَاءَ قَدْ فُرِجَتْ لِي ثُمَّ أُطْبِقَتْ عَلَيَّ، فَهِيَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ الشَّهَادَةُ، قَالَ: قُلْتُ خَيْرًا وَاللَّهِ رَأَيْتَ.

---

١- الاستبصار (٢٢١).

٢- الاستبصار (٢٢١، ٢٢٢).

قَالَ أبو سَعِيد: فَأَنْظُرُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْيَمَامَةِ وَإِنَّهُ لَيَصِيحُ بِالْأَنْصَارِ: احْطِمُوا جُفُونَ السُّيُوفِ، وَتَمَيَّزُوا مِنَ النَّاسِ، وَجَعَلَ يَقُولُ: أَخْلِصُونَا أَخْلِصُونَا، فَأَخْلَصُوا أَرْبَعُمِائَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ مَا يُخَالِطُهُمْ أَحَدٌ، يَقْدُمُهُمْ عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ وَأَبُو دُجَانَةَ وَالْبَرَاءُ بْنُ مَالِك، حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى بَابِ الْحَدِيقَةِ فَقَاتَلُوا أَشَدَّ الْقِتَالِ، وَقُتِلَ عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ، فَرَأَيْتُ بِوَجْهِهِ ضَرْبًا كَثِيرًا مَا عَرَفْتُهُ إِلَّا بِعَلَامَةٍ كَانَتْ فِي جَسَدِهِ![1].

١- طبقات ابن سعد (٤٤١/٣)، سير أعلام النبلاء (٢٠٥/٣)، حياة الصحابة (١٤٨/٢).



obeikandl.com

obeikandl.com

# محمد بن إسماعيل البخاري

إنه البخاري الإمام صاحب الصحيح، فقيه الأمة وعلم أعلام الحديث، الذي توفي أبوه وربته أمه أيما تربية، فصدق فيها قول القائل: وراء كل رجلٍ عظيم امرأة!.

والذي كُفَّ بصره وهو صغير، فظلت أمه تبكي وتدعو الله من أجل أن يرد عليه بصره حتى تهبه لطلب العلم والدعوة في سبيل الله، فاستجاب الله لها...

قال أَحْمَد بْن الفضل البلْخيّ: ذَهَبَت عينا محمد في صِغَرِه، فرأت أمُّه إِبْرَاهِيم عَلَيْه السَّلَامُ، فقال: يا هذه قد ردّ اللَّه عَلى ابنك بصره بكثرة بُكائك أو دعائك. فأصبح وقد ردّ اللَّه عَلَيْهِ بصره.

إنه البخاري الذي نبغ وتفرد وبدا، وهو لم يجاوز الإحدى عشرة عددًا...

قال أَبُو جعْفَر محمد بْن أَبِي حاتم الورّاق: قلت للبخاريّ: كيف كَانَ بدء أمرك؟ قَالَ: أَلْهِمْتُ حِفْظَ الحديث في المكتب ولي عشر سنين أو أقلّ. وخرجتُ مِنَ الكُتّاب بعد العَشْر، فجعلتُ أختلف إلى الداخليّ وغيره، فقال يومًا فيما يقرأ عَلى الناس: سُفْيَان عَنْ أَبِي الزُّبَيْر عَنْ إِبْرَاهِيم. فقلت لَهُ: إنّ أبا الزُّبَيْر لم يَرْوِ عَنْ إِبْرَاهِيم. فانتهرني، فقلت لَهُ: ارجع إلى الأصل.

فدخل ثمّ خرج، فقال لي: كيف هُوَ يا غلَام؟ قلت: هو الزُّبَيْر بْن عديّ، عَنْ إِبْرَاهِيم. فأخذ القلم منّي وأصلحّه، وقال: صدقت. فقال للبخاريّ بعض أصحابه: ابن كم كنت؟ قَالَ: ابن إحدى عشرة سنة.

إنه البخاري الذي صنف كتاب «التاريخ»، في الليالي المقمرة عند قبر النبي ﷺ، وهو ابن ثماني عشرة سنة!.

إنه البخاري الذي بلغ في علم الحديث مبلغًا عظيمًا - لا أكون مبالغًا إن قلت لم يبلغه على الإطلاق أحد - وهو حديث السن لم ينبت في وجهه شعر...

قال أَبُو بَكْر الأعين: كتبنا عَنِ الْبُخَارِيّ عَلَى باب محمد بْن يوسف الفِرْيابيّ وما في وجهه شَعْرة.

وقال محمد بْن أَبي حاتم ورّاق الْبُخَارِيّ: سَمِعْتُ حاشد بْن إِسْمَاعِيل وآخر يقولَان: كَانَ الْبُخَارِيّ يختلف معنا إلى السَّماع وهو غلَام، فلَا يكتب، حتّى أتى عَلَى ذَلِكَ أيّام. فكنّا نقول لَهُ، فقال: إنّكما قد أكثرتما عليّ، فاعرضا عَلِيّ ما كتبتما. فأخرجنا إِلَيْهِ ما كَانَ عندنا، فزاد عَلَى خمسة عشر ألف حديث، فقرأها كلّها عَنْ ظهر قلب حتى جعلنا نُحكِم كُتُبَنا من حِفْظِه!.

ثمّ قَالَ: أترون أنيّ أختلف هدَرًا وأضيّع أيّامي؟! فعرفنا أنّه لا يتقدمه أحد.

قالا: فكان أهل المعرفة يَعُدُّونَ خلفه في طلب الحديث وهو شابّ حتى يغلبوه عَلى نفسه، ويجلسوه في بعض الطّريق، فيجتمع عَلَيْهِ أُلُوف أكثرهم ممّن يكتب عَنْهُ، وكان شابًّا لم يخرج وجهه.

إنه البخاري الذي كان يحفظ ما يزيد على مائة ألف حديث صحيح، ومائتي ألف حديث غير صحيح.

والذي قال فيه إمام الأئمة ابن خزيمة: ما رأيت تحت أديم السّماء أعلم بالحديث من محمد بْن إِسْمَاعِيل الْبُخَارِيّ.

يُحكَى أنّ الْبُخَارِيَّ قدِم بغداد فاجتمع أصحاب الحديث، وعمدوا إلى مائة حديث

فقلبوا متونها وأسانيدها، وجعلوا متن هذا الإسناد هذا، وإسناد هذا المتن هذا، ودفعوا إلى كلّ واحدٍ عشرة أحاديث ليُلْقوها عَلِيّ الْبُخَارِيّ في المجلس. فاجتمع النّاس، وانتدبَ أحدهم فقال، وسأله عَنْ حديث من تِلْكَ العشرة، فقال: لَا أعرفه. فسأله عَنْ آخر، فقال: لَا أعرفه. حتى فرغ العشرة، فكان الفقهاء يلتفت بعضهم إلى بعض ويقولون: الرجل فَهْم. ومَن كَانَ لَا يدري قضى عَلَيْهِ بالعجز. ثمّ انتدبَ آخر ففعل كفِعْل الأوّل، والْبُخَارِيّ يَقُولُ: لَا أعرفه. إلى أن فرغ العشرة أنفُس، وهو لَا يزيدهم عَلَى: لَا أعرفه.

فلمّا علم أنّهم قد فرغوا، التفتَ إلى الأوّل، فقال: أمّا حديثك الأوّل فإسناده كذا وكذا، والثّاني كذا وكذا، والثّالث... إلى آخر العشرة.

فردّ كلَّ مَتْن إلى إسناده، وفعل بالثّاني مثل ذلك إلى أن فرغ، فأقرَّ لَهُ النّاس بالحِفْظ!.

كما حُكِيَ أنه: كان بسمرقند أربع مائة مما يطلبون الحديث، فاجتمعوا سبعة أيّام وأحبّوا مغالطة محمد بْن إِسْمَاعِيل، فأدخلوا إسناد الشّام في إسناد العراق، وإسناد اليمن في إسناد الحَرَمَيْن، فما تعلقوا منه بسقْطة لَا في الإسناد ولا في المَتْن.

إن هذه العظمة لم تأتِ من فراغ، إنها نتيجة لهمم عالية، وقلوب ونوايا صافية، ونفوس غير متوانية، وجهود متواصلة متوالية...

يَقُولُ البخاري: كتبتُ عَنْ ألف شيخ أو أكثر، عَنْ كلّ واحدٍ منهم عشرة آلاف وأكثر، ما عندي حديث إلَا أذكر إسناده.

وعن محمدِ بْنِ يوسف الْبُخَارِيِّ قَالَ: كنتُ عند محمد بْن إِسْمَاعِيل بمنزله ذات ليلة، فأحصيت عَلَيْهِ أنّه قام وأسرجَ يستذكر أشياء يُعلّقها في لَيْلَة ثمان عشرة مرَّة.

وقال محمد بْن أَبِي حاتم الورّاق: كَانَ أبو عبد الله – البخاري – إذا كنتُ معه

في سفر يجمعنا بيتٌ واحدٌ إلَا في القَيْظ أحيانًا. فكنت أراه يقوم في لَيْلَةٍ واحدةٍ خمس عشرة مرّة إلى عشرين مرّة، في كلّ ذَلِكَ يأخذ القُدّاحة فيُوري نارًا ويُسرج، ثمّ يُخرج أحاديث فيُعَلِّمُ عليها، ثمّ يضع رأسه. وكان يُصلّي وقت السَّحَر ثلَاث عشرة ركعة. وكان لَا يوقظني في كلّ ما يقوم، فقلتُ لَهُ: إنّك تحمل عَلى نفسك في كلّ هذا ولا تُوقظني! قَالَ: أنتَ شابّ ولا أحب أن أفسد عليك نومك.

أما تصنيفه لكتابه العظيم «الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه" – صحيح البخاري –...

يَقُولُ البخاري: كنتُ عند إِسْحَاق بْن راهَوَيْه، فقال رَجُل: لو جمعتم كتابًا مختصرًا للسُّنن، فوقَعَ ذَلِكَ في قلبي، فأخذت في جمع هذا الكتاب.

ثم يُخبِرُ عن شيءٍ من عظمةِ وشرفِ أحداثِ وظروفِ وملابساتِ وكيفِ تصنيفه فيقول:

ما وضعتُ في "الصّحيح" حديثًا إلَا اغتسلت قبل ذَلِكَ وصلّيت رَكْعَتين!.

وعن عِظَمِ الجهد والوقت الذي أُنْفِقَ فيه فيقول كما ثبت:

أخرجتُ هذا الكتاب من نحو ستّمائة ألف حديث!،

وصنَّفته ستَّ عشرة سنة!،

وجعلته حُجّةً فيما بيني وبين اللَّه.

الله أكبر... أي عظمة هذه!

عظمة الكَمِّ، وعظمة الكيف، تجمعت كل أنواع العظمةِ:

عظمة الهمة، وعظمة النية، وعظمة الجهد، وعظمة الوقت، وعظمة اليقين.

فلله درك يا أمير المؤمنين..

قال السبكي في طبقات الشافعية عن البخاري: هو إمام المسلمين، وقدوة الموحدين، وشيخ المؤمنين، والمعول عليه في أحاديث سيد المرسلين، وحافظ نظام الدين.

ولم لا يكون أسطورةً من الأساطير وقد شهد له بالعظمة والتفرد القاصي قبل الداني، والعدو قبل الصديق!

وحسبي قول يحيى بْن جعْفَر البِيكَنْديّ: لو قدرتُ أن أزيد في عُمَر محمد بْن إِسْمَاعِيل من عمُري لَفَعَلْت؛ فإنّ موتي يكون موت رجلٍ واحد، وموته ذَهَاب العِلْم!.

وحسبه هذه الرؤيا العظيمة، والبشارة الكريمة،

قال الفِرَبْريّ: حدَّثني نَجْم بْن الفضل، وكان من أهل الفَهم، قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ في النّوم خرج من قريَة ومحمد بْن إِسْمَاعِيل خلفَه، فإذا خطا خطوة يخطو محمد ويضع قدَمه عَلَى قدمِه ويتبع أثره.

ولم يكن البخاري عظيمًا في العلم فحسب، وإنما كذلك في العبادة والديانة والورع والحياء والشجاعة والكرم...

كَانَ يختم في رمضان كل يوم خَتمة، ويقوم بعد التّراويح كلّ ثلَاث ليالٍ بختمة.

وقال محمد بْن أَبِي حاتم: دُعي محمد بْن إِسْمَاعِيل إلى بستان، فلمّا صلّى بهمُ الظُّهْر قام يتطوّع. فلمّا فرغ من صلَاته رفع ذيل قميصه وقال لبعض من معه: أنظر هَلْ ترى تحت القميص شيئًا؟ فإذا زنبور قد أَبَرَهُ في ستة عشر أو سبعة عشر موضعًا، وقد تورم من ذلك جسده، فقال لَهُ بعض القوم: كيف لم تخرج مِنَ الصّلَاة أوّل ما أَبَرك؟ قَالَ: كنت في سورة فأحببت أن أُتمَّها!.

وقال أيضًا: رَأَيْت أَبَا عَبْد اللَّه استلقى عَلَى قفاه يومًا ونحن بِفرَبْر في تصنيف كتاب "التّفسير" وأتعب نفسه يومئذ، فقلت لَهُ: إنّي أراك تَقُولُ إني ما أتيت شيئًا بغير

علم قطّ منذ عَقَلْت، فما الفائدة في الاستلقاء؟ قَالَ: أتعْبنا أنفُسنا اليوم، وهذا ثغر مِنَ الثغور، وخشيت أنْ يحدثَ حَدَثٌ من أمر العدو، فأحببت أن أستريح وآخُذ أهْبة، فإنْ غافَصَنا العدوّ كَانَ منّا حَرَاك.

وكان يركب إلى الرَّمي كثيرًا، فما أعْلُمني رَأَيْته في طُول ما صحِبْتُه أخطأ سُهمُه الهدفَ إلَا مرَّتين، فكان يصيب الهدف في كلّ ذَلِكَ. وكان لَا يُسبق.

يقول الحافظ الذهبي، في تذكرة الحفاظ عن البخاري: وكان رأسًا في الذكاء، رأسًا في العلم، رأسًا في الورع والعبادة،

ويقول في كتابه العبر: وكان من أوعية العلم يتوقد ذكاء، ولم يخلف بعده مثله رحمة الله عليه[1].

---

١- تاريخ الإسلام (٦/ ١٤٠).



obeikandl.com

# عبادة بن الصامت

«رجلٌ يُعَدُّ في الرجال بألف رجل»

كلمة سطرها التاريخ بحروف من نور، قالها الخليفة الفاروق عمر عندما طلب منه عمرو بن العاص مددًا لإتمام فتح مصر، فأرسل إليه أربعة آلاف رجل، على رأس كل منهم قائد حكيم، وصفهم الخليفة قائلاً: «إني أمددتك بأربعة آلاف رجلٍ، على كل ألف رجل منهم رجلٌ بألف رجل». وكان عبادة بن الصامت واحدًا من هؤلاء الأربعة الأبطال!.

بل إنه كان أحد نقباء الأنصار في بيعة العقبة الثانية التي بايعوا فيها النبي ﷺ على النصرة وعلى ألا يخافوا في الله لومة لائم!.

كما شهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ.

وإليك أسوق صورةً من صور عظمة وقوة هذا الرجل والبطل الأسطوري النادر...

لما وصل عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى مصر ، بعث إلى المقوقسِ حاكمِ مصرَ عشرةَ رجالٍ على رأسهم عبادةُ بن الصامت رضي الله عنه، وجعله مُتَكلِّمَ الوفد، وكان عبادة شديد السواد، مفرط الطول مُهَابَاً - ومع ذا جميلًا -، فلما دخلت رسلُ المسلمين على المقوقس هابهم، وقال: نَحُّوا عني ذلك الأسود وقدموا غيره ليكلمني، فقال الوفد: إن هذا أفضلنا رأياً وعلماً، مقدَّمٌ علينا، نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه، أمَّرَه الأميرُ علينا وأمرنا ألا نخالفه، وإن الأسود والأبيض عندنا سواء، لا يفضُل أحدٌ أحداً إلا بدينه وتقواه،

فأومأ إلى عبادة أن يتكلم في رفقٍ حتى لا يزعجه،

فقال عبادة: إن فيمن خلَّفْتُ من أصحابي ألف رجل كلهم مثلي، وأشد وأفظع سواداً مني، لو رأيتَهم كنتَ أهيبَ لهم مني، ولقد ولَّيتُ وأدبر شبابي وإني مع ذلك - بحمد الله - ما أهاب مائةَ رجل من عدوي لو استقبلوني جميعاً، وأصحابي هم هم - أي مثلي -، رغبتنا وهمتنا الجهادُ في سبيلِ الله لإعلاء كلمة الله، والله ما يبالي أحدنا أكان له قناطيرُ الذهب أم كان لا يملك إلا الدرهم، نعيم الدنيا ليس بنعيم، ورخاؤها ما هو برخاء، بذلك أمرنا الله وعهد إلينا نبينا، تَقَضَّى زمن الحل وهذا زمن العقد.

بعض المواقف يا رجال حرائرٌ ... والبعض يا ابن الأكرمين إماءُ

وقع الكلام منه موقعًا عظيمًا، فقال لأصحابه: هل سمعتم مثل كلام هذا قط؟! لقد هِبْتُ منظره وإن قوله لأهيب عندي من منظره، وما أظن ملكهم إلا سيغلب الأرض كلها!.

الله أكبر

ثم أقبل على عبادة ليسلك معه طريق الإرهاب في قالب النصح، فيقول: قد سمعتُ مقالتك، ولَعَمْري إنكم ما ظهرتم على من ظهرتم إلا بحب الدنيا، ولقد توجَّهَ لقتالكم ما لا يحصى عدده من الروم، ما يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم، فنفرض لكل رجل منكم دينارين، ولأميركم مائة، ولخليفتكم ألفاً، خُذُوها وانقلبوا إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوة لكم به!.

تعجب عبادة من هذه العقلية التي لا تعرف رباً غير المال، ومن هذه النفسية التي بدا الضعف منها والهزال، فهذا الرجل يعلم أن المسلمين ليسوا طلاب دنيا ولا جاه، ويعلم كذلك أنهم قد بلغوا منزلةً تخولهم لملك الأرض كلها، ولكنها محاولة بائسة

يائسة يقدمها معذرة إلى قومه، كما أن الأقزام يحاولون دومًا أن يستنزلوا العظماء من علیائهم، ليشاركوهم أحوالهم وتدني أفكارهم وفعالهم،

فقال عبادة بصوت كله ثقة وإيمان: يا هذا! لا يغرنَّكَ مَن حولَك، لا تغرنَّكَ نفسُك، لا يغرنَّكَ أصحابُك، لعمر الله! ما هذا بالذي تخوفنا به، ولا والله ما هذا بالذي يردُّنَا عما نحن فيه، ولئن قُتِلْنا عن آخرنا كان أمكن لنا في رضوان الله وجنته، والله ما من شيء أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من أن نُقتل لتعلو كلمة الله، والله ما منا رجل إلا وهو يدعو الله صباحَ مساء أن يرزقه الشهادة في سبيله، وألا يردَّهُ إلى أرضه ولا إلى أهله إلا بنصر المسلمين، فانظر فليست إلا خصلة من ثلاث (الإسلام، الجزية، القتال)، اختر أيها شئت، ولا تُطْمِع نفسك في باطل، بذلك أمرني الأمير، وبها أمره أمير المؤمنين وهو عهد رسول الله ﷺ من قبلُ إلينا، هذا ديننا الذي ندين الله به، فانظروا لأنفسكم.

قال المقوقس: أفلا تجيبون إلى خصلة غير هؤلاء الثلاث؟

فوقع قول المقوقس على آذان صماء من عبادة، ورفع يديه يشير إلى السماء مرة ويخفضها إلى الأرض أخرى، ويبعثها حرة لا تضيقُ بكيد العواذلِ واللُّوَم قائلًا: لا ورب هذه السماء، لا ورب هذه الأرض، لا ورب كل شيء، ما لكم عندنا من خصلة غيرها، فاختاروا لأنفسكم!.

عندها أذعن وبدأ يشاور أصحابه، فامتنعوا عن الإسلام، ثم امتنعوا عن الجزية، وقالوا: لئن دفعناها لم نَعدُ أن نكون لهم عبيداً، وللموت خير من هذا،

فقال المقوقس: أجيبوني وأطيعوا القول، والله ما لكم بهم من طاقة، وإن لم تجيبوهم طائعين لتجيبُنَّهم إلى ما هو أعظم منها مكرهين، فأبوا وامتنعوا،

فاقتحم المسلمون عليهم أحدَ حصونهم في هيمنة تكبيرٍ ارتجت لها الأرض معلنة: ألَّا كبرياء في الأرض إلا وكُسِرَت شوكتها، وقُلِبَت ظهراً لبطن، ولم يبق إلا كبرياء الله.

ففُتِحَ حصنهم، وكُسِرَت شوكتهم، وذَلُّوا، فلام المقوقس قومه، وقال: ألم أخبركم؟! أما والذي يُحْلَف به لتجيبُنَّهم إلى ما أرادوا، فلو أن هؤلاء القوم استقبلوا الجبال لأزالوها، وما يقوى على قتالهم أحد!، أطيعوني.

فأذعنوا وذَلوا وخنعوا ودفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون!.

لقد كان ذلك الجيل محتفظاً بشخصيته المتميزة القوية إزاء تلك الحضارات المادية الدنيوية في تلك المعارك، ما فقدوا شيئاً من مبادئهم وقيمهم، عبروا دجلة المادة، وفرات البهرج، فلم تبتلَّ ذيولهم فيها؛ لأنهم عبروها بإيمان بالله عميق، وميزان دقيق، وقيم أهلتهم للعزة والقيادة، والسمو والريادة، فانتزعوا عجلة القيادة من القيم الهابطة، والمفاهيم والعقائد الفاسدة، والمثل المفترأة؛ لأن المواجهة كانت بين القيم والمفاهيم، والمألوف أن تسري سنة الله أن البقاء للأصلح: "فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ"[1][2].

فبقي هؤلاءِ الأساطيرُ وقِيَمُهم، وبقيت أساطيرهم وسيرُهم، تتردد عبر الأزمان يتلوها شَرَفُهُم.

وإلى جانب ذلك من الشجاعة والبأس، فقد كان عبادة كذلك أسطورة في العلم والفهم والعمل:

قال محمد بن كعب القرظي: جمع القرآن زمن النبي خمسةٌ من الأنصار: معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبي بن كعب، وأبو أيوب الأنصاري، وأبو الدرداء!.

١- (الرعد:١٧).

٢- محاضرة السماء والسماوة لعلي القرني بتصرف يسير.

وكان عبادة بن الصامت ﷺ يعلم أهل الصفة القرآن، كما كان أحد الصحابة الذين أسهموا بقدر كبير في تعليم القرآن وتجويده بالشام، وحَدَّثَ بحديثِ رسولِ الله ﷺ وحَدَّثَ عنه خلق كثير، إلى جانب أنه كان أول من ولي قضاء فلسطين.

وقد كان ﷺ ممن ينكر المنكر ولا يخاف في الله لومة لائم:

رُوي أَن عبادة أَنكر على معاوية شيئاً، فقال: لا أُسَاكِنك بأرضٍ. فرحل إلى المدينة، فقال له عمر ﷺ: ما أَقدمك؟ فأخبره بفعلِ معاوِية، فقال له: ارحل إلى مكانك، فقبح الله أَرضاً لَستَ فيها وأمثالك، فلا إمرة له عليك!.

وعنِ ابنِ عمه عبادة بنِ الوليد، قال: كان عبادة بن الصامت مع معاوِية، فأذن يوماً، فقام خطيب يمدح معاوِية، ويثني عليه، فقام عبادة بتراب في يده، فحشاه في فمِ الخطيب، فغضب معاوِية،

فقال له عبادة: إنك لم تكن معنا حين بايعنا رسول الله ﷺ بالعقبة على السمع والطاعة في منشطنا، ومكرهنا، ومكسلنا، وأثرة علينا، وألا ننازِع الأمر أهله، وأن نقوم بالحقِ حيث كُنَّا، لا نخاف في الله لومة لائمٍ، وقال رسول الله ﷺ: "إذا رأَيتم المداحين، فاحثوا في أفواههم التراب".

فكتب معاوِية يومًا إلى عثمان: إن عبادة بن الصامت قد أفسد علي الشام وأهله، فإما أَن تَكُفَّهُ إليك، وإما أن أخلّي بينه وبين الشامِ.

فكتب إليه: أن رَحِّل عبادة حتى ترجعه إلى دارِه بالمدينة.

قال: فدخل علي عثمان، فلم يفجأه إلاَ به، وهو معه في الدارِ، فالتفت إليه، فقال: يا عبادة، ما لنا ولك؟ فقام عبادة بين ظهراني النَاس، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "سَيَلي أموركم بعدي رِجال يعَرِّفونكم ما تنكرون، وينكِرُونَ عليكم ما تعرِفون،

فلا طاعة لمن عصى، ولا تضلوا بربكم".

ورُوي كذلك أن عبادة مَرَّت عليه قِطَارَة - وهو بالشام - تحمل الخمر، فقال: ما هذه؟ أزيت؟ قيل: لا، بل خمر يباع لفلان.

فأخذ شفرة من السُّوْقِ، فقام إليها، فلم يذر فيها رأوية إلا بَقَرَهَا - وأبو هريرة إذ ذاك بالشام - فأرسل فلان إلى أبي هريرة، فقال: ألا تمسك عنا أخاك عبادة، أمَّا بالغدوات، فيغدو إلى السُّوْقِ يفسد على أهلِ الذمة متاجرهم، وأمَّا بالعشيِ، فيقعد في المسجد ليس له عمل إلا شتم أعراضنا وعيبنا! قال: فأتاه أبو هريرة، فقال: يا عبادة، ما لك ولمعاوية؟ ذره وما حُمِّلَ.

فقال: لم تكن معنا إذ بايعنا على السمع والطاعة، والأمرِ بالمعروف، والنهي عنِ المنكرِ، وألا يأخذنا في الله لومة لائم. فسكت أبو هريرة.

وروي أن عبادة مر بقرية دُمِّرٍ، فأمر غلامه أن يقطع له سواكاً من صَفْصَافٍ على نهرِ بَرَدَى، فمضى ليفعل، ثم قال له: ارجع، فإنه إن لا يكن بثمن – أي الآن -، فإنه ييبس، فيعود حطباً بثمن[1].

١- معجم حفاظ القرآن عبر التاريخ (٣٣٨/١)، سير أعلام النبلاء (٧/٢).

# عبدالله بن أُنيس

إنه بطل الأبطال، ورجل الرجال، الصحابي الفدائي الأسطوري، عبدالله بن أُنيس الجهني...

**قصة قتله لخالد بن سفيان...**

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُنَيْسٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: دَعَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: "إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ خَالِدَ بْنَ سُفْيَانَ بْنِ نُبَيْحٍ الْهُذَلِيَّ يَجْمَعُ لِي النَّاسَ لِيَغْزُوَنِي، وَهُوَ بِعُرَنَةَ - وفي رواية بعرفة، وعرنة هي موضع من عرفة -، فَأْتِهِ فَاقْتُلْهُ"، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، انْعَتْهُ لِي حَتَّى أَعْرِفَهُ، قَالَ: "إِذَا رَأَيْتَهُ وَجَدْتَ لَهُ إِقْشَعْرِيرَةً"، قَالَ: فَخَرَجْتُ مُتَوَشِّحًا بِسَيْفِي حَتَّى وَقَعْتُ عَلَيْهِ، وَهُوَ بِعُرَنَةَ مَعَ ظُعُنٍ - نساء - يَرْتَادُ لَهُنَّ مَنْزِلًا، وَحِينَ كَانَ وَقْتُ الْعَصْرِ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ وَجَدْتُ مَا وَصَفَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْإِقْشَعْرِيرَةِ فَأَقْبَلْتُ نَحْوَهُ، وَخَشِيتُ أَنْ يَكُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ مُحَاوَلَةٌ تَشْغَلُنِي عَنِ الصَّلَاةِ، فَصَلَّيْتُ وَأَنَا أَمْشِي نَحْوَهُ أُومِئُ بِرَأْسِي الرُّكُوعَ، وَالسُّجُودَ، فَلَمَّا انْتَهَيْتُ إِلَيْهِ قَالَ: مَنِ الرَّجُلُ؟ قُلْتُ: رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ سَمِعَ بِكَ، وَبِجَمْعِكَ لِهَذَا الرَّجُلِ فَجَاءَكَ لِهَذَا، قَالَ: أَجَلْ أَنَا فِي ذَلِكَ، قَالَ: فَمَشَيْتُ مَعَهُ شَيْئًا حَتَّى إِذَا أَمْكَنَنِي حَمَلْتُ عَلَيْهِ السَّيْفَ حَتَّى قَتَلْتُهُ، ثُمَّ خَرَجْتُ، وَتَرَكْتُ ظَعَائِنَهُ مُكِبَّاتٍ عَلَيْهِ، فَلَمَّا قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَرَآنِي فَقَالَ: "أَفْلَحَ الْوَجْهُ"، قَالَ: قُلْتُ: قَتَلْتُهُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: "صَدَقْتَ"، قَالَ: ثُمَّ قَامَ مَعِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَدَخَلَ بِي بَيْتَهُ فَأَعْطَانِي عَصًا، فَقَالَ: "أَمْسِكْ هَذِهِ عِنْدَكَ يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ أُنَيْسٍ"، قَالَ: فَخَرَجْتُ بِهَا عَلَى النَّاسِ فَقَالُوا: مَا هَذِهِ الْعَصَا؟ قَالَ: قُلْتُ: أَعْطَانِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَمَرَنِي

أَنْ أَمْسِكَهَا، قَالُوا: أَوَلَا تَرْجِعُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَتَسْأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ؟ قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ لِمَ أَعْطَيْتَنِي هَذِهِ الْعَصَا؟ قَالَ: «آيَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ أَقَلَّ النَّاسِ الْمُتَخَصِّرُونَ يَوْمَئِذٍ»، قَالَ: فَقَرَنَهَا عَبْدُ اللهِ بِسَيْفِهِ فَلَمْ تَزَلْ مَعَهُ حَتَّى إِذَا مَاتَ أَمَرَ بِهَا فَصُبَّتْ مَعَهُ فِي كَفَنِهِ، ثُمَّ دُفِنَا جَمِيعًا![1].

كما كان عبدالله بن أُنيسٍ كذلك من جملة الفدائيين الذين شاركوا في عملية قتل أبي رافع اليهودي، وسيأتي ذكرها في فصل الأسطورة (عبدالله بن عتيك)، بل ورد في إحدى الروايات أنه هو من قتله لمَّا اختلفت سيوفهم عليه، وذلك حين تنازع الفدائيون عند رسول الله فيمن قتل أبا رافع، وكل واحدٍ يقول: لَسيفي هو الذي قتله، وابتسم الرسول لأولئك الذين يتنازعون الشرف العظيم، وإنه لشرف يُتنازع عليه! وأشار الرسول بيده أن اسكتوا، ثم طلب من كل واحد منهم أن يعرض عليه سيفه، فاستعرضها، ثم التفت اليهم وقال: «لَسيف عبد الله بن أنيس هو الذي قتله، أرى فيه أثر الطعام»[2].

واجتمع اليهود بعد قتل مليكهم، واختاروا لهم ملكاً جديداً هو اليُسير بن رزام، وكان معروفاً بالخديعة والمكر، وسار اليُسير على خطى من سبقه يُحرِّضُ الأعراب والقبائل المجاورة على إعداد العدة لقتال المسلمين ويبذل المال لهم لهذه الغاية، حتى وصلت أخباره إلى المدينة، فشاور النبي ﷺ أصحابه في أمره فقرروا أن يرسلوا إليه وفداً لإقناعه بالكفِّ عن التآمر على المسلمين، ليجنِّب قومه الحرب، فخرج عبد الله بن رواحة على رأس وفد، فيه عبد الله بن أنيس، حتى وصلوا خيبر، فتحدثوا إلى

---

١- رواه أحمد (١٦٠٤٧) وغيره واللفظ له.

٢- تاريخ الإسلام (٣٤٣/٢).

اليُسير بن رزام، وأقنعوه أن يأتي معهم إلى المدينة ليأخذ الأمان لقومه من رسول الله ﷺ فاختار اليُسير مجموعة من شباب يهود وخرج معهم بصحبة المسلمين إلى المدينة، وأركب كل واحد من المسلمين أحد اليهود معه على راحلته، فكان اليُسير رديف عبد الله بن أنيس، وسار الركب نحو المدينة...

وفي الطريق أخذ اليُسير يفكر في أمره مع المسلمين، فحدَّثته نفسه بالغدر، فقرر أن يقتُل عبد الله بن أنيس، فيقوم مرافقوه بقتل من معهم من المسلمين، ثم يعودون إلى خيبر!، فهجم بسرعة على سيف عبد الله بن أنيس يريد أن ينتزعه منه، وهو يصيح: يالثارات اليهود!.

لكن عبد الله بن أنيس كان حَذِراً فسلَّ سيفه وضرب به ساق عدو الله، فما كان من اليُسير إلا أن ضربه بعمود من خشب فشدخ رأسه، وتمالك ابن أنيس على نفسه وكرَّ على الغادر فقتله، وبادر بقية اليهود، كلٌّ يريد أن يفتك بصاحبه من المسلمين، فأجهز المسلمون عليهم، ولم ينجُ منهم إلا رجل واحد فرَّ عائداً إلى خيبر، وعاد المسلمون إلى مدينة رسول الله ﷺ يحدثونه عن غدر اليهود بهم، وما ذاقوه نتيجة خداعهم! [1].

فنِعْمَ اختيارُ رسولِ اللهِ لعبدالله، ونعم الرجلُ الشجاع عبدالله!.

---

١- تاريخ الطبري (١٥٥/٣).

obeikandl.com

# يوسف ابن تاشفين
## (أسد المرابطين)

إنه أمير المسلمين، وزعيم المرابطين، ناصر الدين، وداحض الصليبيين، أبو يعقوب يوسف بن تاشفين...

تلقّى يوسف ابن تاشفين، تعاليمه الأولى في قلب الصحراء من أفواه الفقهاء والمُحَدِّثين، ونما وترعرع وتربّى على تعاليم الإمام الفقيه (ابن ياسين)، ونبغ في فنون رجال الحرب، وفي السياسة الشرعية التي تتلمذ على الفقهاء فيها، وقام بها خير قيام.

بدأ أسد المرابطين، يوسف بن تاشفين، يقاتل في بلاد المغرب مع جيش المرابطين بقيادة ابن عمِّهِ الأمير (أبي بكر بن عمرو اللمتوني)، وبزغ نجمه لأول مرة في معركة (الواحات) التي كان فيها قائدً لمقدمة جيش المرابطين، وبعد فتح مدينة (سجلماسة) عيّنه الأمير أبو بكر بن عمرو اللمتوني واليًا عليها، فأظهر مهارة إدارية في تنظيمها، ثم غزا بلاد (جَزولة) وفتح (ماسة) ثم سار إلى (تارودانت) قاعدة بلاد (السوس) وفتحها، ثم جاء دور (أغمات) التي كانت مدينة مزدهرة حضاريًا، إذ كانت أحد مراكز النصرانية القديمة، وتلقّى يوسفُ التعليمات من الأمير أبى بكر بالزحف نحوها، ومهاجمتها، ودكّها، ودخل المرابطون المدينة.

وسار المرابطون وفي جملتهم يوسف نحو دولة (برغواطة) - الدولة الكافرة الملحدة - ونشبت المعارك بين الفريقين، وأصيب خلالها الإمام ابن ياسين بجراح بالغة توفي على أثرها؛ فكان استشهاد الإمام الفقيه (عبد الله بن ياسين) البداية الأولى في دفع يوسف إلى رئاسة الدولة الناشئة.

وعندما دخل أبو بكر بن عمر بجيوشه إلى الصحراء، وأناب ابن عمه يوسف على المغرب، ظهرت خلالها مواهب يوسف العسكرية والإدارية والتنظيمية والحركية والدعوية، وسلم النّاسُ بزعامته، وبدأ في تأسيس دولته بالحزم والعلم والجد والمثابرة والبذل والعطاء.

وعندما رجع أبو بكر من الصحراء جمع أشياخ المرابطين من (لمتونة) وأعيان الدولة، والكُتّاب والشهود، وأشهدهم على نفسه بالتخلي ليوسف عن الإمارة، وعلّل الأمير أبو بكر هذا التنازل لابن عمه يوسف لدينه وفضله وشجاعته وحزمه ونجدته وعدله وورعه وسداد رأيه ويمن نقيبته، وأوصاه الوصية التالية قائلاً: يا يوسف، إنّي قد ولّيتُك هذا الأمر وإنّي مسئول عنه؛ فاتقِ اللّه في المسلمين، وأعتقني وأعتق نفسك من النار، ولا تُضيّع من أمر رعيتك شيئًا؛ فإنّك مسئول عنهم، واللّه تعالى يصلحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك!.

وبعد أن صار يوسف قائدًا وأميرًا للمرابطين، قام نحو المغرب الشمالي فانتزعه من أيدي الزناتيين، وفتح (فاس)، وتمَّ له فتح جميع البلاد من الريف إلى (طنجة)، ثم فتح بلاد (ملوية)، واستولى على حصون (وطواط) من بلاد (طنجة)، ثم سار بجيوشه لغزو (الدمنة) من بلاد (طنجة) وفتح جبل (علودان)، ثم استولى على جبل (غياثة) وبني (مكود) وبني (رهينة) من أحواز (تازا)، وبذلك بسط يوسف نفوذه على سائر المغرب الأقصى الشّمَالي باستثناء (طنجة) و(سبتة).

ثم سيّر يوسف بن تاشفين إلى (طنجة) جيشًا من اثني عشر ألف فارسٍ مرابطي وعشرين ألفًا من سائر القبائل، وأسند قيادته إلى صالح بن عمران، فانتصر المرابطون وفتحوا (طنجة).

وبعد فتح طنجة استأنف الأمير يوسف توسُّعَه نحو الشرق، وكان هدفه القضاء على أي مقاومة تُهَدِّد دولة المرابطين في المستقبل، ورجعت كتائب المرابطين إلى مراكش، ثم عاد يوسف نحو الريف، وغزا تلك الأراضي وضم مدينة (تكرور).

ثم رجع بجيوشه نحو (وهران) و(تنس) وجبال (وانشريش) ووادي (الشلف) حتى دخل مدينة (الجزائر)، وتوقف عند حدود مملكة (بجاية)، وبَنَى يوسف في مدينة الجزائر جامعًا لا يزال إلى اليوم ويُعرف بالجامع الكبير.

ثم عاد يوسف إلى (مراكش)، وبذلك توحّد المغرب الأقصى بعد جهاد استمرّ ثلاثين عامًا، وأصبحت دولة المرابطين في مرحلة التّمكين الفعلية.

وبعدها وجّه الأمير يوسف ابنه المُعزّ في جيش إلى (سبتة) لفتحها؛ إذ كانت المدينة الوحيدة التي لم تخضع له، فحاصرها المعزُّ برًّا وبحرًا، ودارت معركة بحرية طاحنة، وفي نهاية المطاف استطاع المرابطون أن يفتحوا (سبتة).

قصة الأسطورة ابن تاشفين مع الأندلس...

بعد هذه الجولة الجهادية الموفّقَة تم توحيد المغرب الأقصى بجميع نواحيه بعد عملٍ جادٍّ مستمرّ، وأصبحت دولة المرابطين قُوّةً لا يُستهان بها تُشكِّلُ خطرًا على النصارى في الأندلس، وملجأً وحصنًا للمسلمين في الأندلس، حيث إن النصارى استفحل خطرهم في الأَنْدَلُس، إذ قامت للمسلمين دويلات في كل مدينة وصلت إلى ثلاث وعشرين دويلة تناحرت فيما بينها، وعُرف حكامها بـ(ملوك الطوائف) وتلقّبوا بألقاب الخلفاء كالمأمون والمعتمد والمستعين والمعتصم والمتوكل إلى غير ذلك من الألقاب، ووصف هذه الحالة المشينة الشاعر أبو علي الحسن بن رشيق فقال:

مما يُزَهِّدُني في أرضِ أندَلُسٍ × سماعُ مقتدرٍ فيها ومعتضدِ

ألقابُ مملكةٍ في غيرِ موضِعِهَا .. كالهرِّ يحكِي انتفاضًا صولةَ الأسدِ

ولما كان الوضع في الأندلس على هذا السوء، من التفرق والتشرذم، أعمل ملكُ الصليبين فيها (ألفونسو السادس) سيفه وسنانه، حتى أصبح ملوك الطوائف يبعثون بالجزية إليه كل عام، فضجَّ ملوك الطوائف من تجبره وغطرسته.

فقد بدأ (ألفونسو) في الضغط على مملكتي (بطليوس) و(إشبيلية)، وأرسل إلى (المتوكل بن الأفطس) أمير (بطليوس) يطلب إليه تسليم بعض الحصون والقلاع المتاخمة لحدوده مع تأدية الجزية، فأرسل (المتوكل بن الأفطس) رسالةً إلى يوسف بن تاشفين يرثي إليه حالهم وما آل إليه أمرهم وقال فيها: لما كان نور الهدى دليلك، وسبيل الخير سبيلك، وصح العلم بأنك لدولة الإسلام أعزُّ ناصر، وعلى غزو الشرك أقدر قادر، وجب أن تُستدعى لما أعضل الداء، وتُستغاث فيما أحاط الجزيرة من البلاء، فقد كانت طوائف العدو تُطِيف بها عند إفراط تسلطها واعتدائها، وشدة ظلمها واستشرائها، ولم يزل دأبُها التشكيك والعناد، ودأبُنا الإذعان والانقياد، حتى نفذ الطارف والتلاد، وأتى على الظاهر والباطن النفاد، وأيقنوا الآن بضعف المتن، وقويت أطماعهم في افتتاح المدن، وأُضرمت في كل جهة نارهم، ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشِفَارُهُم، ومن أخطأه القتل منهم فإنما هم في أيديهم أسرى وسبايا، يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا، فيا لله ويا للمسلمين، أيسطو هكذا بالحق الإفك، ويغلب التوحيدَ الشرك، ويظهر على الإيمان الكفر، ألا ناصرًا لهذا الدين المهتضم، ألا حاميًا لما استُبيح من حمى الحرم، وما أحضُّك على الجهاد بما في كتاب الله، فإنكم له أتلى، ولا بما في حديث رسول الله، فإنكم إلى معرفته أهدى، وفي كتابي هذا الذي يحمله إليكم الفقيه الواعظ، مسائل مجملة يفصلها ويشرحها، ومشتمل

على نُكَتٍ هو يبينها لكم ويوضحها، وقد عوَّلت على بيانه، ووثقت بفصاحة لسانه، والسلام. فلما وصلت الرسالة لابن تاشفين أكرم حامليها وطمأنهم، ووعدهم بالإمداد والعبور للأندلس، وفتح باب الجهاد في سبيل الله عندما تسنح الفرصة، وتزول العوائق التي تقف في طريق المرابطين.

بينما في (إشبيلية) قتل (المعتمد بن عباد) ملك (إشبيلية)، رسل (ألفونسو) التي جاءت لتحصيل الجزية، فأعد ذلك الصليبي العدة لإفناء (المعتمد) وباقي ملوك الطوائف.

وكذلك بعد أن بعث (ألفونسو السادس) تلك الرسالة التي يهزأ بها من (المعتمد) ويطلب منه أن يبعث له بمروحة يروح بها عن نفسه لكي يطيل أمد الحصار، قلب (ابن عباد) الرسالة وكتب على ظهرها: والله لئن لم ترجع لأُرَوِّحَنَّ لك بمروحة من المرابطين!.

فما إن قرأها (ألفونسو) حتى ولى الأدبار ورجع إلى دياره مخافة أن يستنجد المسلمون بالمرابطين الذين ذاع صيتهم في مختلف أرجاء العالم في ذلك الوقت، وبعد أن رأى (المعتمد بن عباد) ردة فعل (ألفونسو السادس) لمجرد سماعه باسم المرابطين، أرسل إلى ملوك الطوائف لكي يتم اجتماع القمة الأول لـ ٢٢ دويلة من دويلات الطوائف، وفعلًا تم عقد اجتماع القمة الطارئ لملوك الطوائف!، فروى (ابن عباد) حكايته مع (ألفونسو)، وما فعله عند سماعه باسم المرابطين، ثم أخبرهم أن (ألفونسو) لن يستسلم بهذه البساطة، وأنه حتمًا سيكرر فعلته مع جميع الدويلات حتى ينهي الوجود الإسلامي كما وعد أباه وهو على فراش الموت، فاقترح (ابن عباد) أن يبعث برسالة إلى المرابطين يطلب منهم أن يأتوا لإنقاذ المسلمين في الأندلس!، عند

ذلك عمَّ الهرج قاعة الاجتماع رفضًا لهذا الاقتراح من (ابن عباد) فصاح أحدهم بـ(ابن عباد) قائلًا: هل تريد أن تجلب لنا هؤلاء البربر من رعاة الإبل لكي يحاربوا (ألفونسو) ثم إذا انتصروا عليه مكثوا في ديارنا الخضراء وسلبونا الحكم وجعلونا رعاةً لإبلهم؟!. عند ذلك وقف (المعتمد بن عباد) ملك إشبيلية بين الحضور وقال قولة سطرها التاريخ:

والله لأن أرعى الإبل في صحراء المغرب، خيرٌ لي من أن أرعى الخنازير في أوروبا!.

عند ذلك وقف (المتوكل بن الأفطس) وأعلن تأييده لاقتراح (ابن عباد)، ثم قام (عبد الله بن بلقين) ملك (غرناطة) ووافق أيضًا، فبعث (ابن عباد) برسالة الاستغاثة إلى أمير المرابطين، يوسف بن تاشفين، جاء فيها: إلى حضرة الإمام أمير المسلمين، إنا نحن العرب في هذه الأندلس، قد تلفت قبائلنا وتفرق جمعنا، وتوالى علينا هذا العدو المجرم اللعين أذفنش، أسر المسلمين وأخذ البلاد والقلاع والحصون، وليس لأحدٍ منَّا طاقة على نصرة جاره ولا أخيه، وقد ساءت الأحوال وانقطعت الآمال، وأنت أيدك الله ملك المغرب، استنصرتُ بالله ثم بك، واستغثتُ بحرمكم، لتجوزوا لجهاد هذا العدو الكافر، والسلام على حضرتكم السامية، ورحمة الله تعالى وبركاته. ولما وصل الكتاب لابن تاشفين أكرم حامليه، ثم استشار قادته وأمرائه، وأشاروا عليه بعبور الأندلس، فأرسل للمعتمد رسالة: من أمير المسلمين إلى المعتمد بن عباد، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد، فإنه وصل خطابكم المكرم، فوافقنا على ما تضمَّنَه من استدعائنا لنصرتك، وما ذكرته من كُربتك، فنحن يمين لشمالك، ومبادرون لنصرتك وحمايتك... وطلب منه أن يسلم لهم (الجزيرة الخضراء)، حتى تكون

بمثابة المقرِّ والمعسكر للجند المجاهدين. فوافق (المعتمد بن عباد) على تسليم المدينة للمرابطين، وبذلك وافق المرابطون على العبور للأندلس.

فما إن أعطى (المعتمد بن عباد) موافقته على إعطاء المرابطين (الجزيرة الخضراء)، حتى أعطى يوسف بن تاشفين أمره لخمسمائة فارس بالتجهز للعبور إلى الأندلس كمقدمة لبقية الجيش، وبدأ الفرسان بالتوافد على (الجزيرة الخضراء)، ونزلوا بدار الصناعة، وضُرب معسكر للفرسان، وأخذ الفرسان بالتوافد حتى اكتمل عددهم وقد أحاطوا بالجزيرة من كل جهة، وأحدقوا عليها يحرسونها بقيادة داود بن عائشة، ثم انطلقت كتائب المرابطين تجوز البحر بقيادة ابن تاشفين مُتَّجِهين إلى ضفة المتوسط الشمالية في (الأندلس)، وعندما بلغ ابن تاشفين منتصف مضيق جبل طارق، هبَّتْ عاصفةٌ قويةٌ كادت أن تُغرِقَ المركب، فتوجه القائد الرباني ابن تاشفين، رافعًا أكُفَّ الضراعة إلى رب العالمين، في منتصف البحر قائلًا: اللهم إن كنت تعلم أن جوازي هذا خيرًا وصلاحًا للمسلمين فسهِّل عليَّ جواز هذا البحر، وإن كان غير ذلك فصعِّبْهُ عليَّ حتى لا أجوزه!.

وما إن فرغ ابن تاشفين من دعائه حتى سكنت الريح!.

وكان ابن تاشفين قد أمر بعبور الإبل من المغرب إلى الأندلس لأغراض عسكرية، فعبر منها ما أغصَّ الصحراء، وارتفع رُغائها إلى عنان السماء، ولم يكن أهل الجزيرة قد رأوا جمالًا قط، ولا كانت خيلهم قد رأت صورها ولا سمعت أصواتها، وكانت تذعر منها وتقلق، وكان هذا قصد يوسف بن تاشفين في عبورها، فلما كانت المعركة كانت خيل الإفرنج تحجم عنها-فيا لها من لمحة عبقرية-!.

وبهذا تكون قوة المرابطين قد أكملت عبورها إلى الأندلس، وحلت في (الجزيرة الخضراء)، وأصبحت قريبة من أرض المعركة، ولم يعد يفصلها بين القتال فاصل، فالقوات (القشتالية) كانت تغير على أي مكان في الأندلس، وتعيث وتخرب ثم تعود إلى (ألفونسو)، ولهذا أمر ابن تاشفين بتقوية حصون (الجزيرة الخضراء)، وشحنها بالسلاح والذخيرة والطعام، وتشديد الحراسة عليها لتكون قاعدة حصينة، ونقطة اتصال أمينة بين الدولتين الأندلس والمغرب.

وما إن وصل ابن تاشفين إلى سواحل الأندلس حتى قامت شعوب الأندلس تستقبله فرحة بقدوم هذا البطل الأسطورة والذي لطالما سمعوا عن قصص بطولاته مع بقية جموع المرابطين المجاهدين، وأرسل (المعتمد بن عباد) ابنه للقائه، بينما انشغل هو بتأمين مؤن الجيش، ثم أمر المعتمد جنده بالتجهز والاستعداد للحاق بجيش المجاهدين، وسار لاستقبال ابن تاشفين، والتقيا في معسكر ابن تاشفين، ولم يبقى أحد من ملوك الطوائف في الأندلس إلا بادر وأعان وخرج وأخرج، ولما اكتملت الاستعدادات وتهيأ الجند للتحرك يقودهم ابن تاشفين، أشار عليه (ابن عباد) بالسير لإشبيلية ليستريح من وعثاء السفر فأبى وقال: إنما جئت ناويًا جهاد العدو، فحيثما كان العدو وجهت نحوه!.

فتقدم جيش المسلمين المتكون من ٣٠ ألف مقاتل إلى الشمال لمكان يقال له (الزلاقة)، فسمع (ألفونسو السادس) بالخبر، فأعلن (الفاتيكان) حالة الطوارئ القصوى في أوروبا بأسرها ، فأرسل (بابا الفاتيكان) رسالة إلى (الكاثوليك) في مختلف أرجاء أوروبا يضمن فيها الغفران لكل من يشارك في هذه المعركة، ووعد كل من يحارب بمفتاحٍ يحصل عليه من البابا شخصيًا، هذا المفتاح هو مفتاح قصره في

الجنة!. عند ذلك تجمع الفرسان من فرنسا وإيطاليا وألمانيا وإنجلترا - وقد كانت كاثوليكية آنذاك -، فتجمع لـ(ألفونسو السادس) ضعف عدد المسلمين، مدججين بآخر ما توصلت إليه مصانع أوروبا الحربية، هدفهم جميعًا تدمير الوجود الإسلامي في الأندلس إلى الأبد في تلك الموقعة الفاصلة، موقعة (الزلاقة)، فوقف ألفونسو السادس مُغترًا متبجحًا بهذا الجيش الجرار وقال: بهذا الجيش أقاتل الجن والإنس، وأقاتل ملائكة السماء، وأقاتل محمدًا و صحبه.

فعسكر الفريقان قبالة (الزلاقة) في يوم الخميس، وفي ذلك الوقت صنع الأمير البطل يوسف بن تاشفين شيئًا عجيبًا كان ملوك الطوائف قد نسوه منذ زمن بعيد، فلقد أرسل ابن تاشفين رسالةً إلى (ألفونسو) يدعوه فيها للإسلام أو دفع الجزية!، ويقول فيها: من أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى ملك الروم ألفونسو السادس، سلامٌ على من اتَّبَعَ الهدى وبعد، بلغنا يا أذفنش أنك دعوتَ إلى الاجتماعِ بنا، وتمنيتَ أن تكونَ لك سُفُنٌ تعبر بها إلينا، فقد عبرنا إليك، وستعلم عاقبة دعائِكَ، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال، وإني أعرض عليك الإسلام، أو الجزية عن يد وأنت صاغر، أو الحرب، ولا أؤجلك إلا لثلاث.

عند ذلك استشاط (ألفونسو السادس) غضبًا من هذا القائد المسلم الذي يمتلئ عزة وكرامة، بعد أن كان هو من يأمر ملوك الطوائف بدفع الجزية، ومِن هنا أرسل ألفونسو برسالة إلى الأمير يوسف بن تاشفين يهزأ منه قائلاً: فإن كنت لا تستطيع الجواز فابعث إليّ ما عندك من المراكب نَجُز إليك، أناظرك في أحب البقاع إليك؛ فإن غلبتني فتلك نعمةٌ جُلِبت إليك، ونعمةٌ شُمِلت بين يديك، وإن غَلَبْتُك كانت ليّ اليد العليا عليك، واستكملتُ الإمارة، والله يتم الإرادة.

وقال للرسول الذي حمل الرسالة: إن صاحبكم يوسف بن تاشفين قد تعنَّى من بلاده وخاض البحور، وأنا أكفيه العناء فيما بقي ولا أُكَلِّفُكُم تعبًا، أمضي إليكم وألقاكم في بلادكم رفقًا بكم وتوفيرًا عليكم.

فكان رد الأسد المرابط يوسف بن تاشفين مُدويًا، يقطر عزة وإباءً مع قلة حروفه، فكتب على ظهر الرسالة: الجواب ما ترى لا ما تسمع!.

عندها أراد (ألفونسو) أن يخدع المسلمين فكتب ليوسف بن تاشفين: غدًا هو الجمعة، وهو عيد للمسلمين ونحن لا نقاتل في أعياد المسلمين، وإن السبت عيد اليهود، وفي جيشنا كثير منهم، وأما الأحد فهو عيدنا، فلنؤجل القتال حتى يوم الاثنين. ولكن يوسف بن تاشفين كان يعلم أن الصليبيين قومٌ لا يوفون بعهودهم أبدًا ، فطلب من جنوده أن يظلوا على استعداد ويقظة.

أما (ألفونسو السادس) فقد رأى في نومه حلمًا غريبًا، فقد رأى وكأنه راكب على فيل يضرب نقيرة طبلٍ، فهالته رؤياه وسأل عنها القساوسة فلم يجبه أحد، فدس يهودياً على من يعلم تأويلها من المسلمين، فذهب ذلك اليهودي إلى شيخ من شيوخ المسلمين على دراية بتأويل الأحلام، فقصَّهَا عليه ونسبها إلى نفسه، فقال له الشيخ المسلم: كذبت أيها اليهودي! ما هذه الرؤيا لك، ولا بد أن تخبرني عن صاحبها وإلا فاغرب عن وجهي، فقال له اليهودي: اكتم ذلك، هذه الرؤيا للملك ألفونسو السادس، فقال الشيخ المسلم: قد علمت أنها رؤياه، ولا ينبغي أن تكون لغيره وهي تدل على بلاءٍ عظيمٍ ومصيبةٍ فادِحَة تؤذن بصلبه عما قريب، أما الفيل فقد قال الله تعالى: «ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل» وأما ضرب النقيرة فقد قال الله تعالى: «فإذا نقر في الناقور»، فانصرف اليهودي إلى (ألفونسو السادس) ولم يفسرها له طلبًا في الحرب!.

وفي منتصف تلك الليلة، استيقظ عالمٌ جليلٌ من المسلمين اسمه الشيخ (ابن رميلة)، فنهض راكضًا إلى خيمة الأمير يوسف بن تاشفين يوقظه ليقول له فرحًا: أيها الأمير لقد رأيت رسول الله ﷺ في ليلتي هذه، وقد قال لي: يا ابن رُمَيْلَة، إنكم منصورون، وإنك ملاقينا. فكبر ابن تاشفين تكبيرةً أيقظت الجند، وأمر الجند أن يقرؤوا سورة الأنفال، وأن يصلي الجند قيام الليل، فتعانق الجند فرحًا من تلك الرؤيا، وأجهش الجنود بالبكاء شوقًا للشهادة، وبعد صلاة الفجر من يوم الجمعة، غدر الصليبي القذر ألفونسو كما توقع ابن تاشفين، وزحف بجنده على جيش المسلمين ليباغتهم فجرًا، ولكنه وجد المسلمين في انتظاره بقيادة (المعتمد بن عباد)، إذ كانت تكمن قوة خطة جيش المسلمين في القوة الاحتياطية التي خطط لها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، إذ تحتوي هذه القوة على أشجع مقاتلي المرابطين، وخطط لها أن تنقض على جيش (ألفونسو) في الوقت المناسب، بعد أن يكون الإعياء قد بلغ منهم مبلغه، على أن تضمن هذه القوة الاحتياطية التغلب على العدو بالمفاجأة بجيش احتياطي يتبع نظام الكمين التي ساعدت عليه طبيعة أرض الأندلس، ووعورتها التي تتناسب مع هذا النوع من القتال.

فدارت معركة (الزَّلاقة) الباسلة، وكاد النصر في البداية أن يكون حليف الصليبيين، فتدخل الأسطورة ابن تاشفين ورتَّبَ خطةً تمثلت في مفاجأة العدو من جهة لا يتوقعونها، فتقدم بقواته الاحتياطية وهاجم معسكر (القشتاليين)، مستفيدًا من هلع خيل (القشتاليين) من إبل ابن تاشفين التي جلبها معه من المغرب وأضرم فيه النار وأحرقه، وقتل حماته من الفرسان والرجال، وفر الباقون منهزمين نحو (ألفونسو)، فأقبلت عليه خيله من معسكره فارين، وابن تاشفين في أثرهم، فلما علم

بما حل بمعسكره وحاميته، وتوقف (ألفونسو) عن مطاردة (المعتمد بن عباد) وجيش الأندلس وارتد من فوره لينقذ محلته من الهلاك.

أدرك (ابن عباد) من انسحاب ألفونسو إلى معسكره أن بوادر الهزيمة قد بدت على (القشتاليين)، فأمر أصحابه بمهاجمتهم، وحمل القائد (سير بن أبي بكر) بمن معه على قوات (ألفونسو) فزاد الضغط واستمرت الهزيمة، وفي ذلك الحين تراجع الجند الذين فرُّوا إلى (بطليوس) في بداية الهجوم، وشاركوا في القتال فاشتد الهجوم على (ألفونسو) وقواته حتى أيقنوا بالفناء. لما اشتد القتال على جيش (ألفونسو) ودام القتال لساعات، أصبح (ألفونسو) وجيشه بين مطرقة ابن عباد وسندان ابن تاشفين، وكانت الضربة القاضية التي أنهت المعركة، حين أمر ابن تاشفين حرسه الخاص المكون من أربعة آلاف فارس بالنزول إلى قلب المعركة، استطاع أحدهم الوصول لـ(ألفونسو)، وطعنه في فَخِذِهِ طعنةً نافذة، وانتصر المسلمون لأول مرة منذ عشرات السنوات تحت قيادة الأمير (يوسف بن تاشفين)، ولم يبقَ من بين ٦٠٠٠٠ صليبي إلا ١٠٠ مقاتل فقط من بينهم (ألفونسو السادس) بساقٍ واحدة، هرب بها إلى (قشتالة) ليموت بعدها بسنةٍ كَمَدًا، وغنم المسلمون غنائم هائلة، لم يأخذ ابن تاشفين والمرابطون شيئًا منها، فعاد إلى المغرب بعد أن أنقذ المسلمين، ثم حاول بعد ذلك (ألفونسو) في محاولةٍ بائسةٍ أن يعيد الهجوم لما اطمأنَّ بعد أن علم أنَّ ابن تاشفين قد عاد إلى المغرب، لكن ابن تاشفين سرعان ما عاد مرةً أخرى لإنقاذ (الأندلس) للمرةِ الثانية، ثم عاد إلى المغرب، ولكن عاد أيضًا ملوك الطوائف للصراع من جديد، فبعث أهل (الأندلس) إلى الأمير يوسف بن تاشفين في (مراكش) يرجونه أن يأتي ليحررهم من ملوك الطوائف، فلم يرضَ ابن تاشفين أن يحاربهم خوفًا من معصية الله في قتاله للمسلمين، فانهالت

الفتاوى عليه من بلاد المسلمين تحثه على إنقاذ الأندلس ، وكانت من بينها رسالة بعث بها (أبو حامد الغزالي) من بغداد يجيز له ضم الأندلس، فقام ابن تاشفين بضمِّ الأندلس للمرابطين، فأنهى بذلك مهزلة ملوك الطوائف إلى الأبد!.

فرحمك الله يا أسد المرابطين، ويا ناصر الدين، ومنقذ المسلمين، وزعيم المجاهدين، يا ابن تاشفين![1].

obeikandl.com

١- انظر: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، فقه التمكين عند دولة المرابطين للصلابي، المغرب والأندلس في عهد المرابطين، دولة المرابطين في المغرب و الأندلس عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، مائة من عظماء الإسلام للترباني.

obeikandl.com

# عبد الله بن حذافة السهمي

«حقٌّ على كل مسلمٍ أن يقبِّلَ رأسَ عبد الله بن حذافة»

عمر بن الخطاب ﷺ

بطل هذه القصة رجل من الصحابة الكرام، يُدعى عبد الله بن حذافة السهمي، هذا الرجل له قصة مذهلة، والإسلام أتاح له أن يلتقي مع أكبر ملوك الأرض في زمانه، فلقد كان في زمان النبي عليه الصلاة والسلام دولتان عظيمتان، وعلى رأس هاتين الدولتين رجلان عظيمان؛ كسرى عظيم الفرس، وقيصر عظيم الروم، وهذا الصحابي الجليل أتيح له أو أرسل بمهمةٍ ليلقى كسرى وقيصر في وقتين مختلفين، كِسرى ملك الفرس، وقيصر ملك الروم، وأن تكون له مع كلٍّ منهما قصة، ما تزال ذاكرة الدهر تعيدها، ولسانُ التاريخ يرويها.

أما قصته مع كسرى ملك الفرس فكانت في السنة السادسة للهجرة، حين عزم النبي ﷺ أنْ يبعث طائفةً من أصحابه، بكتبٍ إلى ملوك الأعاجم، يدعوهم فيها إلى الإسلام، ولقد كان النبي ﷺ يقدِّر خطورة هذه المهمة، فهؤلاء الرسل سيذهبون إلى بلادٍ نائية.

فهذا الصحابي، انطلق ليقطع الصحارى وحيدًا، دون مؤنسٍ، ودون معينٍ، ليصل إلى ملك من مُلوك الأرض، لا يفهم لغته، ملكٌ متربعٌ على عرشٍ عظيم، يدعو هذا الصحابي ذاك الملك لترك دينه، والاحتمال أن يقتله احتمالٌ كبير!.

والنبي ﷺ يعلم تمامًا خطورة هذه المهمة، فهو يعلم أصحابه وطبائعهم، ويعلم

جيدًا من سيذهب إليهم أصحابه، ويعلم أمزجتهم وقناعاتهم وطريقة تفكيرهم ونظرتهم إلى الحياة، ويعي جيدًا إلام سيدعوهم أصحابه؟.

سيدعون هؤلاء الملوك إلى ترك أديانهم، ومفارقة عزِّهم وسلطانهم، والدخول في دينٍ قومٍ كانوا إلى الأمسِ القريب، إنها رحلةٌ خطيرة، الذاهب فيها مفقود، والعائد منها مولود .

إنها رحلة بالتعبير المعاصر، انتحارية، فإما أن يعود، وإما ألَّا يعود، هذه هي طبيعة هذه المهمة.

الإنسان أيها الأخوة، على قدر تضحيته، وعلى قدر بذله، وعلى قدر تجشُّمه للأخطار، وعلى قدر عطائه يرقى عند الله عزَّ وجل، لذلك جمع النبي ﷺ أصحابه، وقام فيهم خطيباً، وقال:

"أما بعد، فإني أريد أن أبعثُ بعضكم إلى ملوك الأعاجم، فلا تختلفوا عليَّ، كما اختلفتْ بني إسرائيل على عيسى بن مريم:

«فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ»"[1]، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: نحن يا رسول الله نؤدِّي عنك ما تريد، فابعثنا حيث شئت.

انتدَب النّبيُّ عليه الصلاة و السلام ستّةً من أصحابه الكرام، ليحملوا كتبه إلى ملوك العرب والعجم، وكان أحد هؤلاء الستة (عبد الله بن حذافة السهمي)، فقد اخْتِيرَ لحمل رسالة النّبي ﷺ إلى كِسرى ملك الفرس، على حصان، من المدينة إلى المدائن عاصمة الفرس.

---

١- (المائدة : ٢٤).

جهَّز عبد الله بن حذافة راحلته، وودَّع صاحبته وولده، ومضى إلى غايته ترفعه النجاد ، وتحطه الوهاد، وحيداً، فريداً، ليس معه إلا الله.

بلغ عبد الله ديار فارس، فاستأذن بالدخول على ملكها، وأخطرَ الحاشية بالرسالة التي يحملها له، عند ذلك أمر كسرى بإيوانه فزُيِّن، ودعَا عظماء فارس لحضور مجلسه فحضروا، ثم أذِنَ لعبد الله بن حذافة بالدخول عليه.

دخل عبد الله بن حذافة على سيد فارس، مشتملاً شملته الرقيقة، مرتدياً عباءته الصفيقة ، عليه بساطة الأعراب، لكنه كان عاليَ الهمَّة، مشدود القامة، تتأجج بين جوانحه عِزَّةُ الإسلام، وتتوقَّد في فؤاده كبرياءُ الإيمان، فما إن رآه كسرى مقبلاً، حتى أومأ إلى أحدِ رجاله أن يأخذ الكتاب من يده،

فقال: لا، إنما أمرني رسول الله ﷺ أن أدفعه إليك يداً بيد، وأنا لا أخالف أمر رسول الله،

فقال كسرى لرجاله: اتركوه يدنُ مني، فدنا من كسرى حتى ناوله الكتاب بيده، ثم دعا كسرى كاتبًا عربيًا مِن أهل الحيرة، وأمَرَه أن يفضَّ الكتاب بين يديه، وأن يقرأه عليه، فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمدٍ رسول الله، إلى كسرى عظيم الفرس، سلامٌ على من اتّبع الهدى، أسلِم تسلَم، فإن أبيت، فإنما عليك إثمُ الأريسيِّين – هؤلاء الذي يتبعونك، إن لم تُسْلِم، فهم في رقبتك، وعليك إثمهم –.

فما إن سمع كسرى من هذه الرسالة هذا المقدار، حتى اشتعلت نار الغضب في صدره، فاحمر وجهه، وانتفخت أوداجه، فجلب الرسالة من يد كاتبه، وجعل يمزِّقها دون أن يعلم ما فيها، وهو يصيح: أيُكتبُ لي بهذا، وهو عبدي؟ - لأنه من أتباعه، ولأن باذان عامله على اليمن تابع لكسرى، والمناذرة وعاصمتهم الحيرة يتبعون كسرى- ثم أمر بعبد الله بن حذافة، أن يُخْرَج من مجلسه، فخرج.

خرج عبد الله بن حذافة من مجلس كسرى، وهو لا يدري ماذا يفعل؟ أيُقتَل أم يترك حراً طليقاً، لكنه ما لبث أن قال: واللهِ ما أُبالي على أيَّةِ حالٍ أكون بعد أن أدّيتُ كتاب رسول الله، وركب راحلته وانطلق، ولما سكت عن كسرى الغضب، أمر بأن يُدخل عليه عبد الله فلم يجدوه، فالتمسوه، فلم يقفوا له على أثر، فطلبوه في الطريق إلى الجزيرة، فوجدوه قد سبق، فلما قدم عبد الله على النبي ﷺ، أخبره بما كان من أمر كسرى، وتمزيقه الكتاب، فما زاد عليه الصلاة والسلام، على أن قال:

«مزَّق الله ملكه».

أما كسرى فقد كتب إلى باذان نائبه على اليمن:

أن ابعث إلى هذا الرجل، الذي ظهر بالحجاز، رجلين جَلْدين من عندك، ومُرهما أن يأتياني به.

فبعث باذان رجلين من خيرة رجاله إلى رسول الله ﷺ، وحمَّلهما رسالةً له، يأمره فيها بأن ينصرف معهما إلى لقاء كِسرى، دون إبطاء، وطلب إلى الرجلين أن يقفا على خبر النبي ﷺ، وأن يستقصيا أمره، وأن يأتياه بما يقفان عليه من معلومات.

فخرج الرجلان يُغِذَّان السير، حتى بلغا الطائف، فوجدا رجالًا من تجَّار قريش، فسألاهم عن محمَّدٍ عليه الصلاة والسلام، فقالوا: هو في يثرب، ثم مضى التجَّار إلى

مكة، فرحين مستبشرين، وجعلوا يهنِّئون قريشاً، أنْ قَرّوا عيناً، فإنّ كسرى تصدَّى لمحمَّد، وكفاكم شرَّه.

يمم الرجلان وجهيهما شطر المدينة، حتى إذا بلغاها لقيا النبي عليه الصلاة والسلام، ودفعا إليه رسالة باذان، وقالا له: إن ملك الملوك كسرى كتب إلى ملكنا باذان، أن يبعث إليك من يأتيه بك، وقد أتيناك لتنطلق معنا إليه، فإن أجبتنا، كلَّمنا كسرى بما ينفعك، ويكفُّ أذاه عنك، وإن أبيت، فهو مَن قد علمت سطوته وبطشه وقدرته على إهلاكك، وإهلاك قومك، لم يغضب النبي، بل تبسَّم عليه الصلاة والسلام، وقال لهما: ارجعا إلى رحالكما اليوم، وائتيا غدًا.

فلما غدوا على النبي ﷺ في اليوم التالي، قالا له: هل أعددتَ نفسك للمُضِيِّ معنا إلى لقاء كسرى؟ فقال لهما النبي عليه الصلاة والسلام: لن تلقيا كسرى بعد اليوم، فلقد قتله الله ، حيث سلَّط عليه ابنه شيرويه في ليلة كذا من شهر كذا وقتَله، إنه خبرُ الوحي، فحدَّقا في وجه النبي، وبدت الدهشة على وجهيهما، وقالا: أتدري ما تقول! أنكتب بذلك لباذان؟ قال: نعم، وقولا له: إن ديني سيبلغ ما وصل إليه ملك كسرى، وإنَّك إن أسلمتَ، أعطيتكَ ما تحت يديك، وملَّكتكَ على قومك.

خرج الرجلان من عند رسول الله ﷺ، وقدما على باذان، وأخبراه الخبر، فقال لهما: لئن كان ما قال محمّدٌ حقاً فهو نبيّ.

فلم يلبث أن قدم على باذان كتابٌ من شيرويه، وفيه يقول: أما بعد فقد قتلت كسرى، ولم أقتله إلا انتقاماً لقومنا، فقد استحلَّ قتلَ أشرافهم، وسبيَ نسائهم، وانتهابَ أموالهم، فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممّن عندك.

فما إن قرأ باذان كتاب شيرويه، حتى طرحه جانباً، وأعلن دخوله في الإسلام، وأسلم من كان معه من الفرس في بلاد اليمن![1].

وهذا تمام القصة الأولى.

أما القصة الثانية والتي تجلت فيها بوضوح معالم عظمة هذا الرجل العظيم ...

ففي السنة التاسعة عشرة للهجرة، بعث عمر بن الخطاب جيشاً لحرب الروم، فيهم عبد الله بن حذافة السهمي، وكان قيصر عظيم الروم قد تناهت إليه أخبار جند المسلمين، وما يتحلَّون به من صدق الإيمان، ورسوخ العقيدة، واسترخاص النفس في سبيل الله ورسوله، فأمَرَ رجاله إن ظفروا بأسيرٍ من أسرى المسلمين أن يبقوا عليه، وأن يأتوه به حيًا، وشاء الله أن يقع عبد الله بن حذافة السهمي أسيرًا في أيدي الروم، فحملوه إلى ملكهم، وقالوا:

إنَّ هذا من أصحاب محمد السابقين إلى دينه، قد وقع أسيرًا في أيدينا، فأتيناك به.

نظر ملك الروم إلى عبد الله بن حذافة طويلًا، ثم بادره قائلًا: إني أعرض عليك أمرًا، قال: وما هو؟ قال: أعرض عليك أن تتنصَّر، فإنْ فعلتَ خلَّيتُ سبيلك، وأكرمتُ مثواك، فقال الأسير في أنفةٍ وحزم: هيهات، إن الموت لأحبُّ إليَّ ألف مرة ممّا تدعوني إليه.

قال قيصر: إني لأراك رجلًا شهمًا، فإن أجبتني إلى ما أعرضه عليك، أشركتك في أمري، وقاسمتك سلطاني.

---

١- تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٧/٣٥٧).

فخلاصة قضية قيصر أنّ سمعةَ أصحاب رسول الله ملأت الآفاق، أشخاص أشدَّاء، أقوياء، متعففون، إيمانهم قوي، الدنيا عندهم صغيرة، فلهم سمعة كبيرة، وهو أراد أن يرى من هم هؤلاء؟ فأخذَ يعرض عليه كلَّ إغراءٍ.

فتبسَّم الأسير المكبَّل بقيوده، وقال: واللهِ لو أعطيتني جميع ما تملك، وجميع ما ملكته العرب على أن أرجع عن دين محمدٍ طرفة عينٍ ما فعلت!.

الله أكبر

قال : إذًا: أقتلك، قال: أنت وما تريد، ثم أمر به فصُلِب، وقال لقنَّاصته بالرومية: ارموه قريبًا من يديه، وهو يعرض عليه التنصُّر فأبى، قال: ارموه قريبًا من رجليه، وهو يعرض عليه التنصُّر فأبى.

عند ذلك أمرهم أن يكفّوا عنه، وطلب إليهم أن ينزلوه عن خشبة الصلب، ثم دعا بقدرٍ عظيمة، فصُبَّ فيها الزيت، ورُفعت على النار حتى غلت، ثم دعا بأسيرين من أسارى المسلمين، فأمر بأحدهما أن يُلقى فيها فأُلقي، فإذا لحمه يتفتت، وإن عظامه لتبدو عارية بعد إلقائه، ثم التفت إلى عبد الله، ودعاه إلى النصرانية، فكان أشدَّ إباءً من قبل.

فلما يئس منه، أمر به أن يُلقى في القدر التي أُلقي فيها صاحباه، فلما ذُهِب به دمعت عيناه، فقال رجال قيصر لملكهم: يا سيِّدي إنه قد بكى، فظَنَّ أنه قد جزع، فقال: ردّوه إلي، فلما مثُل بين يديه، عرض عليه النصرانية فأباها، قال: ويحك فما الذي أبكاك إذًا، ألم تكن خائفًا؟ قال: واللهِ ما أبكاني إلا أني قلت في نفسي: تُلْقى الآن في هذه القدر، فتذهب نفسك، وقد كنت أشتهي أن يكون لي بعدد ما في جسدي من شعرٍ أنفُسٌ، فتُلقى كلُّها في هذه القدر في سبيل الله، فقال الطاغية: هل لك أن تقبِّل

رأسي وأُخلِّي عنك؟ فقال له عبد الله: وهل تُخلّي عن جميع أُسارى المسلمين؟ فقال الطاغية: وعن جميع أسارى المسلمين أيضًا، قال عبد الله: فقلت في نفسي: عدوٌ من أعداء الله، أُقبِّل رأسه، فيُخلّي عني وعن أُسارى المسلمين جميعًا، لا ضيرَ في ذلك، ثم دنا منه، وقبَّل رأسه، فأمر ملك الروم، أن يجمعوا له أسارى المسلمين، وأن يدفعوهم إليه، فدُفِعوا له، وانطلق بهم إلى المدينة.

قَدِمَ عبد الله بن حذافة على عمر بن الخطاب ﷺ، وأخبره خبره، فسُرَّ به الفاروق أعظم السرور، ولما نظر إلى الأسرى، قال: حقٌ على كل مسلمٍ أن يقبِّل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أبدأ بذلك، ثم قام وقبَّل رأسه![1].

فلله درك يا عبد الله... ووالله وبالله وتالله لو كنتَ فينا أو كنتُ فيكم لقبلت رأسك كما قبلها وأشار بها أمير المؤمنين.

---

١- تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٧/٣٥٨).



obeikandl.com

# عروج وخير الدين بربروسا
# (أساطير البحار)

هما أَخَوَان، كلٌ منهما أسطورة بذاته، وهما إن كانا من العظماء الذين يتردد الواحد منَّا ويتحير عند الكتابة عن أمثالهم - خوفًا من عدم إعطائهم حقهم، أو أن يكون المقال لا يليق بهم، أو لضيق المقام عن ذكر واستيعاب أمجادهم – إلا أنَّ مما يهوِّن الأمر هنا قليلًا، أنني لن أحتاج لبذل جهدٍ أو تكبُّدِ عناءٍ لإثبات أنهما أسطورتان، لأنهما بالفعل أسطورة حقيقية!.

نعم أسطورةٌ بالفعل جسدتها أفلام هوليود في سلسلة الأفلام الشهيرة (قراصنة الكاريبي - Pirates of the Caribbean)، ولكن مع الفارق...

إن القرصان الأشهر في أفلام هوليود التي تجسد قراصنة البحار، هو القرصان ذو اللحية الحمراء والعين الواحدة واليد المقطوعة والقدم الخشبية القرصان (بربروسا)، والحقيقة التي لا يُراد لنا أن نعرفها أن بربروسا هذا الذي يصورونه لنا بهذه الصورة المخيفة ما هو إلّا بطل إسلامي قل نظيره في تاريخ الإنسانية جمعاء، رجل كله عزة وكرامة، ومنعة وسؤدد، مجاهد في سبيل الله، لم يكن قرصانًا متعطشًا للدماء كما يصورونه، بل كان بطلًا يعمل لإنقاذ دماء آلاف المسلمين التي كان يسفِكُها أجدادهم المجرمون، هو الأسطورة عروج ومن بعده أخوه الأسطورة خير الدين بربروسا.

والقصة تبدأ بذلك اللقاء الذي جمع السلطان العثماني (سليم الأول) رحمه الله بقائد بحري فذ اسمه (عروج)، وهو قائد عثماني من أب ألباني وأم أوروبية أندلسية

هربت بدينها من إرهاب محاكم التفتيش الصليبية في أقبية كنائس إسبانيا، كانت تقص عليه وعلى إخوته قصص التعذيب البشعة التي تعرض لها أخوالهم في الأندلس، وتروي لهم حكايات المقاومة الشعبية الإسلامية الباسلة لمسلمي الأندلس الذين رفضوا تغيير دينهم، فربتهم على طاعة الله وحب الجهاد في سبيله، وهنا يأتي دور الأم المسلمة صانعة الأبطال!.

المهم أن الخليفة العثماني سليم الأول استدعى القائد عروج وأطلعه على رسائل الاستغاثة التي بعث بها مسلمو الأندلس من أقبية الكنائس المظلمة، فأوكل إليه سليم الأول مهمة هي في عُرف الدنيا مهمة مستحيلة، وأعطاه التوجيه الاستراتيجي لهذه المهمة:

**المهمة المستحيلة:**

(١) الإبحار من أقصى شرق البحر المتوسط في تركيا إلى أقصى غرب المتوسط في الأندلس و محاربة أساطيل الجيوش الصليبية مجتمعة (إسبانية وبرتغالية وإيطالية وسفن القديس يوحنا). (٢) التمكن من اختراق كل تلك الحصون البحرية التي تبني جدارًا بحريًا حول الأندلس و التمكن من الرسو الآمن في إحدى المدن الأندلسية المحتلة من قبل القشتاليين الصليبيين. (٣) تدمير الحامية البحرية الإسبانية لتلك المدينة وشل قوة العدو الدفاعية والتحول إلى اليابسة وخوض حرب شوارع ضد القوات البرية الإسبانية في أزقة تلك المدينة وشوارعها. (٤) تحرير المدينة الأندلسية من جديد ورفع راية الإسلام العثمانية على قلاعها و مباغتة الكنائس بصورة مفاجئة للحيلولة دون هروب القساوسة الكاثوليك الذين يعرفون أماكن غرف التعذيب السرية. (٥) البحث في جميع أقبية الكنائس المظلمة بشكل فوري قبل أن يتم تهريب المُعذبين المسلمين

والتمكن من العثور على الغرف السرية التي يُعذّب فيها المسلمون الأوروبيون. (٦) بعد العثور على غرف التعذيب السرية يتم تحرير المسلمين مع مراعاة عدم نقلهم من الأقبية حتى غياب الشمس لتجنب إصابة الأسرى بالعمى نتيجة عدم رؤيتهم للشمس منذ سنين. (٧) يتم نقل الأسرى حملًا إلى السفن الإسلامية العثمانية، مع مراعاة الحالة البدنية الفظيعة التي وصلوا إليها، مع تجنب تعرض جلودهم المهترئة للتمزق أثناء الحمل. (٨) إخلاء المدينة على وجه السرعة، مع مراعاة أن لا تستمر العملية منذ الرسو في الميناء وحتى الإقلاع أكثر من ٦ ساعات لتجنب الاشتباك مع قوات المدد للعدو من الآتية من المدن المجاورة. (٩) الإبحار تحت جنح الظلام والتمكن من شل حركة العدو البحرية أثناء رحلة الرجوع، مع الأخذ بعين الاعتبار أن العودة هذه المرة لن تكون نحو تركيا، وإنما ستكون نحو الجزائر من طريق آخر لإسعاف الأسرى بأسرع وقت من جهة، ولخداع بحرية العدو من جهة أخرى. انتهت المهمة!

السلطان سليم الأول

هل رأيت أو سمعت أو قرأت عن عملية مستحيلة في تاريخ البشر أصعب من هذه المهمة؟!.

الغريب أن القائد عروج قام بتنفيذ هذه المهمة بنجاح منقطع النظير! والأغرب والأعجب من ذلك أنه قام وإخوته بتكرارها مرات ومرات، فأنقذ أولئك الإخوة الألبان جزاهم الله كل خير عشرات الآلاف من أرواح المسلمين، وذاع صيت القائد الإسلامي عروج في بحار الدنيا كلها، وتناقلت شوارع أوروبا الكاثوليكية قصصًا متناثرة عن بطولة بحار عثماني يبحر كالشبح المرعب فلا يستطيع أحد صده أبدًا، أما الأندلسيون المسلمون فقد أسموه (بابا أروج) أو (بابا أروتس) أي (الأب عروج) في لغة الأندلسيين

الأوروبيين، وذلك من فرط احترامهم وتقديرهم لهذا البطل الذي خلَّصهم من ويلات محاكم التفتيش، فحرف الإيطاليون (بابا أروتس) إلى (بربروس) وتعني بالإيطالية الرجل صاحب اللحية الحمراء، ولعل هذا هو سر امتلاك القرصان الذي يظهر في أفلامهم لحية حمراء، فيالهم من تافهين!.

المهم أن القائد عروج اصطحب معه في جهاده إخوته اسحق وإلياس وخير الدين، فاستشهد إلياس رحمه الله في جهاده وقام خير الدين بمحاربة الحكام العملاء مع الصليبيين الأسبان في بلاد الجزائر، بينما سقط عروج في أسر فرسان القديس يوحنا في جزيرة (رودس)، ولكن البطل عروج وبعملية خيالية استطاع أن يحرر نفسه![1].

إذ أنه لمَّا أُسِر، وصل الخبر إلى ميديلي فشرع أخوه خير الدين في البحث عن سبيل لإنقاذه وكان له صديق يُدعى (غريغو) يتاجر مع جزيرة (رودس) فأخذه خير الدين إلى (بودروم) وطلب منه إنقاذ أخيه عروج بثمانية عشر ألف آقجة، إلا أنه قام بخيانته وأخبر الفرسان في الجزيرة بأن خضر موجود في (بودروم) وباستعداده لإنقاذ عروج، وخلال هذه الفترة تعرض عروج للتعذيب وحبسه في زنزانة تحت الأرض بسبب ذلك، وكانت لعروج محاولات لإنقاذ نفسه إلا أنه لم يفلح في أي منها، وبعد مدة من سجنه في الزنزانة قرر قباطنة رودس إخراج عروج منها وتقييده في إحدى السفن ليصير أسيرًا جدافًا.

وفي تلك الفترة كان الأمير العثماني كركود بن بايزيد الثاني واليًا على إيطاليا، وكان قد تعود في كل سنة على شراء مائة أسير تركي من فرسان جزيرة رودس وأن يعتقهم. وفي ذلك العام أرسل كرود حاجبه إلى الجزيرة لفداء الأسرى، فقام

---

١- مائة من عظماء الإسلام للترباني (٥٢ : ٥٥).

الرودسيون بفرز الأسرى وتسليمهم وكانت الاتفاقية تقضي بأن يُحمل الأسرى على متن سفينة رودسية إلى سواحل إيطاليا، ووقع الاختيار على السفينة التي كان عروج مقيدًا بها لتنقل الأسرى، ورست السفينة في مكان قريب من إيطاليا وأُنزل حاجب الأمير كركود والمائة أسير، وفي تلك الليلة هبت ريح معاكسة قرر الرودسيون بسببها انتظار الصباح، ثم قاموا بإنزال قارب السفينة ومضوا لصيد الأسماك، وفي هذه الأثناء هبت عاصفة شديدة لم يتمكن القارب بسببها من الرجوع للسفينة، وانتهز عروج الفرصة وحلّ قيوده وقفز في البحر وسبح حتى وصل للساحل، ثم سار حتى وجد قرية تركية وجد بها عجوزاً قامت باستضافته، وأمضى عشرة أيام في القرية، حتى غادرها متوجهاً نحو (ميديلي)، فبلغ إيطاليا خلال ثلاثة أيام، ولقي فيها بحارًا مشهورًا يدعى (علي ريس) يمتلك سفينة يتاجر بها بين إيطاليا والإسكندرية وقد بلغته شهرة عروج ورحب به وقال له إن السفينة سفينتك أيضًا ثم لم يلبث حتى أصبح قبطانًا للسفينة، وذهب عروج إلى الإسكندرية وقام بإرسال رسالة إلى عائلته في ميديلي ليخبرهم بنجاته من الأسر[1].

وقيل: إنه لما وصل إلى إيطاليا، استولى على سفينة من سفن الجيش الصليبي بعد أن قتل كل من فيها من الجنود الصليبيين، ثم أبحر بها وحده من إيطاليا إلى الإسكندرية.

المهم أنه لما وصل إلى الإسكندرية، قابل السلطان المملوكي (الغوري) رحمه الله، فأهداه الغوري سفينة بعتادها ومجاهديها، ومن ميناء الإسكندرية انطلق المجاهد الفذ عروج مرة أخرى ليلقى أخاه خير الدين ويواصلا معًا الجهاد في سبيل

---

١- مذكرات خير الدين (٢٣ : ٣٢).

الله بسفنهم القليلة المتواضعة، فأصبح اسم «الأخوان بربروسا» اسمًا يرعب سفن الصليبيين الغزاة في كل بحار الأرض، ولكن أحد الخونة من الحكام الموالين لإسبانيا الصليبية آنذاك قام بمساعدة الغزاة في حصار مدينة (تلمسان) الجزائرية، ولكن القائد البطل عروج وجنوده الأتراك والجزائريين أبوا الهروب أو الاستسلام، وفضلوا أن يلقوا الله شهداءً في سبيله، فقاتل عروج بكل ما تحمله البسالة من معنى بيد واحدة بعد أن كان قد فقد يده الأولى من قبل وهو يجاهد في سبيل الله لإنقاذ نساء المسلمين وأطفالهم - لما أصيب بقذيفة في ذراعه الأيسر وقام الجراحون بتنظيف جراحه، إلا أنها لم تُشفَ واجتمع الجراحون على قطع ذراعه ولم يتوصلوا لحل غير هذا الحل فقاموا بقطعها -[1]، ولمَّا علم الإسبان أن القائد عروج بنفسه هو الذي يقاتل، بعثوا بالإمدادات العسكرية لتحاصر هذا البطل من كل اتجاه وهو يقاتل بيد واحدة وينظر إليهم وعينيه هناك في الجنة حيث ينتظره الشهداء الذين سبقوه، فأحاط به الصليبيون بسيوفهم في كل موضع قبل أن ينهالوا على جسمه بسيوفهم الغادرة تقطيعًا وتمزيقًا، ليرفع القائد عروج نظره إلى السماء ليتذكر ابتسامات الأطفال الأندلسيين الذين كانوا يبادلونه إياها عندما كان ينقذهم ويعيدهم إلى أحضان امهاتهم، ولعلَّ عروج تذكر حينها دعوات أولئك الشيوخ والعجائز في أقبية التعذيب المظلمة في كنائس إسبانيا عندما كان يحملهم على كتفيه لينقذهم في سفنه، لعله تذكر أمه الأندلسية عندما كان ينام في حضنها وهو طفل صغير وهي تمشط شعره بأصابعها وتقص عليه قصةً النوم من قصص الأبطال من صحابة رسول الله ﷺ ومن قصص أهلها في الأندلس وقصص ما كانوا يلاقونه من تعذيب مخيف في محاكم التفتيش، لعله تذكر

---

١- مذكرات خير الدين (٤٩ : ٥٤).

أخاه الصغير خير الدين وهم أطفال صغار يلعبون في مراعي ألبانيا الخضراء وكل واحد منهم يقص لأخيه كيف سيصبح بطلًا يجاهد في سبيل الله عندما يكبر، وبينما الصليبيون يغرسون سيوفهم في قلبه رفع القائد عروج إصبعه عاليًا وحرك شفتيه مبتسمًا وهو يقول:

أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله!.

لم يكتفِ الغزاة الصليبيون بقتل البطل عروج وإنما قطعوا رأسه وأخذوها ليطوفوا بها في مدن أوروبا الكاثوليكية التي دُقت بها أجراس الكنائس احتفالًا كلما مر رأس القائد الكابوس الذي كان يذيقهم ألوان الذل والهوان (بربروسا)، وكان ذلك في سنة ٩٢٤ هـ الموافق ١٥١٨م! [١].

يقول المؤرخ بيشو في كتابه (تاريخ شمال إفريقيا): وهكذا كانت الخاتمة البطولية لهذا القرصان المغامر الذي لا نتمالك أنفسنا عن الإعجاب بإقدامه، وبجرأته النادرة، كما نعجب أيما إعجاب بهذه العبقرية التي سادت أعماله في ميدان الحرب وفي ميدان تنظيم الدولة! [٢].

ويقول المؤرخ مورغان في كتابه (ص٢٥٧) وهو يصف الأسطورة عروج: إن الريس عروج عُرف من قبل الجميع، حتى الذين لم يروه تصوروا شخصيته فقد توفي عن عمر يناهز ٤٤ عامًا، ولم يكن طويل القامة، فهو ضخم الجثة، قوي البنية، شعره ولحيته يميلان إلى الحمرة، له نظرات حادة كلهيب النار، وأنفه شبيه بالأنف الروماني وبشرته بيضاء مائلة إلى السمرة (حنطية)، هذه الأوصاف كانت تمنحه القوة والثبات في قراراته، له همة عالية، يرمي نفسه في المخاطر، يكره تكديس الأموال، يتمتع

١- مائة من عظماء الإسلام للترباني (٥٥، ٥٦).

٢- المدني (١٩٣، ١٩٤).

بقدرة خارقة أثناء القتال، لم يكن سفاكًا للدماء بغير حق، ولا ظالمًا لمن يطيعه، ويحب عائلته وأصدقاءه وجنوده وخدمه وحتى الأسرى الموجودين لديه فبادله الجميع الحب والصدق وحتى الجبناء كانوا يحترمونه ويقدرون شهامته! [1].

ويقول المؤرخ دي غرامون في كتابه (الجزائر تحت حكم الأتراك): إن الكثير من المؤرخين لا يرون في عروج إلا زعيم عصابة ليس إلا، وإنني لا أعرف حُكْمًا جائرًا مخالفًا للحقيقة كمثل هذا الحكم، فإن البربروس الأول (عروج) ما كان إلا جنديًا من جنود الإسلام المغاوير، جاهد فوق متن البحار جهادًا لا هوادة فيه، ضد أعداء ملكه، وضد أعداء دينه، على أنه كان ملتزمًا خلال جهاده هذا بكل القواعد والأسس التي كان العمل جاريًا بها خلال تلك الحقبة من التاريخ، فلم يكن أبدًا أكثر قسوة ولا أقل قسوة من الأعداء الذين كان يمعن في حاربتهم.. وعندما سنحت له الفرصة وأمكنته غزواته من جمع قوة كافية حوله تُمَكِّنُه من القيام بجلائل الأعمال، حاول إنشاء إمبراطورية في الشمال الإفريقي، حيث كانت الفوضى ضاربة أطنابها..

ولقد مات كما يقول المؤرخ الإسباني هايدو: مأسوفًا عليه كل الأسف من قبل جميع الذين انضووا تحت رايته وعملوا تحت لوائه![2].

ويقول المؤرخ شارل أندري جوليان في كتابه (تاريخ إفريقيا الشمالية): وهكذا انتهت في سن الرابعة والأربعين هذه الحياة المجيدة في ميدان المغامرة، إنه هو الرجل الذي أنشأ - كما يقول هايدو المؤرخ الإسباني الذي كان أسيراً في الجزائر من ١٥٧٧م إلى ١٥٨١م - القوة العظيمة لمدينة الجزائر وللبلاد البربرية، إنه بنظرة صادقة لا تخطئ، وهي نظرته المعتادة، قد أدرك مدى ما تستطيع أقلية عاملة تحقيقه في

١- التنر (٦٧، ٦٨).

٢- المدني (١٩٤، ١٩٥).

وسط مليء بالمنافسات بين مختلف الإمارات المغربية، لكي يؤسس على حساب تلك الإمارات دولة إسلامية قوية لا تستطيع أن تنالها بسوء هجمات النصارى.. وعلى هذه الصفة تمكن من بسط سلطانه على جهات متيجة ووادي الشلف والتيطري والظهرة والونشريس ثم تلمسان ونسف مملكة بني زيان نسفاً لم تقم لها من بعده قائمة.. إنما كانت مأثرته هذه تتلاشى وتضمحل لو لم يتلقفها ويحتضنها باليمين شقيقه خير الدين الذي سار بها في طريق النجاح والكمال[1]...

**ومن هنا أكمل...**

إذ ليس المهم في أمة الإسلام من يحمل الراية، بل المهم أن تبقى الراية مرفوعة دائمًا! فإن كان قد سقط بطل من أبطال أمة الإسلام فإن هناك بطل آخر يولد بها، إنه القائد البطل الأسطورة (خير الدين بربروسا) الذي صمم على الثأر لدم أخيه المجاهد رحمه الله، فجهز سفنه واتجه بها مباشرةً إلى تونس فدمر السفن الإسبانية هناك، وحررها من الصليبيين وأذنابهم، ثم توجه بجنوده العثمانيين الأتراك فحرر الجزائر، ولم يكتفِ بذلك بل قام باحتلال (جزر البليار) الإسبانية بعد أن دمر الأسطول الإسباني هناك، ولما سمع البابا (بولس الثالث) في روما بانتصارات هذا القائد المسلم أعلن من (الفاتيكان) حالة النفير العام في أرجاء أوروبا الكاثوليكية، فتكوّن تحالف صليبي ضخم من ٦٠٠ سفينة تحمل نحو ستين ألف جندي، ويقوده قائد بحري أسطوري هو أعظم قائد بحري عرفته أوروبا في القرون الوسطى وهو (أندريا دوريا) وذلك لإنهاء الإسلام كلية في البحر الأبيض المتوسط، بينما تألفت القوات العثمانية من ١٢٢ سفينة تحمل اثنين وعشرين ألف جندي فقط، والتقى الأسطولان في

---

١- المدني (١٩٣، ١٩٤).

معركة (بروزة) في ٤ من جمادى الأولى ٩٤٥ هـ الموافق ٢٨ من سبتمبر ١٥٣٨م، في يوم من أيام الله العظيمة الخالدة، إنه يوم معركة بروزة البحرية الخالدة! وبالرغم من تفوق الصليبيين بالعدة والعتاد، إلا أن بربروسا قائد بحرية المسلمين انتصر انتصارًا كبيرًا، ودمر خير الدين الأسطول الأوروبي المتحالف تدميرًا كليًا، فهرب أسطورتهم (أندريا دوريا) من ميدان المعركة التي لم تستمر أكثر من خمس ساعات، وما ذكرت كتب التاريخ شيئًا عنه بعد تلك الهزيمة المخزية!.

وبعد هذا الانتصار الإسلامي الضخم، عمَّت حالة من الفزع والهلع أرجاء الإمارات الصليبية، وأصبحت البحرية الإسلامية العثمانية سيدة البحر المتوسط بلا منازع لثلاثة قرون متصلة، ووصل خبر انتصار القائد المجاهد خير الدين بربروسا إلى بلاد المسلمين في كل مكان، فعلت صيحات الله أكبر في مآذن مكة والمدينة والقدس وبومباي ودمشق والقاهرة وسمرقند وجميع ديار المسلمين، وصلى المسلمون هناك صلاة الشكر احتفالًا بنصر الله المؤزر على يد القائد المجاهد خير الدين بربروسا واستقبل السلطان سليمان القانوني خبر هذا النصر بالسجود شكرًا لله بعد أن أتم ما بدأه والده المجاهد سليم الأول رحمه الله من إنقاذ المسلمين في الأندلس، فقام بتعيين خير الدين بربروسا أميرًا عامًا للأساطيل الإسلامية العثمانية المجاهدة في كل بحار الدنيا.

ولكن هل اكتفى هذا العملاق بذلك النصر الذي حققه؟

كلّاَ والله ... لم يكتفِ بربروسا بما صنعه من مجد للإسلام، فقام مباشرةً بحملات مكثفة لإنقاذ المسلمين في الأندلس من تعذيب محاكم التفتيش، فأبحر في البحر الأبيض المتوسط جيئةً وذهابًا لنقل اللاجئين المسلمين الأندلسيين، فأنقذ وحده ٧٠ ألف مسلم ومسلمة بمن فيهم من أطفال ونساء وشيوخ! [1].

١- مائة من عظماء الإسلام للترباني (٥٦ : ٥٨).

ثم تُوُفِّيَ رحمه الله في ٥ من جُمَادَى الأولى ٩٥٣هـ الموافق ٤ من يوليو ١٥٤٦م عن ٦٥ عامًا في قصره المطلِّ على مضيق البوسفور بالأستانة، مسطِّرًا كذلك صفحة مجيدة من صفحات التضحية والفداء والإخلاص للإسلام، وردع القوى الصليبية الباغية!.

وإليك هذه الرسالة التي بُعثت إلى السلطان العثماني من أهل الجزائر التي أشادوا فيها بجهاد بابا عروج في مدافعة الكفار، وكيف كان ناصرًا للدين، وحاميًا للمسلمين، وتكلموا عن جهاده حتى وقع شهيدًا في حصار الإسبانيين لمدينة تلمسان، وكيف خلفه أخوه المجاهد في سبيل الله أبو التقى خير الدين، وكان له خير خلف فقد دافع عنا، ولم نعرف منه إلا العدل والإنصاف، واتباع الشرع النبوي الشريف، وهو ينظر إلى مقامكم العالي بالتعظيم والإجلال، ويكرس نفسه وماله للجهاد لرضاء رب العباد وإعلاء كلمة الله، ومناط آماله سلطنتكم العالية، مظهرًا إجلالها وتعظيمها، على أن محبتنا له خالصة، ونحن معه ثابتون، ونحن وأميرنا خدَّام أعتابكم العالية، وأهالي إقليم بجاية والغرب والشرق في خدمة مقامكم العالي، وإن المذكور حامل الرسالة المكتوبة سوف يعرض على جلالتكم ما يجري في هذه البلاد من الحوادث والسلام![1].

وأخيرًا وليس آخرًا... يقول المؤرخ بيشو في كتابه (تاريخ شمال إفريقيا): إن هذين الشقيقين (عروج وخير الدين) كان لهما من الإقدام والجرأة مقدار يفوق المتعارف عند الرجال، وكان لهما من الدهاء السياسي الخارق للعادة، ما يجعل الناس مشدوهين من وجود مثله عند رجلين لم تؤهلهما ثقافتهما البدائية ليقوما بهذا الدور العظيم، دور قيادة الشعوب![2].

---

١- الدولة العثمانية للصلَّابي.

٢- المدني (١٩٣، ١٩٤).

obeikandl.com

## محمد بن مسلمة
## (رجل المهمات الخاصة)

إنه الصحابي الفدائي، محل ثقة النبي وأصحاب النبي، وقاتل كعب بن الأشرف اليهودي، محمد بن مسلمة الأوسي الأنصاري...

إنه بطلٌ همام أشهر من أن يُنكر، وأحقُّ أن يُذْكَرَ، أَثَرُهُ ولَمْسَتُهُ وبلاؤُهُ في كل بقعة ضوءٍ ينثرها الإسلام على الدنيا، وسيفه وعزيمته وإيمانه في كل نصرٍ يحققه الإسلام على جحافل الضلال والخطيئة!.

إنه فارس وحارس رسول الله، بطلُ بدر، الصامدُ في أُحُد، قائد الفرسان في عمرة القضاء، وأمير السرايا المنتصر الظافر، والغانم المكتسب، نائب النبي في حكم المدينة مدة غيابه في تبوك، القائم على تنفيذ حكم الله في بني قريظة، رسول وحامل إنذار رسول الله لبني النضير، البطل الشجاع في خيبر، والمفتش العام في عهد الفاروق عمر، وهو من اعتزل الفتنة الكبرى، وكسرَ سيفَه على صخرةٍ، ولَزِمَ بيته حتى وَافَتْهُ مَنِيَّتُه...

مهمة قتل الشيطان اليهودي كعب بن الأشرف (المهمة المستحيلة):

تلك المهمة التي هي أشبه بما يسمى في زماننا هذا بالعمليات الخاصة، مهمة قتل عدو الله كعب بن الأشرف، ذلكم الشيطان الذي ساءَتْهُ نتيجة الحرب بين المشركين والمسلمين في بدر، فنزل مكة، وجعل يحرض على المسلمين وينشد الأشعار ويبكي أصحاب القليب، الذين قُتِلُوا ببدر، ويُؤَلِّبُ كفار قريش على الثأر، ثم رجع إلى المدينة فأخذ ينظم الأشعار تغزلًا وتَشَبُّبًا بأمهات المؤمنين ونساء الصحابة، فقال رسول

الله ﷺ: "من لي بابن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله والمؤمنين؟!"

فقال محمد بن مسلمة: أنا لك به يا رسول الله، أنا أقتله.

قال: فافعل إن قدرت على ذلك!.

ولأن ابن مسلمة رجلٌ لا يعرف غير الوفاء بما وعد به رسول الله ﷺ على أكمل وجه، فقد مَكَثَ ثلاثًا لا يأكل ولا يشرب، إلا ما يُعْلِقُ به نَفْسَه، فذُكِرَ ذلك لرسول الله ﷺ فدعاه فقال له: "لم تركت الطعام والشراب؟" فقال: يا رسول الله قلت لك قولًا لا أدري هل أفي لك به أم لا؟!

فقال: إنما عليك الجهد.

فاجتمع محمد بن مسلمة الأنصاري، وأبو نائلة سِلْكَانُ بن سلامة بنُ وقش، وكان أخا كعبِ بن الأشرف من الرضاعة، وعباد بن بشر بن وقش، والحارث بن أوس بن معاذ، وأبو عبس بن جبر من بني حارثة، يفكرون في الحيلة التي يدخلون بها على ابن الأشرف، ثم اجتمعوا عند رسول الله فمشى معهم ﷺ إلى بقيع الغرقد، فقالوا: يا رسول الله إنه لا بد لنا من أن نقول - نقول قولًا نخدع به الرجل -، قال: "قولوا ما بدا لكم، فأنتم في حل من ذلك" - وذلك لأن الحرب خدعة - ودعا لهم، فانطلقوا إلى بُغيتهم، فأتى محمدُ بن مسلمة كعبَ بن الأشرف فقال: إن هذا الرجل - يعني النبي - قد سألنا صدقةً، وإنه قد عنَّانَا - أتعبنا وأجهدنا -، وإني قد أتيتُك أستَسْلِفُك، قال: وأيضًا والله لَتَمَلُّنَّهُ، قال: إنا قد اتَّبَعْنَاهُ، فلا نحب أن ندعه حتى ننظرَ إلى أي شيءٍ يصيرُ شأنه، وقد أردنا أن تُسْلِفَنَا وَسْقًا، أو وَسْقَين، فقال: نعم، ارهنوني، قالوا: أي شيء تريد؟ قال: ارْهَنُوني نساءكم، قالوا: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟ قال: فارهنوني أبناءكم، قالوا: كيف نرهنك أبناءنا فيُسَبُّ أحدهم، فيقال رُهِنَ بوسقٍ أو وسقين؟ هذا

عارٌ علينا، ولكنا نرهنك اللأمة - يعني السلاح - فواعده أن يأتيه، فجاءه ليلًا ومعه أبو نائلة وهو أخو كعب من الرضاعة، فدعاهم إلى الحصن، فنزل إليهم فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الساعة؟، فقال: إنما هو محمد بن مسلمة، وأخي أبو نائلة، قالت: أسمعُ صوتًا كأنَّهُ يقطُرُ منه الدَّمُ، قال: إنما هو أخي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة، إن الكريم لو دُعِيَ إلى طعنة بليل لأجاب، فقال محمد بن مسلمة لمن معه: إذا ما جاء فإني قائلٌ بشَعَرِه فأشُمُّهُ، ثم أَشِمُّكُم، فإذا رأيتموني استمكنتُ من رأسه فدونكم فاضربوه، فنزل إليهم مُتَوَشِّحًا وهو ينفح منه ريحُ الطيب، فقال: ما رأيتُ كاليوم ريحًا أي أطيب، فقال كعب: عندي أعطرُ نساء العرب وأكملُ العرب، فقال محمد: أتأذن لي أن أشم رأسك؟، قال: نعم، فشمَّه، ثم أشمَّ أصحابه، ثم قال: أتأذن لي أن أعود؟، قال: نعم، فلما استمكن منه، قال: اضربوا عدو الله، فاختلفت عليه أسيافهم، قال محمد بن مسلمة: فذكرت مِغْوَلًا - سوطًا في جوفه سيف دقيق - في سيفي، حين رأيتُ أسيافنا لا تغني شيئًا، فأخذتُه، فوضعته في ثُنَّتِه ثم تحاملت عليه حتى بلغتُ عانَتَه فوقع عدو الله، وقد صاح صيحةً لم يبق حولنا حصنٌ إلا وقد أُوْقِدَتْ عليه نار، وأُصيبَ الحارث بن أوس بن معاذ فجُرِح، قال: فاحتملناه فجئنا به رسول الله ﷺ آخر الليل وهو قائم يصلي، فسلمنا عليه فخرج إلينا، فقال: أفلحتْ الوجوه، فأخبرناه بقتل عدو الله، وتفل على جرح صاحبنا، فرجع، ورجعنا إلى أهلنا، فأصبحنا وقد خافت يهود لوقعتنا بعدو الله فليس بها يهودي إلا وهو يخاف على نفسه![1].

فلله درُّكَ يا ابن مسلمة

---

١- سيرة ابن هشام (٥٥/٢)، وأصل الحديث رواه البخاري (٣٨١١).

وكان محمد بن مسلمة ﷺ قد شَهِدَ المشاهدَ كلها مع رسول الله ﷺ، ما عدا غزوة تبوك التي استخلفه فيها رسول الله على المدينة، فكانت له فيها مشاهد عظيمة، وأيادٍ كريمة، فكان جبلًا من فرسان الصحابة الذين حلَّقُوا عاليًا في سماء الفروسية والشجاعة، وممن تركوا آثارًا وضيئة في ميادين البذل والجهاد وسجلات الفروسية[1].

وعَنِ الْحَسَنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَعْطَى مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ سَيْفًا فَقَالَ: "قَاتِلْ بِهِ الْمُشْرِكِينَ مَا قُوتِلُوا، فَإِذَا رَأَيْتَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فَأْتِ بِهِ أُحُدًا فَاضْرِبْهُ بِهِ حَتَّى تَقْطَعَهُ، ثُمَّ اجْلِسْ فِي بَيْتِكَ حَتَّى تَأْتِيَكَ يَدٌ خَاطِئَةٌ أَوْ مَنِيَّةٌ قَاضِيَةٌ"[2]

---

١- انظر فرسان النهار من الصحابة الأخيار للعفاني(٣/٣٩).

٢- رواه ابن سعد في الطبقات (٤٤٢٦).



obeikandl.com

# علي بن أبي طالب

إنه الخليفة الراشد، والعابد الزاهد، والبطل المجاهد...

ابن عم النبي، وزوج ريحانة النبي، وأبو سبطي النبي، وهو فدائي النبي...

ومن هنا أبدأ، لأنني لو تحدثت عن مناقبه وفضائله لن أنتهي، ولو انتهيت فسأكون لمَّا أحصَيْتُها بعد!.

فحسبه أنه نام ليلة الهجرة في فراش النبي ﷺ وهو يعلم أن المشركين يريدون قتل النبي ﷺ، وهو يعلم أنه لا محالة مقتول، ومع ذلك نام!.

**وفي يوم الخندق...**

كَانَ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وُدٍّ - كبش الكتيبة - فَارِسَ قُرَيْشٍ، وَكَانَ قَدْ قَاتَلَ يَوْمَ بَدْرٍ حَتَّى ارْتُثَّ - حُمِلَ جريحًا من المعركة -، وَأَثْبَتَتْهُ الْجِرَاحَةُ، فَلَمْ يَشْهَدْ أُحُدًا، فَلَمَّا كَانَ الْخَنْدَقُ خَرَجَ مُعْلَمًا - هو الذي يجعل لنفسه علامًا وشعارًا يُعرف بهما - لِيُرَى مَشْهَدُهُ فَلَمَّا وَقَفَ هُوَ وَخَيْلُهُ، خَرَجَ فَنَادَى: مَنْ يُبَارِزُ؟ فَقَامَ عَلِيٌّ ﷺ وَهُوَ مُقَنَّعٌ فِي الْحَدِيدِ، قَائِلًا: أَظُنُّهُ عَمْرًا، ثم قَالَ: أَنَا لَهَا يَا نَبِيَّ اللهِ!، فَقَالَ: إِنَّهُ عَمْرٌو اجْلِسْ، وَنَادَى عَمْرٌو، أَلَا رَجُلٌ، وَهُوَ يُؤَنِّبُهُمْ وَيَقُولُ: أَيْنَ جَنَّتُكُمُ الَّتِي تَزْعُمُونَ أَنَّهُ مَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ دَخَلَهَا؟! أَفَلَا تُبْرِزُونَ إِلَيَّ رَجُلًا؟ فَقَامَ عَلِيٌّ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: اجْلِسْ، ثُمَّ نَادَى الثالثة، فقال:

وَلَقَدْ بُحِحْتُ مِنَ النِّدَاءِ ... بِجَمْعِكُمْ: هَلْ مِنْ مُبَارِزْ

وَوَقَفْتُ إِذْ جَبُنَ الْمُشَجَّعُ ... مَوْقِفَ الْقِرْنِ الْمُنَاجِزْ

وَلِذَاكَ إِنِّي لَمْ أَزَلْ ... مُتَسَرِّعًا قَبْلَ الْهَزَاهِزْ

إِنَّ الشَّجَاعَةَ فِي الْفَتَى ... وَالْجُودَ مِنْ خَيْرِ الْغَرَائِزْ

فَقَامَ عَلِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا، فَقَالَ: إِنَّهُ عَمْرٌو، قَالَ: وَإِنْ كَانَ عَمْرًا، فَأَذِنَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَمَشَى إِلَيْهِ حَتَّى أَتَاهُ وهو يقول:

لا تعجلنّ فقد أتاك ... مُجِيبُ صَوْتِكَ غَيْرُ عَاجِزْ

ذُو نِيَّةٍ وَبَصِيرَةٍ ... وَالصِّدْقُ مَنْجَى كُلِّ فَائِزْ

إِنِّي لأرجو أن أقيم ... عَلَيْكَ نَائِحَةَ الْجَنَائِزْ

مِنْ ضربة نجلاء ... يبقى ذِكْرُهَا عِنْدَ الْهَزَاهِزْ

فَقَالَ لَهُ عَمْرو: وَمَنْ أَنْتَ. قَالَ: أَنَا عَلِيٌّ، قَالَ: ابْنُ عَبْدِ مناف؟ فقال: عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ: غَيْرُكَ يَا ابن أَخِي وَمِنْ أَعْمَامِكَ مَنْ هُوَ أَسَنُّ مِنْكَ، فَأَنَا أَكْرَهُ أَنْ أُهَرِيقَ دَمَكَ، فَقَالَ عَلِيٌّ ﷺ: لَكِنِّي وَاللهِ مَا أَكْرَهُ أَنْ أُهَرِيقَ دَمَكَ، فَغَضِبَ، فَنَزَلَ وَسَلَّ سَيْفَهُ كَأَنَّهُ شُعْلَةُ نَارٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ نَحْوَ عَلِيٍّ مُغْضَبًا، وَاسْتَقْبَلَهُ عَلِيٌّ ﷺ بِدَرَقَتِهِ فَضَرَبَهُ عَمْرٌو فِي الدَّرَقَةِ فَقَدَّهَا، وَأَثْبَتَ فِيهَا السَّيْفَ، وَأَصَابَ رَأْسَهُ فَشَجَّهُ، وَضَرَبَهُ عَلِيٌّ عَلَى حَبْلِ الْعَاتِقِ فَسَقَطَ، وَثَارَ الْعَجَاجُ، وَسَمِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ التَّكْبِيرَ، فَعَرَفَ أَنَّ عَلِيًّا قَدْ قَتَلَهُ، فتهلَّلَ وجهُهُ ﷺ، وَخَرَجَتْ خَيْلُ الْمُشْرِكِينَ مُنْهَزِمَةً هَارِبَةً، حَتَّى اقْتَحَمَتْ مِنَ الْخَنْدَقِ! [1].

وفي فتح خيبر...

كانت تلك الواقعة مع فارس فرسان اليهود (مَرْحَبْ)..

---

١- دلائل النبوة للبيهقي (٤٣٨/٣).

يحكي سلمة بن الأكوع ما حدث قائلًا:

خَرَجَ مَلِكُهُمْ مَرْحَبٌ يَخْطِرُ بِسَيْفِهِ، وَيَقُولُ:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي مَرْحَبُ ... شَاكِي السِّلاَحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ

إِذَا الْحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبُ.

قَالَ: وَبَرَزَ لَهُ عَمِّي عَامِرٌ، فَقَالَ:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي عَامِرُ ... شَاكِي السِّلاَحِ بَطَلٌ مُغَامِرُ

قَالَ: فَاخْتَلَفَا ضَرْبَتَيْنِ، فَوَقَعَ سَيْفُ مَرْحَبٍ فِي تُرْسِ عَامِرٍ، وَذَهَبَ عَامِرٌ يَسْفُلُ لَهُ، فَرَجَعَ سَيْفُهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَقَطَعَ أَكْحَلَهُ، فَكَانَتْ فِيهَا نَفْسُهُ.

قَالَ سَلَمَةُ: فَخَرَجْتُ، فَإِذَا نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، يَقُولُونَ: بَطَلَ عَمَلُ عَامِرٍ، قَتَلَ نَفْسَهُ، قَالَ: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، بَطَلَ عَمَلُ عَامِرٍ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "مَنْ قَالَ ذَلِكَ؟" قَالَ: قُلْتُ: نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِكَ، قَالَ: "كَذَبَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ، بَلْ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ"، ثُمَّ أَرْسَلَنِي إِلَى عَلِيٍّ وَهُوَ أَرْمَدُ، فَقَالَ: "لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلاً يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، أَوْ يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ"، قَالَ: فَأَتَيْتُ عَلِيًّا، فَجِئْتُ بِهِ أَقُودُهُ وَهُوَ أَرْمَدُ، حَتَّى أَتَيْتُ بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَبَسَقَ فِي عَيْنَيْهِ فَبَرَأَ وَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، وَخَرَجَ مَرْحَبٌ، فَقَالَ:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي مَرْحَبُ ... شَاكِي السِّلاَحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ

إِذَا الْحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبُ.

فَقَالَ عَلِيٌّ:

أَنَا الَّذِي سَمَّتْنِي أُمِّي حَيْدَرَهْ ... كَلَيْثِ غَابَاتٍ كَرِيهِ الْمَنْظَرَهْ

أُوفِيهِمُ بِالصَّاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ.

قَالَ: فَضَرَبَ رَأْسَ مَرْحَبٍ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ كَانَ الْفَتْحُ عَلَى يَدَيْهِ [1]!.

وحسبُكَ يا عليّ، شهادة النبيّ: «رَجُلاً يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، لَيْسَ بِفَرَّارٍ»!.

obeikandl.com

١- رواه البخاري (٣٩٥٨) مختصرًا ومسلم ٤٧٠٢-(١٣٢-١٨٠٧) وأحمد (١٦٥٣٩)، (٢٢٨٢١) واللفظ له.

# عمر المختار
## (أسد الصحراء)

بهذا الخلق الإيماني، وهذا الإباء والثبات الأسطوري، عاش أسد الصحراء بشهادة الأعداء عمر المختار يجاهد المحتل الإيطالي،

صابرًا ثابتًا يُعَرِّفُ أعداءَنَا أنَّنَا ... عمالقةٌ لا نَهَابُ الرَّدَى

تبدأ قصة بطولة هذا البطل في نهايات القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، لما ذهب عمر المختار إلى قلب أفريقيا ليجاهد مع إخوانه من مسلمي (تشاد) ضد المستعمر الفرنسي، حيث لقن جنرالات فرنسا دروسًا في فنون القتال العربي الأصيل، قبل أن يلقنهم ما تعلمه من دروس الكفاح المسلح ضد الغزاة المحتلين!، عندها ذاع صيته في أرجاء أفريقيا، ثم جعل يتنقل بين القبائل الأفريقية ينشر الإسلام فيها، قبل أن يفرغ نفسه لكي يصبح معلمًا!.

ثم جاء الدور على الاحتلال الإيطالي..

ففي يوم ٢٩ سبتمبر ١٩١١م بدأت إيطاليا إرسال بارجاتها البحرية لاحتلال ليبيا، ليعود هذا البطل الأسطوري من جديد إلى الجهاد المسلح، ولكن هذه المرة ضد الغزاة الطليان، فقام بتوحيد المجاهدين وتنظيم صفوفهم، ثم بدأ بشن الغارات تلو الغارات ضد صفوف الغزاة، عندها بدأ يتساءل الطليان عن هوية ذلك الشبح المرعب الذي يباغت جنودهم من حين لآخر، وبدأ اسم المختار يُدَوِّي من جديد، حتى بدأت تتداوله صحف روما، فتغيرت أربع حكومات في إيطاليا نتيجة لهزائم الجيوش

الإيطالية المتتالية على يد المختار ومن معه من المجاهدين الليبيين، فتحول عمر المختار إلى كابوس يقض مضاجع الإيطاليين، حتى أخذ (موسوليني) على عاتقه مهمة إنهاء أسطورة المختار الذي باتت انتصاراته المتتابعة تسبب الإحراج لسمعة إيطاليا في أوروبا، فقرر زعيم الفاشية أن يلقي بورقته الأخيرة، فأرسل إلى ليبيا مجرم حربٍ يدعى (غرتسياني)، فقام هذا المجرم بتنفيذ خطة إفناء وإبادة لم يسبق لها مثيل في التاريخ، بين بناء أطول جدار سلكي شائك في العالم بين مصر وليبيا لقطع الإمدادات، وبين إنشاء أكبر معسكر اعتقال في التاريخ، فسجن فيه ما يقرب من نصف الشعب الليبي، فوضع فيه ثمانين ألف إنسان، مع أنه في الأصل لا يتسع إلا لعشرة آلاف، بل ووضع معهم مواشيهم وإبلهم ليموتوا موتًا بطيئًا في محرقة مهولة فظيعة يندى لها جبين التاريخ، قبل أن يقوم هذا المجرم بإلقاء نصف طن من القنابل على المدنيين في مدينة (الكفرة) التي قام فيها أعوانه مسبقًا باغتصاب الفتيات المسلمات الحرائر مناوبة، أما الكبار من الشيوخ والنساء فكانوا يُلقَونَ من الطائرات على ارتفاع ٤٠٠ متر مغلولي الأيدي والأرجل بعد أن يقول لهم الطليان: لا تنسوا أن تطلبوا من نبيكم البدوي محمد أن يبعث لكم بالنجدة!، أما الأطفال فكانوا يُخطفون من أحضان أمهاتهم لإرسالهم إلى الفاتيكان لتنصيرهم واستعمالهم، كل هذا وغيره الكثير والكثير من أبشع المناظر والصور التي يمكن أن يتخيلها عقل، كان يقوم بها دعاة الحرية والديانة والحقوق...

أما المختار.. فقد كان يقاتلُ بإيمان عميق، ويقينٍ راسخ، وثقةٍ في الله لا تعدلها ثقة...

قيل له يومًا: إنَّ إيطاليا تملك طائراتٍ نحن لا نملكها!، فقال: أتُحَلِّقُ فوق العرش

أم تحته؟ قيل: بل تحته. فقال: من فوق العرش معنا، فلا يُخيفنا من تحته!.

وكان يحارب ويجاهد بكل ما أوتي من قوة، مُسدِّدًا في كل ما أمكن من الجهات.. يشن الغارات، ويحرق المعسكرات، وينصب الكمائن ويريهم الويلات، ومع ذا يقوم الليل، ويختم القرآن مرةً كل أسبوع في نفس أيام القتال، ولا ينام إلا ساعتين أو ثلاث!.

حتى جاء اليوم المنتظَر من قِبَلِهِم..

فبينما الأسد يتنقل في صحراء ليبيا الحارقة مُجاهدًا مُتَفَقِّدًا، باغته كمين إيطالي، ليصاب فرسه، ويسقط الأسد على رمال الصحراء، عندها أخذ يزحف على بطنه فوق رمال الصحراء الملتهبة، وهو رجل قد جاوز الخامسة والسبعين من عمره، ليعتقله مرتزقة الطليان، ليسرع غرتسياني لمقابلة أسد الصحراء عمر المختار، وها هو غرتسياني يصف هذه المقابلة بنفسه في كتابه (برقة المهدأة) قائلًا:

عندما نظرتُ إلى عمر وجدته وقد علته هالة من النور يراها القاصي منه والداني، فأخذت شفتاي ترتعشان، ولا أعلم سبب هذا الخوف الذي ملأ قلبي؟! فقلت لنفسي: هذا قديس!.

ثم يصف لقاءه معه فيقول:

وعندما حضر المختار أمام مكتبي كانت يداه مكبلتين بالسلاسل، وبالإجمال يُخَيَّلُ لي أن الذي يقف أمامي رجل ليس كالرجال العاديين، له منظره وهيبته، رغم أنه كان يشعر بمرارة الأسر، ها هو واقف أمام مكتبي أسأله ويجيب بصوت هادئ وواضح، فسألته قائلًا: لماذا حاربت بشدة متواصلة الحكومة الفاشستية؟

(فأجاب الشيخ): من أجل ديني ووطني!.

فقلت: ما الذي كان في اعتقادك الوصول إليه؟

فأجاب الشيخ: لا شيء إلا طردكم، لأنكم مغتصبون، أما الحرب فهي فرض علينا وما النصر إلا من عند اللّه.

فسألته: لِمَا لك من نفوذ وجاه، في كم يوم يمكنك أن تأمر الثوار البدو بأن يسلموا أسلحتهم؟

ما أن سألتُ المختار هذا السؤال حتى نظر إليَّ بنظرة أرعبتني وقال لي بثقة غريبة: «إننا لا نستسلم أبدًا. . . . نموت أو ننتصر»!.

وعندما وقف ليتهيأ للانصراف كان جبينه وضاءً كأن هالة من نور تحيط به فارتعش قلبي من جلالة الموقف!، أنا الجنرال الذي خاض معارك الحروب العالمية والصحراوية ورغم هذا فقد كانت شفتاي ترتعشان ولم أستطع أن أنطق بحرف واحد أمام هذا الرجل!، فأنهيت المقابلة وأمرت بإرجاعه إلى السجن لتقديمه إلى المحاكمة في المساء!.

اللّه أكبر

فَقَدَ المختار كثيرًا من رفاق دربه في ساحات الوَغَى فصبر، فَقَدَ ابنَ شقيقه الذي هو بمنزلة ابنه فاحتسبه، وقال لمُعَزِّيهِ: كل مجاهد عندي بمنزلة ابن أخي.

لقد سكنوا القلبَ حتى غدا ... مثابًا ولن يبرحوه ولن

ظل هذا الأسد الهصور يجاهد المحتل وينازله حتى أصيب ووقع أسيرًا، ولسان حاله: ما أصاب من مصيبة إلا بإذن اللّه.

اللهم ما لي غيرُ محضِ الرِّضَا ... ما أنا صخابٌ ولا غاضبُ

وأتاه المحتل ببعض أصحابه، فلما رآه نظر له بحدة وقال: ما جاء بك؟ قال جئت بناءً على طلبك، فكالرعد القاصف دوَّى قائلًا: ما طلبتك، ولم أطلب أحدًا ولا حاجة لي

عند أحد. – ما قال ذاك تكبرًا، بل عزة في النفس، وهي سجية الرئبال.

ولما قيل لصاحبه كيف وجدته؟

فقال متمثلًا:

عليهِ ثيابٌ لو تُقَاسُ جميعُهَا ... بفلْسٍ لكان الفلْسُ منهنَّ أكثرَا

وفيهنَّ نفسٌ لو تقاسُ ببعضِهَا ... نفوسُ الورى كانت أجلَّ وأكبرَا

ويا هول ما تلقى النفوس الأبية الكريمة، حين تظفر بها النفوس الحقيرة الخسيسة، حكموا عليه بالإعدام، بقرار مسبق بإعدامه، وهو قد جاوز الخامسة والسبعين.

وحينما تُرْجِمَ له الحكم، قهقه قائلًا: الحكمُ حكمُ اللّه لا حُكْمُكُم المزيف. حاله: وما كان لنفسٍ أن تموت إلا بإذن اللّه.

وتقدم على مشهدٍ من قومه يُرَدِّد: أشهد أن لا إله إلا اللّه.

ولقي فيما نحسبه رب البرية، في أسمى وأعلى معان الحرية، وحاله:

مذ عرفت اللّه لم أضعف لمخلوق ولم .. أرتجِ من غير ربي مددي

أيها القاتل يومي بُؤ به .. أنت لا تقوى على قتل غدي[1].

---

١- الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا، مائة من عظماء الإسلام للترباني، محاضرة الجادي المدوف لعلي القرني.

obeikandl.com

# عمرو بن الجموح
# (البطل الأعرج)
# وابنه معاذ

«كأني أنظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنة»

محمد رسول الله ﷺ

بطل هذا الفصل هو أسطورةٌ من طراز فريد، وبطلٌ من نوعٍ خاص، لأنه بطلٌ حقيقيٌّ بكل ما تحمله الكلمة من معنى، كان همُّهُ الأعظم بل هدفه في الحياة هو خدمة دينه، والدفاع عنه، ونيل الشهادة في سبيل الله، وبالفعل نجح في ذلك، ووصل إليه على الرغم من كبر سنِّه بالإضافة إلى أنه كان من ذوي القدرات الخاصة!.

نعم كان من ذوي القدرات الخاصة، وليس كما يطلق عليهم بعض الناس ذوي الاحتياجات الخاصة، فلقد كان عمرو بن الجموح ﷺ أعرج شديد العرج، كما أنه أسلم بعد أن كان قد جاوز الستين من عمره!.

أسلم عمرو ﷺ فعاش أسعد أيامه في ظل هذا الدين العظيم، وفي صحبة الحبيب ﷺ الذي أحبه من أعماق قلبه حُبًّا جمًّا.

وكانت نفسه قد اشتاقت إلى الجهاد في سبيل الله والشهادة في سبيله، لعلَّه أن يحصل بذلك الخير، ويستدرك شيئًا مما فات وانقضى من عمره.

فلما كانت غزوة (بدر)، أراد عمرٌو أن يخوضها ويكون أحد البدريين، فمنعه أولاده خوفًا عليه لكبر سنه وضعفه، فتألم لذلك ألمًا شديدًا.

ومن الجدير بالذكر أن ابنه معاذ بن عمرو سطَّر في تلك الغزوة صفحةً مضيئةً على جبين التاريخ عندما شارك في قتل أبي جهل...

عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بن عَوْفٍ قَالَ: إِنِّي لَوَاقِفٌ يَوْمَ بَدْرٍ فِي الصف فنظرت فإذا أَنَا بَيْنَ غُلاَمَيْنِ مِنَ الأَنْصَارِ حديثةٌ أَسْنَانُهُمَا فَتَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ بَيْنَ أَضْلَعَ مِنْهُمَا. فَغَمَزَنِي أَحَدُهُمَا فَقَالَ: يَا عَمِّ! أَتَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. وَمَا حَاجَتُكَ؟ قَالَ: أُخْبِرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُوْلَ اللهِ - ﷺ - وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ رَأَيْتُهُ لاَ يُفَارِقُ سَوَادِي سَوَادَهُ حَتَّى يَمُوْتَ الأَعْجَلُ مِنَّا. فتعجَّبْتُ لِذَلِكَ فَغَمَزَنِي الآخَرُ فَقَالَ مِثْلَهَا، فَلَمْ أَنْشَبْ أَنْ نَظَرْتُ إِلَى أَبِي جَهْلٍ وَهُوَ يَجُوْلُ فِي النَّاسِ. فَقُلْتُ: أَلاَ تَرَيَانِ؟ هَذَا صَاحِبُكُمَا. قَالَ: فَابْتَدَرَاهُ بِسَيْفَيْهِمَا حَتَّى قَتَلاَهُ ثُمَّ انْصَرَفَا إلى النبي فَأَخْبَرَاهُ فَقَالَ: "أَيُّكُمَا قَتَلَهُ؟" فَقَالَ كُلٌّ مِنْهُمَا: أَنَا قَتَلْتُهُ فَقَالَ: "هَلْ مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُمَا؟" قَالاَ: لاَ. فَنَظَرَ فِي السَّيْفَيْنِ فَقَالَ: "كِلاَكُمَا قَتَلَهُ" وَقَضَى بِسَلَبِهِ لِمُعَاذِ بنِ عَمْرٍو. وَالآخَرُ هُوَ مُعَاذُ بنُ عَفْرَاءَ[1].

وَعَنْ مُعَاذِ بنِ عَمْرٍو قَالَ: جَعَلْتُ أَبَا جَهْلٍ يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ شَأْنِي. فَلَمَّا أَمْكَنَنِي حَمَلْتُ عَلَيْهِ فَضَرَبْتُهُ فَقَطَعْتُ قَدَمَهُ بِنِصْفِ سَاقِهِ!، وَضَرَبَنِي ابْنُهُ عِكْرِمَةُ بنُ أَبِي جَهْلٍ عَلَى عَاتِقِي فَطَرَحَ يَدِي وَبَقِيَتْ معلقةً بجلدة بجنبي وأجهضني عَنْهَا القِتَالُ – شغلني عنها وألهاني - فَقَاتَلْتُ عَامَّةَ يَوْمِي وَإِنِّي لأَسْحَبُهَا خَلْفِي فَلَمَّا آذَتْنِي وَضَعْتُ قَدَمِي عَلَيْهَا ثُمَّ تَمَطَّأْتُ عَلَيْهَا حَتَّى طَرَحْتُهَا!![2].

قال الذهبي في السير معلقًا: هَذِهِ وَاللهِ الشَّجَاعَةُ، لاَ كَآخَرَ مِنْ خُدْشٍ بِسَهْمٍ يَنْقَطِعُ قَلْبُهُ وَتَخُوْرُ قِوَاهُ!.

---

١- رواه البخاري (٢٩٧٢) ومسلم ٤٥٩٠-(٤٢-١٧٥٢) وأحمد (١٦٧٣).

٢- سير أعلام النبلاء (١/ ٢٥٠، ٢٥١)، قال الأرنؤوط: رجاله ثقات.

فهذا معاذ بن عمرو، أما أبوه عمرٌو ﷺ وبعد مرور عامٍ كاملٍ من حين كانت غزوة بدر، فها هو يسمع بقريش قد خرجت إلى (أُحُدٍ)، وقد جمعت جموعها لمعركة الانتقام والثأر من المسلمين بعد بدر، فأعدَّت عزائمها وأحقادها وثاراتها وسلاحها، وزحفت بذلك جميعه نحو (أحد) تريد القضاء على الإسلام في عقر داره.

وعمرٌو ﷺ يرقب الأيام تمضي مسرعةً، وما زالت نفسه تهفو، وقلبه يشتاق إلى الفوز بالشهادة في سبيل الله على الرغم من أن الله قد عذره من فوق سبع سماوات: "لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ"[1]. - يَعْنِي فِي تَخَلُّفِهِمْ عَنِ الْجِهَادِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ -.

كما أن عمرو بن الجموح ﷺ لم يكن له ابنٌ واحدٌ مجاهدٌ فقط، بل كان له أربعةُ أبناء شباب كلهم يغزو مع رسول الله ﷺ، فلما توجهوا إلى (أحد) أراد أن يخرج معهم، فقال له بنوه: إن الله جعل لك رخصةً، فلو قعدتَ ونحن نكفيك، وقد وضع الله عنك الجهاد. فأتى عمرو رسول الله ﷺ فقال: إن بنيَّ هؤلاء يمنعونني أن أجاهد معك، ووالله إنِّي لأرجو أن أستشهد، فأطأ بعرجتي هذه في الجنة!!. فقال له رسول الله ﷺ: "أمّا أنت فقد وضع الله عنك الجهاد". وقال لبنيه: "وما عليكم أن تدعوه لعلَّ الله عز وجلَّ أن يرزقه الشهادة"، فَلَمَّا كانَ يومُ (أُحُدٍ) خرج مع رسول الله ﷺ، فقَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: "قُوْمُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِيْنَ"، فَقَامَ وَهُوَ أَعْرَجُ فَقَالَ: وَاللهِ لأَقْحَزَنَّ – لأقفزنَّ ولأثبنَّ – عَلَيْهَا فِي الجَنَّةِ. فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ![2].

---

١- (الفتح: ١٧).

٢- سيرة ابن هشام (١٣٩/٢) وصححه الألباني، سير أعلام النبلاء (٢٥٣/١).

وفي رواية: أَتَى عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلْتُ فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى أُقْتَلَ أَمْشِي بِرِجْلِي هَذِهِ صَحِيحَةً فِي الْجَنَّةِ؟، وَكَانَتْ رِجْلُهُ عَرْجَاءَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "نَعَمْ". فَقَتَلُوهُ يَوْمَ أُحُدٍ هُوَ وَابْنُ أَخِيهِ وَمَوْلًى لَهُمْ، فَمَرَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: "كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكَ تَمْشِي بِرِجْلِكَ هَذِهِ صَحِيحَةً فِي الْجَنَّةِ"!. فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهِمَا وَبِمَوْلَاهُمَا فَجُعِلُوا فِي قَبْرٍ وَاحِدٍ[1].

الله أكبر

فلله درك أيها الأسطورة القدوة...

ولكأنِّي بامرأته هند أخت عبدالله بن حرام – والد جابر بن عبدالله، وهو الذي كَلَّمَ ربه كِفَاحًا، ليس بينه وبينه ترجمان، وقال له الله: تمنَّ عليَّ أعطك؟... – حين وصفت زوجها عمرو بن الجموح وهو خارجٌ إلى (أحد) فتقول: كأنِّي أنظر إليه قد أخذ دَرَقته وهو يقول: اللهم لا تردَّني!.

**بشرى عاجلة.. ولقاءٌ عاجلٌ للأحبة بعد الشهادة مباشرة...**

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ صُعَيْرٍ الْعُذْرِيِّ، حَلِيفِ بَنِي زُهْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا أَشْرَفَ عَلَى الْقَتْلَى يَوْمَ أُحُدٍ، قَالَ: أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ، إِنَّهُ مَا مِنْ جَرِيحٍ يُجْرَحُ فِي اللَّهِ، إِلَّا وَاللَّهُ يَبْعَثُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَدْمَى جُرْحُهُ، اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ وَالرِّيحُ رِيحُ مِسْكٍ، انْظُرُوا أَكْثَرَ هَؤُلَاءِ جَمْعًا لِلْقُرْآنِ، فَاجْعَلُوهُ أَمَامَ أَصْحَابِهِ فِي الْقَبْرِ- وَكَانُوا يَدْفِنُونَ الِاثْنَيْنِ وَالثَّلَاثَةَ فِي الْقَبْرِ الْوَاحِدِ -.

---

١- رواه أحمد (٢٢٥٥٢).

وَعن أَبِي إِسْحَاقُ بْنُ يَسَارٍ، عَنْ أَشْيَاخٍ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ يَوْمَئِذٍ، حِينَ أَمَرَ بِدَفْنِ الْقَتْلَى: انْظُرُوا إِلَى عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ، وَعَبْدِاللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ حَرَامٍ، فَإِنَّهُمَا كَانَا مُتَصَافِيَيْنِ فِي الدُّنْيَا، فَاجْعَلُوهُمَا فِي قَبْرٍ وَاحِدٍ! [1].

وسرعان ما اجتمع الأحبة!.

**كرامةٌ عظيمةٌ لعمرو...**

في زمان معاوية رضي الله عنه كَانَ قَبْرُهُمَا أصابَهُ السَّيْلُ، فَحُفِرَ عَنْهُمَا لِيُغَيَّرَا مِنْ مَكَانِهِمَا، فَوُجِدَا لَمْ يَتَغَيَّرَا كَأَنَّمَا مَاتَا بِالْأَمْسِ، وَكَانَ أَحَدُهُمَا قَدْ جُرِحَ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى جُرْحِهِ، فَدُفِنَ وَهُوَ كَذَلِكَ، فَأُمِيطَتْ يَدُهُ عَنْ جُرْحِهِ ثُمَّ أُرْسِلَتْ، فَرَجَعَتْ كَمَا كَانَتْ. وَكَانَ بَيْنَ يَوْمِ أُحُدٍ وَيَوْمَ حُفِرَ عَنْهُمَا سِتٌّ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً![2].

---

١- سيرة ابن هشام (٤٨/٤).

٢- سير أعلام النبلاء (٢٥٥/١)، وصححه الحافظ في الفتح.



obeikandl.com

obeikandl.com

# عمرو بن معد يكرب
## (فارس العرب)

إنه أبو ثور فارسُ العرب، عمرو بن معد يكرب...

رجلٌ بألف رجل، كان يُضْرَبُ بإقدامه المثل..

قال الشاعر الكبير أبو تمام في مدح (المعتصم) الخليفة العباسي:

إقدام عمرٍو في سماحةِ حاتمٍ ... في حلمِ أحنفَ في ذكاءِ إياس

بل وصل حدُّ ارتباط اسمه بالقوة والشجاعة، إلى درجة أن يصعق الناس من مجرد سماعه!.

سأل أميرُ المؤمنينَ عمرُ بن الخطاب ﷺ يومًا عمرَو بن معد يكرب أن يُحَدِّثَهُ عن أَجْبَنِ من لقي، فقال له: نعم يا أمير المؤمنين، خرجتُ مرةً أريد الغارة، فبينما أنا سائر، إذا بفرسٍ مشدودٍ ورمحٍ مركوز، وإذا رجلٌ جالسٌ كأعظمِ ما يكون من الرجال خَلْقًا، وهو محتبٍ بحمائلِ سيفه، فقلت: خذ حذرك فإني قاتلك، فأقبل علي وقال: ومن أنت؟ قلت: أنا عمرو بن معدي كرب الزبيدي... فشهق شهقةً فمات!.

فهذا يا أمير المؤمنين أجبنُ من رأيت![1].

وكانت العربُ إذا ذكرتْ شجعان العرب، عدَّتْ خمسة أشخاصٍ منهم عمرو، وهم (عنترة بن شداد وعامر بن الطفيل وعتبة بن الحارث والسُّلَيك بن السَّلَكَة وعمرو بن معد يكرب الزبيدي) هم أشجعُ العرب.

---

١- نوادر الخلفاء (١٨/١).

وقد كان عمرو بن معد يكرب ﷺ عظيمَ الخِلْقَة، طويل القامة، ضخم البنية، ذا قوةٍ خارقة، حتى إن الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ قال فيه: الحمد لله الذي خَلَقَنَا وخلق عمروًا، تعجُبًا من عظم خَلْقِه![1].

كما كان ﷺ أَكُولًا كما رُوِيَ أنه كان في البداية يُقالُ له (مائق بني زبيد)، إذ كان مُحَمَّقًا بين قومه، لا يُؤمَلُ منه خير، ولا تُلحظ فيه السيادة، على الرغم من ضخامة جثته، وحجم جسمه، وجهارة صوته، حتى بلغ أن قبيلة (خثعم) ستغير على (زبيد)..

فتأهبت رجالُ زبيدٍ للقتال، ودخل عمرو على أخته فقال لها: أشبعيني... إني غداً لكتيبة.

فأخبرت أباها، فقال: سلي هذا المائق ما يُشبعه؟

فقال: فَرَقٌ من ذرة، وعنزٌ رباعية. قيل: وكان الفَرَقُ يومَئذٍ ثلاثةَ أصوع - جمع صاع، والصاع أربعة أمداد -.

فصنع ذلك له، فجلس عليه، فأكله جميعًا!.

وأغارت عليهم (خثعم) في الصباح، فتبلَّد حتى رأى لواء أبيه قد مالَ وانهزمت (زبيد)، عندها هاج وماج، فقام كأنه سرحة محرقة، فتلقى أباه وقد انهزموا، فقال: انزل عنها، فاليوم ظلم. فقال له أبوه: إليك يا مائق!، فقال له بنو زبيد: خَلِّه أيها الرجل وما يريد، فإن قُتِلَ كُفِيتَ مؤقته، وإن ظهر فهو لك!.

فألقى إليه سلاحه فركب، ثم رمى (خثعمَ) بنفسه حتى خرج من بين أظهرهم، ثم كرَّ عليهم وفعل ذلك مراراً، وحملت عليهم بنو (زبيد)، فانهزمت خثعم وقُهِرُوا، فقيل له يومئذٍ: (فارس زبيد)!.

---

١- الإكليل (٢٥٧/٨).

وبما أنه لابد للضارب من مَضْرِبٍ يضربُ أمَامَه، فكذلك كان لعمرو سيفٌ عظيمٌ اسمه (الصمصامة)، بلغ الآفاق في الشهرة والعظمة والصرامة!.

ومن القصص المشهورة، ما رُوِيَ من أن ملك الهند قد أرسل وفدًا إلى هارون الرشيد يحمل معه هدايا ثمينة بينها عشرة سيوف من أجود سيوف الهند، وحين قُدِّمتْ إليه دعا بالصمصامة سيف عمرو بن معد يكرب ليختبرها، فقُطِّعَت به السيوف سيفًا سيفًا كما يقطع الفجل، من غير أن تثني له شفرة، أو يفلَّ له حدّ![1].

كما بعث عمر بن الخطاب إلى عمرو بن معد يكرب أن يبعث إليه بسيفه المعروف بالصَّمصامة، فبعث به إليه، فلما ضرب به وجده دون ما كان يبلغه عنه، فكتب إليه في ذلك، فردَّ عليه: إنما بعثت إلى أمير المؤمنين بالسيف، ولم أبعث بالساعد الذي يضرب به![2].

ولسان حاله: إنَّما السيف بضاربه.

وإلى جانب شهرته بالإقدام والشجاعة والفروسية، كان كذلك يشتهر بالذكاء والحيلة والعبقرية، وكان من أعظم شعراء الإسلام والجاهلية.

شارك الأسطورة عمرو بن معد يكرب في معارك الفتح الإسلامي في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في الشام والعراق، وشهد معركة اليرموك والقادسية وصِفِّين ونهاوند، وكان فيها من أعظم الفرسان والجند.

**ففي يوم اليرموك، وهو ابن مائة وعشرين سنة...**

---

١- العقد الفريد (٢٠٣/٢).

٢- العقد الفريد (١٥٣/١).

حملت الروم على ميمنة المسلمين، وكان فيها الأزد ومذحج وحضرموت وخولان، فحملت عليهم الروم حملةً منكرةً فصبروا لهم صبر الكرام وقاتلوا قتالًا شديدًا وثبتوا ثباتًا حسنًا، وحملت عليهم كتيبة ثانية فصبروا صبرًا جميلًا، وحملت عليهم كتيبة ثالثة فأزالوا المسلمين عن الميمنة، فابتدر منهم عمرو بن معد يكرب الزبيدي وهو المقدم على زبيد والأمير عليهم وهم يعظمونه لما سبق من شجاعته في الجاهلية، وكان يوم اليرموك قد مر له من العمر مائة وعشرون سنة إلا أن همته الشجاعة!.

فلما نظر إلى قومه وقد انكشفوا صاح في قومه: يا آل زبيد يا آل زبيد! تفرون من الأعداء، وتفزعون من شرب كاس الردى، أترضون لأنفسكم بالعار والمذلة، فما هذا الانزعاج من كلاب الأعلاج، أما علمتم أن الله مُطَّلِعٌ عليكم وعلى المجاهدين والصابرين، فإذا نظر إليهم وقد لزموا الصبر في مرضاته وثبتوا لقضائه أمدهم بنصره وأيدهم بصبره، فأين تهربون من الجنة، أرضيتم بالعار، ودخول النار، وغضب الجبار؟!

فلما سمعت زبيد كلام سيدهم عمرو بن معد يكرب رجعوا إليه، وعطفوا عليه عطفة الإبل على أولادها، فاجتمعوا حوله زهاء من خمسمائة فارس وراجل، وشدوا على القوم شدةً واحدةً، وحملت معهم حمير وحضرموت وخولان، وحملوا حملةً صعبةً فأزالوا الروم عن أماكنهم، حتى تمكن المسلمون من هزيمتهم![1].

أخرج ابن عائذ في المغازي عن مالك بن عبد الله الخثعمي ﷺ قال: ما رأيت أشرف من رجل برز يوم اليرموك، فخرج إلي عِلْج، فقتله. ثم آخر، فقتله. ثم آخر، فقتله. ثم انهزموا وتَبِعَهُم. ثم انصرف إلى خِباء له عظيم، فنزل ودعا بالجِفان، ودعا من حوله فقلت: من هذا قال: عمرو بن معدِ يكرب ﷺ[2].

---

١- فتوح الشام (١/١٩٥).

٢- حياة الصحابة (٢/١٨٩).

**وأما في القادسية، فهو بألف رجل...**

فكما تقدم في فصل (طليحة بن خويلد الأسدي)، لما استمدَّ - طلب المدد - سعدٌ أمير المؤمنين عمرًا رضي الله عنهما، كتب عمر بن الخطاب ﷺ إلى سعد بن أبي وقاص ﷺ: قد وجَّهت إليك، أو أمددتك بألفيْ رجل: عمرو بن معدِ يكرب وطُلَيحة بن خُوَيْلِد - رضي الله عنهما -، فشاوِرْهما في الحرب ولا تولِّهما شيئاً[1].

وفي المعركة: كان سعدٌ ﷺ على الناس، فجعل عمرو بن معدِ يكرب يمرّ على الصفوف ويقول: يا معشر المهاجرين، كونوا أسوداً أشدَّاء، فإن الفارسيَّ إذا ألقى رمحه يئس، فرماه أُسْوار من الأساورة بنُشّابة، فأصاب سِيَة قوسه فحمل عليه عمرو فطعنه فدقَّ صُلبه، ونزل إليه وأخذ سَلَبه!.

وأخرجه ابن عساكر من وجه آخر أطول من هذا، وفي آخرها: إذا جاءته نُشّابة فأصابت قَرَبوس سرجه، فحمل على صاحبها فأخذه كما تؤخذ الجارية، فوضعه بين الصفَّين، ثم احتزَّ رأسه وقال: اصنعوا هكذا!.

وروى الواقدي من طريق عيسى الخياط قال: حمل عمرو بن معدِ يكرب ﷺ يوم القادسية وحده، فضرب فيهم، ثم لحقه المسلمون، وقد أحدقوا به وهو يضرب فيهم بسيفه، فنَحَّوهم عنه![2].

**وشهد صِفِّين، وهو ابن مائة وخمسين...**

قال جويرية بن أسماء: شهد صفين غير واحد أبناء خمسين ومائة سنة، منهم عمرو بن معد يكرب[3].

١- حياة الصحابة (٢/٢٨٠).
٢- حياة الصحابة (٢/١٨٩، ١٩٠).
٣- تاريخ الإسلام (٤/٥٠).

**ثم في نهاوند...**

استعصى فتح نهاوند على المسلمين، فأرسل عمر بن الخطاب إلى النعمان بن مقرن قائد الجيش قائلًا: إنَّ في جندك عمرو بن معد يكرب وطليحة بن خويلد فأحضرهما وشاورهما في الحرب، فإنَّ كل صانع هو أعلم بصناعته![1].

فقُتِل النعمان بن مُقَرِّن، ثم انهزم المسلمون في أول الأمر، وقاتل عمرو بن معدِ يكرب ﷺ يومئذٍ حتى كان الفتح![2].

وقيل في ذلك: إنه من قتل الفيل الذي عليه (النوشجان)، وذلك أن الفرس زحفوا في جمعٍ عظيم حتى صافُّوا المسلمين، وصفَّ المسلمون صفوفهم كما كانوا يصفُّونها من قبل، ودنت الخيل من الخيل والرجال من الرجال فتناوشوا ساعة، وتقدم مرزبان من مرازبتهم يقال له (النوشجان بن بادان) على فيل له وقد شهره بالتجافيف المذهبة، وصفرة الذهب تلمع على سواد الفيل حتى وقف بين الجمعين، فنظر إليه عمرو بن معدي كرب فتهيأ للحملة عليه، ثم أقبل على بني عمه من زبيد فقال: ألا تسمعون؟ فقالوا: قل يا أبا ثور، نسمع قولك وننتهي إلى أمرك. فقال: إني حامل على هذا الفيل وقاصدٌ إليه، فإن قطعت خرطومه فقد هلك وذاك الذي أريد، وإن أخطأته ورأيتم الفرس قد حملوا عليَّ وتكاثروا فأعينوني، فقالوا: نفعل أبا ثور، فاستعان بالله عز وجل وتقدم، تقدم عمرو نحو الفيل الذي على ظهره النوشجان، وجعل النوشجان يرميه بالنشاب من فوق الفيل حتى جرحه جراحات كثيرة، ونظر إليه من كان من بني عمه فخرجوا إليه ليعينوه، وصاح النوشجان بالفرس فحملوا على عمرو وأصحابه، فاقتتل

١- الإصابة (١٩/٥).

٢- حياة الصحابة (١٩٠/٢).

القوم، وحَمَلَ عمرو من بين أيديهم فضرب خرطوم الفيل فقطعه، فأرداه ميتًا، ووضع المسلمون السيف في النوشجان وأصحابه، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وقتل النوشجان فيمن قُتِل وانهزم الفرس![1].

ثم أثبتت عمروًا الجراحة، فمات بقرية (روذة)، كذا في الإصابة[2].

فلله درُّه...

إنه البطل الصحابي، والمقاتل الأسطوري، أشجع العرب، وصاحب الصمصامة، عمرو بن معد يكرب الزبيدي، فرحمه الله ورضي عنه وعن سائر أصحاب النبي.

obeikandl.com

١- الفتوح لابن أعثم.

٢- حياة الصحابة (٢/١٩٠).

obeikandl.com

## القعقاع بن عمرو

«لصوت القعقاع في الجيش خيرٌ من ألف رجل»

جملةٌ قالها الخليفة الراشد الصديق أبو بكر ﷺ مشيرًا بها إلى عظمة وقوة وشجاعة وتميز هذا البطل الأسطوري الاستثنائي..

ذلك البطلُ الذي اختلف النَّاس في شأنه، وإن كان لهذا الخلاف أسبابٌ علمية، إلا أنَّ الحدَّ الذي وصل إليهِ ذكرُ قُوَّتِه وشجاعته وبطولته وعظمته كان من أسباب حمل الناس على هذا الخلاف، وهل هو شخصية حقيقية؟ أم أنه شخصية أسطورية وهمية خيالية منسوجة في كتب التاريخ؟!

هذا الخلافُ الذي يُمْكِنُ حصره في: هل هذا البطل صحابيٌّ له صحبة مع النبي ﷺ أم أنه من التابعين؟!

والراجح والله أعلم، أنه من كبار التابعين، ولم تثبت له صحبة.

تجلَّت مظاهر قُوَّتِهِ وشِدَّتِه وبأسِهِ في كثيرٍ من المشاهد العظيمة، لا سيِّما مع أخيه الأسطورة الآخر عاصم بن عمرو التميمي، كما عرَّجتُ على ذلك في ذكر عاصم.

ولقد كان القعقاع شجاعًا مقدامًا ثابتًا في أرض المعارك، وإلى جوار شجاعته وشدة بأسه على الأعداء، كان شديد الذكاء، ذا حنكةٍ عسكرية في إدارة المعارك.

ظهر ذلك جليًّا لما استمدَّ خالدُ بنُ الوليد أبا بكرٍ لما حاصر الحيرة، فأمده بالقعقاع وقال في حَقِّه: لا يُهزَمُ جيشٌ فيه مثله!.

الله أكبر

ولما واجه المسلمون الفرس بقيادة هرمز في (ذات السلاسل)، وكان هرمز مشهورًا بالخبثِ والسوءِ حتى ضُرِبَ المثلُ بخبثه، عَمِلَ مكيدةً لخالد، وذلك أنه اتفق مع حاميته على أن يبارز خالدًا ثم يغدروا به ويهجموا عليه، فبرز بين الصفين ودعا خالدًا إلى البراز فبرزَ إليه خالد، والتقيا فاختلفا ضربتين، واحتضنه خالد، فحملتْ حاميةُ هرمز على خالدٍ وأحدقوا به، فما شغلهُ ذلك عن قتلِ هرمز، وما أن لَمَحَ ذلك البطل المغوار القعقاعُ بن عمرٍو ذلك، حتى حَمَلَ بجماعة من الفرسان على حاميةِ هرمز، وكان خالد يجالدُهم فأناموهم، وحمل المسلمون من وراء القعقاع حتى هزموا الفرس!.

وقد كان الفرسُ ربطوا أنفسهم بالسلاسل حتى لا يفرَّ مُقاتِل، فلم تغن عنهم شيئًا أمام الليوث البواسل، لذا سُميت هذه المعركة بـ(ذات السلاسل)[1].

فكان القعقاعُ مُنْقِذَ القائدِ خالد، كما كان السبب الرئيسَ المباشرَ في نصر المسلمين كما في أُخَرِ المشاهد.

**وفي معركة اليرموك...**

انتقل القعقاع بن عمرو ﷺ بصُحْبة خالد بن الوليد ﷺ إلى الشام لحرب الروم، كالعادة كان القعقاع بن عمرو في قلب الجيش بجوار خالد الذي كان قد أعادَ تنظيمَ الجيش، وجعَلَ القيادة بالتناوب بينه وبين باقي القادة، وتولّى هو القيادة في اليوم الأول، والذي انتهى بانتصار كاسحٍ للمسلمين على الروم.

وينتقل أبو بكر الصديق إلى جوار ربّه، ويتولّى الفاروق عمر بن الخطاب الخلافة، فيكون أوّل قرارٍ له عزْل خالد بن الوليد وتوْلية أبي عبيدة بن الجراح على قيادة جيوش المسلمين، في حين يظلُّ خالد بن الوليد قائدًا على الجيش الذي قَدِم به من العراق.

---

١- التاريخ الإسلامي (١٣٣/٩)، تاريخ الطبري (١٦٥/٤).

**وفي فتح دمشق...**

تحرّكتْ جيوشُ المسلمين؛ لفتح دمشق التي تحصّنتْ حاميتُها داخل أسوارها المنيعة، وتقف الجيوش الإسلامية عاجزةً عن اقتحام دمشق، حتى تفتّقَ ذِهْنُ القعقاع عن حلٍّ جريء، وهو أن تتولّى مجموعة من المسلمين تسلُّقَ الأسوار وفتْحَ أبوابها من الداخل، ويوافق خالد بن الوليد على هذه العمليّة الجريئة غير المسبوقة، بل ويقوم بالتنفيذ خالد بن الوليد نفسُه ومعه القعقاع بن عمرو، ومذعور بن عَدي العجلي، وأمثالهم من الأبطال الأشدّاء، وكانت التعليمات لسائر الجيش: إذا سمعتُم تكبيرَنا على السور فارْقَوا إلينا، وانهدوا للباب.

ويُعْبرُ الأبطال الخندق المحيط بالسور والمغمور بالمياه سباحةً، ويقذفوا بأوهاق - خطاف الحبل - الحبال حتى اشْتَبَك منها وهقان بأعلى السور وثَبَتا فيه، فتسلّق عليهما القعقاع بن عمرو، ومذعور بن عدي، ومعهما باقي سلالم الحبال، فأثبتاها جميعًا بأعلى السور، وكان هذا المكان الذي اقتحموا منه أحصنَ موقعٍ بدمشق كلّها؛ أكثره ماءً، وأعرضه خندقًا، وأشده مدخلاً، ويعتلي خالد بن الوليد ﷺ السور مع باقي رجاله، ليكبّروا جميعًا بصوت رجلٍ واحد؛ ليعبرَ باقي جيش خالد الخندقَ، ويتدافعون نحو سلالم الحبال يتسلّقونها، ويتكاثرون حول باب الحِصْن الشرقي الذي نَجَحَ خالد بن الوليد والقعقاع بن عمرو رضي الله عنهما في فتْحِه بعد قتال مرير، فلم يجدْ أهلُ دمشق بُدًّا من الاستسلام وطلبِ الصُّلْح.

**وفي معركة القادسية...**

وفي ذات الوقت، كانتْ جيوشُ المسلمين في العراق بقيادة سعد بن أبي وقاص ﷺ تواجِه جحافل الفرس، وكان موقف تلك الجيوش شديد الحَرَج، فكتبَ عمر إلى أبي

عبيدة بن الجراح بعد أنْ أتمّ فتحَ دمشق يأمرُه بصرفِ جيش العراق أصحابِ خالد إلى العراق، ولم يذكرْ خالدًا، فاستبقاه أبو عبيدة معه بالشام؛ ليكون عونًا له على حرب الروم، وأرْسَلَ جيش العراق تنفيذًا لتعليمات الخليفة، وأمّرَ عليهم هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وعلى المقدِّمة القعقاع بن عمرو التميمي رضي الله عنهما.

**يوم أغواث:**

وأسرع القعقاع بالمقدِّمة، فسبَقَ أصحابَه، وطوى المسافة مُسرعًا، فبلغ القادسية يوم أغواث، وقبْلَ دخوله القادسية، قسّم القعقاع أصحابَه - وكانوا ألف مقاتل - إلى عشرات؛ أي: مائة عشرة، كلّما بلغ عشرة منهم مَدّ البصر، سارت في إثرهم عشرة أخرى.

قصد القعقاع من هذا العمل أنْ يرفعَ الرُّوح المعنويّة لجيش القادسية؛ عن طريق إشعارهم بتتابُع الإمدادات؛ حيث كان القعقاع يحرِصُ دائمًا على رفْع الرُّوح المعنويّة؛ لعِلْمه بمَدَى أثر الرُّوح المعنويّة على أداء الجنود في المعركة، وكان القعقاع بن عمرو في أول دفعة، فأتى الناس في القادسية، وسلّم عليهم وبشّرهم بالمدد، وقال لهم: أيها الناس، إني قد جئتُكم بقوم والله أنْ لو كانوا بمكانكم ثم أحسوكم حسدوكم حظوتها، وحاوَلوا أنْ يطيروا بها دونَكم، أيها الناس، اصنعوا كما أصنعُ.

وتقدّم القعقاع يشقُّ طريقَه بين جيوش المسلمين، حتى تقدّمَ الصفوف كلّها، ووقفَ في مواجهة جيوش الفرس مناديًا: مَن يبارز؟.

مَن يصدِّق هذا؟! يأتي من سفرٍ بعيد من الشام، قادمًا مِن معركة مريرة؛ ليقف في مواجهة جيوش الفرس يطلبُ المبارزة دون أن ينالَ أيّ قسطٍ من الراحة.

ويشتعلُ حماسُ المسلمين، وتبلغ معنويّاتهم عنانَ السماء مِن جرّاء وجود هذا الرجل الذي قال عنه الصِّدّيق: لا يُهْزَم جيشٌ فيهم مثلُ هذا.

ويخرج من بين صفوف الفرس (بهمن جاذويه)؛ ليبارزَ القعقاع الذي يبتدِرُه بالسؤال: مَن أنت؟، فقال: أنا (بهمن جاذويه)، فثار الدمُ في عروق القعقاع؛ إذ تذكّر معركة (الجسر) وشهداءَها، وما فعله (بهمن جاذويه) في ذلك اليوم، فصاح: يا لثارات أبي عبيد وسليط، وأصحاب يوم الجسر.

ثم تبارزا بالسيوف، فقتلَه القعقاع، وكان (بهمن جاذويه) هو قائد قلب جيش الفُرْس.

وكان القعقاع يرمي ببصره نحو الطريق الذي يسلكه جنودُه متتابعين، وجعَلَ يكبّر كلّما ظهرتْ عشرة منهم والمسلمون يكبّرون وراءَه.

ارتفعت المعنويّات كثيرًا؛ فالمدَدُ يتتابَعُ و(بهمن جاذويه) قُتِل، والقعقاع يُلْهِبُ حماسَ الجنود، فكانتْ - بحقٍّ - أغواثَ النصر، ومن جديد خَرَجَ القعقاع ينادي: هل مِن مبارز؟!.

وأراد قادة الفُرْس أن يستردوا معنويّاتهم، وأن يثْأَروا لـ(بهمن جاذويه) الذي كانتْ جُثّتُه مُلْقَاة بين الصفّين تنظرُ إليها جموعُ الفُرْس في حَسرة والمسلمون في فخْرٍ وعِزّة.

خرَجَ اثنان من قادة الفُرْس؛ هما: (بيرزان) قائد المؤخّرة، و(بندوان)، فانضمّ إلى القعقاع الحارث بن ظبيان، فأمّا القعقاع، فقد أطاحَ برأْس (بيزران)، وفَعَلَ الحارث مع (بندوان) نفْسَ الفِعْل.

ثم برزتْ فرسان المسلمين للمبارزة، فكان القعقاع يقول لهم: يا معشر المسلمين، باشروهم بالسيوف؛ فإنّما يُحْصَد الناسُ بها.

**ذكاء مقاتل...**

ورأى القعقاع عجْزَ المسلمين عن مواجهة فيلة الفرس التي أفزعتْ خيلَ المسلمين، فجعلتْها تنفرُ وترتدُّ بمَن عليها من الفرسان، فعَمَدَ القعقاع بن عمرو ﷺ إلى إبل المسلمين، فألْبَسها الجلودَ والبراقع، فتغيّرتْ هيئة الإبل وصارتْ مُفْزِعة، فنفرتْ من مواجهتها خيلُ الفرس، وولّتْ هاربةً بفرسانها، تاركة مُشاة جيوش الفرس وحدَهم في المَيدان، فحصدهم فرسانُ المسلمين حصْدًا.

وفي المدينة عَلِم عمر بأمْر يوم (أغواث) وبلاء المسلمين فيه، فبَعَثَ أربعة أسياف، وأربعة أفراس هَديّة يقسّمها قائدُ الجيش سعد بن أبي وقّاص بين مَن أبْلَى أحسنَ البلاء، فينال منها القعقاعُ فَرَسًا.

**يوم عماس:**

ثم يأتي يوم عماس ١٥ من شعبان لعام ١٥ هـ، ليشهد عملاً استراتيجيًا جديدًا للقعقاع الذي رأى التعبَ والإنهاك قد حلّ بجيوش المسلمين، وتسرّب إليهم اليأسُ من تأخُّر وصول جيش هاشم بن عُتبة بن أبي وقّاص، فانتحى القعقاع بجنوده الألف، وأخرجهم سرًّا من معسكر جيش المسلمين، وقسّمهم إلى عشر مجموعات، كل مجموعة مائة جندي، وقال لهم: إذا طلعَتِ الشمس، فأقبلوا مائة مائة، كلما توارَى عنكم مائة فليَتْبَعها مائة، فإنْ جاء هاشم فذاك، وإلا جدّدتُهم للناس رجاءً وجدًّا.

هذا هو القعقاع القائد الذي يفرض قيادته بسلوكه، وحُسن تصرُّفه، وحِرْصه على الإبقاء على معنويّات الجنود عالية تطاول عنانَ السماء.

وقفَ القعقاع ينظرُ ويتطلّع نحو الطريق، مُلْقِيًا في رَوع المسلمين أنّه يتوقّعَ هاشمًا وأصحابَه، وجعَلَ يكبّر كلما ظهرتْ في الأُفق نواصي الخيل التي أقبلتْ مائة في إثر مائة،

ومثله فعَلَ أخوه عاصم بن عمرو، فانتعشَ المسلمون واصطفّتْ جموعُهم للقتال، واقتربَ هاشم من معسكر المسلمين في سبعمائة من طلائع جيشه، فأخبره المسلمون بما فعَلَ القعقاع، فأعادَ هاشم تعبئة جنوده سبعين سبعين؛ لتتلاحق جماعة في إثر جماعة.

أمّا المعركة، فقد حَمِي وطيسُها، ودفَعَ الفُرْس بأفيالهم، فتضعضعتْ في مواجهتها صفوفُ المسلمين، فأرسَلَ سعد بن أبي وقّاص إلى القعقاع وعاصم يقول لهما: اكفياني الأبيض، وكان أكبرَ أفيال الفُرْس مع فيلٍ آخرَ يُسَمّى: (الأجرب).

فأخَذَ القعقاع وعاصم رُمحين أصمّين ليّنَيْن، ودبّا في كتيبة من خيلٍ ومُشاة، وقالا لهم: اكتنفوه لتحيّروه، وهما معهم، فأطافوا به وخالطوا حُرّاسه والْتحموا معهم، وظلّ الفيلُ متحيّرًا ينظرُ يَمنة ويَسرة وهو مُتحيّر، فحمَلَ القعقاع وعاصم على الفيل وهو متشاغل بِمَن حولَه فوضعا رُمْحَيهما معًا في عينيه، فجلس الفيل على يديه ورِجْليه، وألْقَى بمن فوقَه من جنود الفُرْس، فاستلّ القعقاع سيفَه وقطعَ خرطوم الفيل، فسقَطَ صريعًا، فكبّر المسلمون وهلّلوا واستبشروا بالنصر، وحملتْ جماعة أخرى على الفيل الأجرب فقتلتْه!.

**ليلة الهرير:**

وتتابَعَتْ أيام القادسية ولياليها حتى كانتْ ليلة الهرير والفريقان وقوفٌ كلٌّ في مواجهة الآخَر، فأتى من جهة الفُرْس سهمٌ فأصابَ خالد بن يعمر التميمي، وكان القعقاع بن عمرو ﷺ يتشوّق للقتال، فأثارته إصابة خالد، فزحَفَ ببني تميم بغير إذن سعد، وعَلِمَ سعد، فدعا الله وقال: اللهم اغْفرها له وانْصُره، قد أذِنْتُ له إذْ لم يستأذنّي، واتميماه سائر الليلة، وأقرّ سعد أمام الناس ما فعَلَ القعقاع وقال: إنّ الأمر الذي صنَعَ القعقاع، فإذا كبّرتُ ثلاثًا فازحفوا، وخَلْفَ القعقاع اندفعتْ (كِنْدة، والنخع، وأسد)، فدعا لهم سعد بمثْل ما دعا للقعقاع، فكان قتالاً لم يشهد المسلمون مثْلَه.

**يوم القادسية**

وفي ١٦ من شعبان ١٥ هـ كان اليوم المشهود، يوم القادسية، في هذا اليوم سارَ القعقاع بين جموع المسلمين يشدُّ أزرَهم، وكان يدرك أنّ المعركة الفاصلة قد حانَ أوانُها، فقال مخاطبًا جيوش المسلمين: إنّ الدبرة بعد ساعة لمن بدأ القوم بالتخاذُل؛ فاصبروا ساعة واحملوا؛ فإنّ النصرَ مع الصبر، فآثروا الصبرَ على الجزع، وأنشد يقول:

يَدْعُونَ قعْقَاعًا لِكُلِّ كَرِيهَةٍ ... فَيُجِيبُ قعْقَاعٌ دُعَاءَ الْهَاتِفِ

والْتحم الفريقان التحامًا رهيبًا، وهجَمَ القعقاعُ مع قومه بني تميم على قلب جيش (رستم) فأزالوهم عن مواقعهم، حتى انتهوا إلى سَرير (رستم) وكان قد غادَرَه مذعورًا، ليتلقّاه هلال بن علفة التميمي، فيرديه قتيلاً ويصيحُ: قتلتُ رُسْتُم وربِّ الكعبة[1].

ولما كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص :أي فارس أيام القادسية كان أفرس؟ وأي رجل كان أرجل؟ وأي راكب كان أثبت؟

كتب إليه : لم أر فارساً مثل القعقاع بن عمرو! حمل في يوم ثلاثين حملة، ويقتل في كل حملة كمِيًّا - بطلًا -![2].

فكان القعقاع ممن شهد الفتوحات المنصورة، وله في ذلك أشعار موافقة مشهورة، إذ كان له في كل معركة شِعْرٌ وأبياتٌ مأثورة!.

وحسبه أنه القائل:

يَدْعُونَ قعْقَاعًا لِكُلِّ كَرِيهَةٍ ... فَيُجِيبُ قعْقَاعٌ دُعَاءَ الْهَاتِفِ

---

١- انظر تاريخ الطبري (٣/...).

٢- تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٩/٣٥٥).

وكانت له في كل ذلك مواقف مشهودة، ووقائع وبطولات معهودة.

وهو كذلك الذي كان قائد (الكتيبة الخرساء)، التي تلت (كتيبة الأهوال) عند عبور (دجلة) في فتح المدائن، والذي ورد ذكره تفصيلًا في فصل أخيه عاصم.

وهو الذي غنم في فتح المدائن أدراع كسرى، وكان فيها درع هرقل ودرع لخاقان ودرع للنعمان وسيفه وسيف كسرى فأرسلها سعدٌ إلى عمر[1].

فلله در الأسطورة القعقاع، ولله در أمثاله، الذين كان حالهم دائمًا:

اشترانا مِنَّا فقُلنا رَبِحْنَا ... لا نُقِيلُ يا ربِ ولا نستقيلُ

obeikandl.com

١- الإصابة (٧٨/٩).

obeikandl.com

# مجزأة بن ثور السدوسي
# (الضفدع البشري)

هو صحابي، لكن ليس من نوع عادي، بل هو بطل استثنائي..

إنه المقاتل الأسطوري، والضفدع البشري، مجزأة بن ثور السدوسي..

إنه القائد الشهيد، قائد الميسرة وبطل يوم (تُستر)، سيد بني بكر، الذي قتل مائة فارس من الفرس مبارزةً في يوم (تُستر)!..

لما فرغَ أبو موسى الأشعريّ ﷺ من الأهواز ومناذرونهر تيري وجند يسابور ورامهرمز، توجه إلى تُستر، فجعل على ميمنته البراء بن مالك، وعلى ميسرته مجزأة بن ثور السدوسي، فَنزل بَاب الشَّرْقِي وَكتب إِلَى عُمَر يستمدُّه، فَكتب عُمَر إِلَى عمار بْن يَاسر أَن أمدَّ أَبَا مُوسَى، فَكتب عمارٌ إِلَى جرير بْن عَبْد اللَّه وَهُوَ بحُلوان أَن سر إِلَى أَبِي مُوسَى، فَسَار جرير في ألفٍ فأقاموا أشهرًا، ثمَّ كتب أَبُو مُوسَى إِلَى عُمَر أَنهم لم يغنوا عَنه شَيْئًا، فَكتب عُمَر إِلَى عمار أَن سر إِلَى تستر، فَسَار فأمده عُمَر من الْمَدِينَة، وظلُّوا حتى أَقَامُوا سنة أَو نَحْوهَا، فجَاء رجل من أهل تستر فَقَالَ لأبي مُوسَى: أَسأَلك أَن تحقن دمي وَدِمَاء أهل بَيْتِي وتخلي لنا أَمْوَالنَا ومساكننا عَلَى أَن أدلك عَلَى الْمدْخل، قَالَ: فَذَلِك لَك،

قَالَ: فابغني - أي أعطني - إِنْسَانًا سابحًا ذَا عقل يَأْتِيك بِأَمْرٍ بَيِّن.



obeikandi.com

فَأرْسل أَبُو مُوسَى إِلَى مجزأَة بْن ثَوْر السدُوسِي فَقَالَ: أبغني رجلًا من قَوْمك سابحًا ذَا عقل،

فَقَالَ مجزأَة: اجْعَلنِي ذَلِكَ الرجل، فَانْطَلق بِهِ فَأدْخلهُ من مدْخل المَاء - مدخل الماء إلى المدينة - مدخلًا يضيق أَحْيَانًا حَتَّى ينبطح عَلَى بَطْنه ويتسع أَحْيَانًا فَيَمْشِي قَائِمًا ويحبو فِي بعض ذَلِكَ حَتَّى دخل الْمَدِينَة، وَقد أمره أَبُو مُوسَى أَن يحفظ طَرِيق الْبَاب وَطَرِيق السُّور ومنزل الهرمزان وَقَالَ لَا تسبقني بِأَمْر، فَانْطَلق بِهِ العلج حَتَّى أَتَى الهرمزان فهمَّ بقتْله ثمَّ ذكر قَول أَبِي مُوسَى لَا تسبقني بِأَمْر فَرجع إِلَى أَبِي مُوسَى، فندب أَبُو مُوسَى النَّاس مَعَه فَانْتدبَ ثَلَاث مائَة ونيف فَأمرهمْ أَن يلبس الرجل ثَوْبَيْنِ لَا يَزِيد عَلَيْهِمَا وسيفه ففَعَلُوا، فَكَبَّرَ مجزأة وَوَقع فِي المَاء وَكبر الْقَوْم ووقعوا كَأَنَّهُمْ البط - أو إن شئت قل: كأنهم ضفادع بشرية - فَسَبحُوا حَتَّى جاوزوا ثمَّ انْطلق بهم إِلَى النقب الَّذِي يدْخل المَاء مِنْهُ - نفق بين النهر والمدينة - وَكبَّرَ ثمَّ دخل مَعَه خَمْسَة وَثَلَاثُونَ رجلًا أَو ستَّة وَثَلَاثُونَ رجلًا فَمضى بطَائِفَة مِنْهُم إِلَى الْبَاب فوضعهم عَلَيْهِ، وَمضى بطَائِفَة إِلَى السُّور وَمضى بِمن بَقِي مَعَه حَتَّى صعد السُّور فانحدر عَلَيْهِ علج مَعَه نيزك، فطعَنه مجزأَة فأثبته وَكبر الْمُسلمُونَ عَلَى السُّور وعَلى الْبَاب وفتحوا الْبَاب وَأَقْبل الْمُسلمُونَ حَتَّى دخلُوا الْمَدِينَة، وقُتِل البطل المغوار مجزأةُ هو والبراءُ أثناءَ الاقتتَال، ولكن بعد أن قتل مائةَ فارسٍ من الفرسِ وحدَه، وتحصن الهرمزان فِي قَصَبَةٍ لَهُ[1].

قال ابن الأثير: وله أثر عظيم فِي قتال الفرس، قَتَلَ يَوْم فتح (تستر) مائة من

١- تاريخ خليفة بن خياط (١/١٤٤ : ١٤٦)، تاريخ الإسلام (٣/٨٢).

الفرس، فقتله الهرمزان وقتل معه البراء بْن مالك، فلما أُسِرَ الهرمزان وحُمِلَ إِلَى عمر أراد قتله، فقيل: قد أمنته. قَالَ: لا أؤمن قاتل مجزأة بْن ثور والبراء بْن مالك.

فأسلم الهرمزان، فتركه عمر[1].

obeikandl.com

١- أسد الغابة (٤/٢٨٩).

obeikandl.com

# محمد بن عبدالكريم الخطابي

«أيها الأمير .. لقد جئتُ إلى القاهرةِ خِصيصًا لكي أتعلم منك»

جيفارا

جملةٌ قالها الثائر الشيوعيُّ الأشهرُ في العالم - بل لا أكون مبالغًا إن قلتُ: أسطورة الثوار في نظرِ كثيرٍ من الناس - تشي جيفارا، عندما قابل الأسطورةَ الحقيقيةَ، الأميرَ محمدَ بنَ عبدِالكريمِ الخطابي، في القاهرة، عام ١٩٦٠م.

إنه الأمير الخطابي، أسطورة المغرب الإسلامي...

ولد الأسطورة محمد الخطابي، في بلدة (أجدير) في الريف المغربي الإسلامي، في سنة ١٣٠١ هـ الموافق ١٨٨٣م، وكان أبوه الشيخ (عبدالكريم الخطابي) شيخَ قبيلةٍ من قبائل الأمازيغ البربر، سمَّاهُ محمدًا تبركًا باسم رسول الله محمدٍ ﷺ، فتربى هذا الولدُ تربيةً صالحةً على يد والده، ونشأ نشأةً إسلاميةً صحيحة، فتعلم اللغة العربية، وحفظ القرآن الكريم، ثم ذهب إلى جامعة (القرويين) في مدينة (فاس) ليتعلم هناك الحديث والفقه الإسلامي، وماهي إلا سنوات حتى أصبح (محمد بن عبد الكريم الخطابي) قاضي القضاة في مدينة (مليلية) المغربية.

في هذه الأثناء كانت المغرب تمر بظروف صعبةٍ جدًا، إذ أدركت الدول الاستعمارية الأوروبية أن المغرب باتت تمثل خطرًا كبيرًا عليها وعلى مستقبلها، لأنها تعتبر بمثابة

مصنع للأبطال عبر التاريخ، فمنها خرج مجاهدو دولة (المرابطين) إلى الأندلس، ومنها أبحرت قوات دولة (الموحدين) إلى أوروبا، وقبلها أخرجت هذه الأرض (طارق بن زياد)، فلا بد إذًا من إنهاء هذا الخطر الإسلامي المستمر، فعقدت تلك الدول مؤتمرًا أطلقوا عليه اسم (الجزيرة الخضراء) عام ١٩٠٦م بمشاركة ١٢ دولة أوروبية بما فيهم (أمريكا)، لتكسر بذلك أمريكا ما أُطلِقَ عليه (مبدأ مونرو) الذي كان ينص على عدم تدخل الولايات المتحدة الأمريكية في السياسة الدولية، لتصبح بعد ذلك أمريكا هي – المتطفل، عفوًا.. أقصد - المتدخل الأكبر بل الأوحد في العالم في السياسات الدولية، كل هذه الدول اجتمعت من أجل إنهاء هذا الكابوس الإسلامي المستمر إلى الأبد، فكان القرار النهائي لهذا المؤتمر: تقسيم بلاد المغرب الإسلامي!.

فقامت بتقسيمها بطريقة ماكرة خبيثة لم تعرفها شعوب الأرض من قبل لتضمن تفككها بشكلٍ نهائي، فأخذت فرنسا القسم الجنوبي من مملكة المغرب (موريتانيا)، ثم أخذت إسبانيا القسم الذي يليه في الشمال (الصحراء الغربية)، ثم مرة أخرى فرنسا إلى الشمال من الصحراء (وسط المغرب الحالي)، ثم إسبانيا إلى الشمال أيضًا في الساحل الشمالي للمغرب (الريف المغربي)، وبين هذا وذاك احتلت ألمانيا وبريطانيا مدنًا هنا وأخرى هناك، وظن الجميع أنهم بذلك أنهوا الوجود الإسلامي في بلاد المغرب إلى الأبد، ولكن الشيخ عبدالكريم الخطابي وابنه الأسطورة محمد كان لهما رأيٌ آخر، فبدءا بتوحيد القبائل المتناحرة المختلفة على راية الإسلام الواحدة، ومراسلة الخليفة العثماني في عاصمة الخلافة، عندها قتل الأسبان الشيخ المجاهد

عبد الكريم الخطابي رحمه الله، وأسروا ابنه الشيخ محمد، ووضعوه في أحد السجون في قمة جبل من جبال المغرب!.

وبطريقة أسطورية لا توصف، استطاع البطل بن البطل أن يصنع حبلًا من قماشِ فِرَاشِه، ليحرر نفسه من نافذة السجن، ولكن لسوء الحظ أن الحبل لم يكن بالطول الكافي ليصل به من قمة الجبل إلى الأرض، فكان أمامه أحد خيارين، إما الرجوع إلى السجن، وإما القفز من ارتفاع شاهق على الصخور الصمَّاء، فاختار الأسطورة القفز، فانكسرت رجله وأغمي عليه من شدة الارتطام والصدمة، قبل أن تكتشف سلطات السجن أمره وتعيده إلى السجن، حيث مكث أربعة أشهر، ثم أطلقوا سراحه.

الأسطورة الخطابي رائد حرب العصابات...

وبعد إطلاق سراحه، خرج الأمير الأسطورة محمد بن عبد الكريم الخطابي من السجن ليكوِّن من رجال قبائل الريف المغربي جيشًا من ثلاثة آلاف مقاتل فقط، قبل أن يبتكر فنًّا جديدًا من فنون القتال العسكري كان هو أول من استخدمه في التاريخ الحديث تحت اسم (حرب العصابات)، وقد استخدم ثوار العالم بعده ذلك هذا الفن العسكري القائم على فنون المباغتة والكرِّ والفرّ، فأصبح نظام قتال عالمي، مع الاحتفاظ للخطابي وأمة الإسلام بهذه العلامة القتالية المسجلة!.

ثم ابتكر الأمير محمد نظامًا آخر في المقاومة اعترف الزعيم الفيتنامي (هوشيمنه) أنه اقتبسه وتعلمه من الأسطورة الخطابي في قتال الفيتناميين للأمريكيين بعد ذلك بسنوات، هذا النظام هو نظام حفر الخنادق الممتدة تحت الأرض حتى ثكنات العدو!.

فقام بذلك هذا البطل الإسلامي، بتلقين الجيش الإسباني درسًا في فنون القتال!.

معركة (أنوال) الأسطورية الخالدة...

ولما تضاعفت خسائر الإسبان في الريف الإسلامي قام ملك إسبانيا الفونسو الثالث عشر بإرسال جيشٍ كاملٍ من مدريد تحت قيادة صديقه الجنرال (سلفستري)، والتقى الجمعان في معركة (أنوال) الخالدة.

كان الجيش الإسباني في هذه المعركة يتكون من ستين ألف جندي مع طائراتهم ودباباتهم، مقابل ثلاثة آلاف مجاهد مسلم يحملون فقط البنادق البدائية، ولكن.. هذان خصمان اختصموا في ربهم، فئة تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرة تقاتل في سبيل الأرض والصليب، فكان حقًا على الله نصرُ المؤمنين، فمزَّق الخطابيُّ وجنوده جيشَ الإسبان تمزيقًا مدهشًا، حيث قتل منهم ما يزيد على ثمانية عشر ألفًا، وأسر الباقي حتى لم يسلم من الجيش سوى ستمائة فقط، وغنم عشرين ألف بندقية، وأربعمائة رشاش، ومليون طلقة، وطائرتين، وتفرق القتلى على مساحة خمسة أميال، ونصر الله عبده الخطابي نصرًا عجيبًا في وقت غريب، في زمنٍ لا يتوقع فيه أحد أن ينتصر المسلمون على جيش أوربي مسلح بسلاح حديث...

لكنَّ الحماسةَ الإيمانيةَ الدافقة، والشجاعة الإسلامية الفائقة، التي كانت في قلبِ الخطابيِّ وجنودهِ المرافقة، بعد إعانة الله وعنايته السابقة، كلُّ ذلك قَلَبَ المعادلات وكان سببًا في هزيمة الإسبان الساحقة، وأخرس كل الألسنة الناطقة!.



obeikandl.com

وكان وقع الهزيمة في أوربا مدويًا، واستغل الخطابي الفرصة، فطهَّرَ الريف المغربي من الإسبان، وحصرهم في (سبتة) و(مليلية) فقط، وهذا باقٍ إلى يوم الناس هذا!.

وبعد ذلك أسس الأمير الخطابي لأول مرة منذ الاحتلال (إمارة الريف الإسلامية) في شمال المغرب الإسلامي، وأقام إمارة إسلامية مساحتها ٢٠,٠٠٠ كم٢، وسكانها قرابة نصف المليون، وطبق فيها أحكام الإسلام، ووطد دعائم الأمن، وأنشأ المدارس والمستشفيات، وأرسل البعثات إلى أوربا، وقلل جدًا من حوادث الثأر بين القبائل، حتى إن الرجل كان يلقى قاتل أبيه وأخيه في المعارك مع إسبانيا فلا يمسه بسوء؛ وذلك لأن الخطابي عمل مجلس شورى لإدارة الإمارة من ثمانين من رجال القبائل، وأوكل إليه إدارة الأموال الجزيلة التي حصل عليها من فداء أسرى الإسبان، ومن الزكاة الشرعية التي يجمعها من رعيته، وكان يحاول إفهام رؤساء القبائل مؤامرات إسبانيا وفرنسا، وأنهما سبب كبير من أسباب تجهيل المغاربة، وهذا حديث يسمعه أولئك للمرة الأولى، فإنهم كانوا مشغولين بالثارات والقتال من أجل سفاسف الأمور ودناياها، فتركوا الثأر بهذه الطريقة.

وعمل نظام تجنيد فريد، حيث أوجب على كل الذكور من سن ١٦ إلى ٥٥ أن يتجندوا كل شهر خمسة عشر يومًا، ويعودوا إلى وظائفهم وأهليهم خمسة عشر يومًا، وهكذا دواليك كل شهر، فضمن وجود الجند، وضمن أيضًا حسن سير الإمارة واطمئنان الناس على أهليهم وأولادهم.

هذا كله عمله الخطابي في وقت كان المسلمون فيه في غاية من الضعف والهوان ليس بعده هوان!.

وكما هو الحال بعد كل صحوة إسلامية، اجتمعت دول الصليب مرة أخرى – وهي التي لا تجتمع إلّا في قتال المسلمين! –، اجتمعت أوروبا لتجهض الإمارة الناشئة التي لو بقيت لغيرت مسار التاريخ، وسبب هذا أن الإسبان توجهوا سنة ١٩٢٤م الموافق ١٣٤٣هـ إلى (أجدير) عاصمة الخطابي في مائة ألف وحاصروه ثلاثة أسابيع، فأظهر الخطابي ومن معه بطولات رائعة جدًا ونادرة في وقت عزت فيه البطولة وانعدم النصر أمام الغرب في العصر الحديث، واستطاع الخطابي ومن معه أن يقتلوا من الإسبان أربعة آلاف في أقل الروايات، واضطر الجيش الإسباني للانسحاب ذليلاً إلى مدريد!.

وهذه وقائع جرت في العصر الحاضر، وهي لا تكاد تصدق؛ لأن كل المعارك التي دخلناها مع الأوربيين آنذاك كنا ننهزم فيها أو في جُلِّها، أما أن ينهزم الإسبان الذين خرجوا ظافرين من الحرب العالمية الأولى على هذا الوجه فإن هذا يستدعي تحركًا من أوربا، فأرسل المارشال المتجبر المتكبر الفرنسي (ليوتي) الذي كان حاكمًا في الجزائر آنذاك إلى فرنسا يقول لهم: إن انتصار العرب في الريف الإسباني وعلى سواحل البحر المتوسط يعني إنشاء إمبراطورية عربية إسلامية، وفتحًا جديدًا لأوروبا من قبل المسلمين، وهذا أمر لا يمكن القبول به، وبهذا التخويف دخلت فرنسا الحرب ضد الخطابي على رغم أنف البرلمان الذي كان معارضًا، فاجتمعت إسبانيا وفرنسا عليه في جيش عدده زهاء نصف المليون، وحاصر الأسطول الفرنسي الخطابي، –

والأسطول الفرنسي كان أعظم أسطول بحري في العالم آنذاك - وكانت الطائرات التي حاربته منتظمة في أربعة وأربعين سربًا، وصارت تقذفه وجنده بأنواع القنابل وهو صابر محتسب في خندقه، وأوقع بهم في أوقات خسائر جسيمة.

والحقُّ ما شهدت به الأعداء...

صبر الخطابي صبرًا جميلاً حتى إن صحفيًا أمريكيًا كان موجودًا آنذاك في ساحة المعارك يتابعها وهو (فانسن شين) قال: دخلت على (عبد الكريم) في خندق أمامي، والطائرات الإسبانية والفرنسية تقذف المنطقة بحمم هائلة فوجدته متبسمًا مرحًا مقبلاً - الله أكبر ما أجمل وأحسن نفوس الصالحين - يضرب ببندقيته الطائرات، فتعجبت من هذا الرجل الذي استطاع أن يحافظ على إيمانه وعقيدته في خِضَم الظروف المحيطة به، وكنت أتمنى أن أمكث أكثر فأكثر مع هذا الرجل العظيم الذي تحيطه هالة من الوقار والجلال، وأقارن به ساسة أوروبا التافهين المشغولين بأمور تافهة فلا أكاد أجد وجهًا للمقارنة، وتمنيت أن أظل أكثر مما ظللت مع هذه الظاهرة البشرية الفريدة التي تأثرت بها أيَّمَا تأثر.

أرأيتم كيف يؤثر المسلمون الصادقون في الناس عامة، وفي أعدائهم خاصة؟!

ويقول (كورتي) عضو مجلس العموم البريطاني: إن هذا الرجل الذي ينادي باسمه أهل آسيا وإفريقيا والهند، ويتغنون باسمه.. إن هذا الرجل الذي يزعم هؤلاء أنه يقاتل باسم الإسلام ويعيد إمارة المؤمنين والخلافة الإسلامية، إنه لخطر عظيم على البلاد الأوربية.

هكذا كان يؤثر فيهم الخطابي الذي لا يعرفه، ولم يسمع باسمه أكثر المسلمين اليوم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

فلم يستسلم الأمير الأسطورة الخطابي لكثرة عدد وعتاد الغزاة، لا بد أن الخطابي كان يقف عند قول الله وهو يحفظ القرآن صغيرًا: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ»[1]. لذلك استمات القائد الإسلامي البطل في الجهاد أمام نصف مليون من الصليبيين، فكانت المفاجأة الكبرى! لقد انتصر المجاهدون المغاربة في جميع الجولات التي خاضوها، فأوقعوا الخسائر تلو الخسائر في صفوف الغزاة!.

وكان المسلمون يستقبلون انتصارات الخطابي بدموع الفرح والاستبشار الشديد في الهند وعموم آسيا وإفريقيا؛ وذلك أنه كان يجاهد أثناء وبعد إلغاء الخلافة العثمانية، فكانوا يأملون عودتها على يديه.

وعندما أدركت جيوش أوروبا المتحالفة أن هذا الرجل لن يستسلم أبدًا، قامت بشراءِ ذمم بعض شيوخ الطرق الصوفية المبتدعة، فقام هؤلاء بخيانة الأمير الخطابي الذي كان يحارب البدع الصوفية من الرقص والدروشة وإقامة الموالد التي ما أنزل الله بها من سلطان، فأصدروا فتوى تحرم القتال مع الخطابي، وخانه بعض رؤساء القبائل الذين اشتراهم الفرنسيون، وكانوا ينهون شبابهم عن القتال مع الخطابي، كما لم يجد الخطابي الدعم من الدول العربية والإسلامية، حيث كانت أكثر الدول العربية والإسلامية قد سقطت في قبضة الصليبيين أو الشيوعيين أو عملائهما.

---

١- (محمد : ٧) .

والقاعدة تقول: إن الكثرة تغلب الشجاعة...

فجيش عبد الكريم كان عشرين ألفًا فقط، وهؤلاء مئات الآلاف ومعهم الطائرات وكل الأسلحة التي هزموا بها ألمانيا وإيطاليا والدولة العثمانية.

فقامت طائرات فرنسا وإسبانيا بإلقاء الأسلحة الكيميائية والغازات السامة على المدنيين، في الوقت الذي حاصر فيه الأسطول الإنجليزي سواحل المغرب، فقاتل الخطابي أمم الأرض مجتمعة من خونةٍ وصليبيين، ولم يبقَ حيًّا من المجاهدين إلَا مائتي مقاتل عاهدوا الله على الشهادة تحت قيادة الأمير المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي، فلم يستسلم أولئك النفر أبدًا حتى يأس الصليبيون من هزيمتهم، فلجأوا إلى أسلوب قديمٍ حديث...

لقد لجأوا إلى طلب التفاوض مع الأمير وإعطائه الضمانات الموثقة على سلامة كل المسلمين، وإتاحة سبل العيش الكريم لهم بكل حرية واستقلال، وكان الخطابيُّ يرفض الاستسلام رفضًا باتًا، لكنه لما استشار المائتين ممن بقوا معه أشاروا عليه بحقن الدماء، وعقد صُلْحٍ مشرف، والبقاء في البلد والاستعداد للقتال في أقرب فرصة.

وهنا لم يجد بُدًا من إمضاء الصلح، لكن الفرنسيين واصلوا قذف القرى بالطائرات بعد التسليم، فقال لهم عبد الكريم: سيكون من المدهش أن تصيب طائراتكم الرِّجال في هذه المرة، إذ كانت العادة ألا تقتل إلا النساء، إن حضارتكم حضارة نيران، فأنتم تملكون قنابل كبيرة إذًا أنتم متحضرون، أما أنا فليس لدي سوى رصاصات بنادق، وإذًا فأنا متوحش. وكان بهذا يستهزئ بهم، ويقيم الحجة عليهم؛

لأنهم كانوا يتهمونه بالبربرية والتوحش!.

فأوصى أتباعه بالاستمساك بالدين وعدم الركون إلى المستخربين – المستعمرين – المحتلين، ولما سلّم نفسه للفرنسيين بعد كتاب موثق للصلح وإبقائه في الريف، كعادتهم، نكص الصليبيون بعهودهم، فقاموا بخطف الأمير الأسطورة المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي، ونفوه إلى جزيرة (رينيون) في المحيط الهادي شرق مدغشقر، ليس لسنة أو اثنتين، بل لإحدى وعشرين سنة متصلة قضاها هذا البطل في أسر دعاة حقوق الإنسان، في أسر من خرجوا للعالم بشعار الثورة الفرنسية: (Libeé، Égalié، Faenié) (حرية، مساواة، إخاء)!.

وكانوا قد منعوا عنه في السنوات العشر الأولى كل وسيلة اتصال بالعالم الخارجي، فحرموه من الجرائد والمجلات ومن كتبه التي أتى بها معه، ثم سمحوا له بعد ذلك بها، فقضى هذه المدة الطويلة في التأمل والذكر والدعاء والصلاة، فسبحان الله كم يُصبّر عباده؛ إذ لو كان غيره لأصابه الجنون أو أمراض نفسية مزمنة، لكنه الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب فيصنع حينئذٍ ما يشبه المعجزات!.

وأبى الله أن يقر عيون أولئك المجرمين بالأمير محمد، وبتدبير عجيبٍ غريبٍ لا يصدر إلا من رب العالمين، يسخّر الله الأسباب لتحرير عبده الخطابي بعد عشرين عامًا من الأسر في تلك الجزيرة المجهولة التي لو مات فيها ما علم به أحد!.

ففي عام ١٩٤٧م، أعلن ملك المغرب (محمد الخامس) رحمه الله استقلال المغرب، فقرر الفرنسيون الضغط على الملك بورقة الخطابي، فأصدر (شارل ديغول) أوامره بجلب

الأمير الخطابي إلى باريس، ومكرت فرنسا مكرًا، ومكر الله مكرًا، والله خير الماكرين...

ففي يوم ٢٢ من شهر مايو ١٩٤٧م أرست باخرة الفرنسيين، الباخرة الأسترالية، والتي يطلق عليها الباخرة (كتومبا) في ميناء عدن اليمني للتزود بالوقود، فخرج منها بعض الرجال للتنزه في المدينة، حيث التقى بهم رجلٌ من فضلاء بلدة الشيخ عثمان بجوار عدن اسمه السيد عبدو حسين الأدهل.

فما أن تعرف عليهم و على اسم أبيهم حتى كاد يصعق من هول الصدمة، فأسرع إلى السفينة ليتأكد من صدق ما سمع!.

فرأى شيخًا تبدو من بين قسمات وجهه الغائرة مظاهر للعظمة و السمو لا تخفى على أحد، و تظهر على ساقيه و يديه الهزيلتين علاماتٌ لسلاسل و أغلال وكأنها نُحِتَتْ في جلده نحتًا.

فسأله السيد الأدهل عن هويته، فرفع ذلك الشيخ الكبير رأسه ونظر نحوه بعينين كعيني الصقر الجارح، ثم أخبره بكل عزة و شموخ قائلًا: أنا الأمير محمد بن عبدالكريم الخطابي!.

فلم يصدق السيد الأدهل نفسه بأنه أمام ذلك البطل الإسلامي الأسطوري الذي اختفى منذ ما يزيد عن٢٠ عامًا.

فتسامع الصالحون من اليمنيين والعراقيين والفلسطينيين في عدن بمرور سفينة الخطابي فأبرقوا لمصر، وما هي إلا لحظات حتى وصلت إلى القاهرة برقية سرية من ميناء عدن اليمني: الأمير محمد عبد الكريم الخطابي غادر عدن على الباخرة كتومبا، التوقيع الأدهل.

بعد ذلك وردت إلى الملك فاروق ملك مصر آنذاك في قصره بسرايا القبة هذه الرسالة: جلالة الملك مولانا المعظم وردتني برقية من عدن بأنه قد مر بها الأمير محمد عبد الكريم الخطابي أمير الريف بمراكش و أسير فرنسا بجزيرة ريونيون منذ ٢٠ سنة، وهو بطريقه لمنفاه الجديد بجنوب فرنسا، و ستصل به الباخرة كتومبا غدًا الثلاثاء للسويس و إنقاذه معلق بإشارة كريمة من جلالتكم ولا سلطة لفرنسا عليه سوى سلطة الخاطف على المخطوف، التوقيع علي الطاهر رئيس اللجنة الفلسطينية بمصر.

عندها قام الملك فاروق بمساعدة من السيد المحترم عبد الرحمن عزام باشا، أول أمين عام للجامعة العربية، بتدبير خطة لتحرير الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي، إذ صعد برجالٍ إلى السفينة وطلبوا من قائدها أن ينزل الخطابي لمقابلة الملك، والسلام عليه، هو وأخوه وعمه عبد السلام، فانطلت الحيلة على القبطان، وسمح بنزول الخطابي، فأبقته مصر عندها، وهنا قامت قيامة فرنسا وثارت لكن بعد فوات الأوان، ومن الطريف أن فرنسا اتهمت مصر بالخيانة والغدر، سبحان الله! هم أهل الخيانة والغدر الذين نكثوا عهدهم مع الخطابي ونفوه إحدى وعشرين سنة، ليُجَنَّ

جنون فرنسا على فقدانها الأسير الذي لطالما أذاقها الويلات و الهزائم[1].

وبعد.. فقد كانت هذه الأسطر، عن أسطورة وملحمة خالدة، هو الأمير الأسطورة محمد بن عبدالكريم الخطابي.

ذلك البطل الأسطوري الذي لم يكن نبيًّا، ولا صحابيًّا، ولا حتى عربيًّا، بل كان من الأمازيغ البربر، ولم يكن كذلك من العصور الأولى المتقدمة، بل هو من رجال عصرنا الحالي الحديث!.

كان أسطورةً بحق، في إيمانه وعقيدته، ومبادئه ومنهجه، وسياسته وحكمته، وذكائه وإبداعه، وشجاعته وثباته، وقتاله وتفانيه، ودفاعه وثورته...

إنه الأسطورة الذي جاء الثائر الشيوعي الذي فُتِنَ به ملايين الناس فضلًا عن ملايين الشباب، ووضعوا صورته على كل نافذة وعلى كل باب، وعلى كل كتاب وصحيفةٍ بل على القُبَّعاتِ والثياب، المدعو (تشي جيفارا)، جاء إليه حتى يتعلم منه!.

إنه الأسطورة الذي تعلم منه قادة وجنرالات العالم، بل تعلمت منه دول العالم خطط وأساليب وفنون القتال!.

---

١- الأمير المجاهد محمد الخطابي لمحمد موسى الشريف، مائة من عظماء الإسلام للترباني، بتصرف.

obeikandl.com

## محمد بن القاسم الثقفي
## (أصغر فاتح في التاريخ)

استولى قراصنة السند من الديبل بعلم من ملكهم (داهر) في عام ٩٠هـ على ثماني عشرة سفينة بكل ما فيها من الهدايا والبحارة والنساء المسلمات، اللائي عمل آباؤهم بالتجارة وماتوا في سرنديب وسيلان، وصرخت مسلمة من بني يربوع: وا حجاج، وا حجاج، وطار الخبر للحجاج باستغاثتها، فنادى من وراء الجبال والبحار: لبيك لبيك.

وحاول الحجاج بن يوسف الثقفي استرداد النساء والبحارة بالطرق السلمية، ولكن (داهر) اعتذر بأنه لا سلطان له على القراصنة، فثارت ثائرة الحجاج، فأعد الحجاج جيشًا تلو الآخر، الأول بقيادة (عبد الله بن نهبان) فاستشهد، ثم أرسل الحجاج (بديل بن طهفة البجلي) ففاز بالشهادة دون أن يصل إلى أمر حاسم.

فاستشاط الحجاج غضبًا بعد أن رأى قوّاده يتساقطون شهيدًا وراء شهيد، فأقسم ليفتحنَّ هذه البلاد، وينشر الإسلام في ربوعها، وقرّر القيام بحملة منظمة، ووافق الخليفة الوليد بن عبد الملك، وبعد أن تعهد له الحجاج أن يرد إلى خزينة الدولة ضعف ما ينفقه على فتح بلاد السند.

وقد وقع اختيار الحجاج على محمد بن القاسم الثقفي ليقود الجيش الإسلامي؛ لما رآه فيه من حزم وبسالة وفدائية، فجهّزه بكل ما يحتاج إليه في ميدان القتال من عتاد، وتحرك البطل محمد بن القاسم الثقفي وهو الذي لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره بجيشه المكون من عشرين ألف مقاتل من خيرة الأبطال وصفوة الجنود، واجتاز الجيش حدود إيران سنة ٩٠هـ إلى الهند، وبرزت مواهب محمد بن القاسم الفذة في القيادة وإدارة المعارك، فحفر الخنادق ورفع الرايات والأعلام ونصب المنجنيقات، ومن بينها منجنيق يقال له: العروس كان يقوم بتشغيله خمسمائة، تقذف منه الصخور إلى داخل الحصون فيدكها دكًا.

وبعد ذلك اتجه نحو بلاد السند، فبدأ بفتح مدينة بعد مدينة لمدة سنتين، ثم زحف إلى الديبل، فخندق الجيش بخيوله وأعلامه واستعد لمقاتلة الجيش السندي بقيادة الملك الراجة داهر حاكم الإقليم، في معركة مصيرية سنة ٩٢هـ، وكان النصر للحق على الباطل، فقد انتصر المسلمون، وقُتل ملك السند في الميدان، وسقطت العاصمة السندية في أيدي المسلمين. واستمر محمد بن القاسم الثقفي في فتوحاته لبقية أجزاء بلاد السند ليطهرها من الوثنية المشركة، فنجح في بسط سلطانه على إقليم السند، وفتح مدينة الديبل في باكستان، وامتدت فتوحاته إلى ملتان في جنوب إقليم البنجاب، وانتهت فتوحاته سنة ٩٥هـ عند الملقان، وهي أقصى ما وصل إليه محمد بن القاسم من ناحية الشمال، فرفرف عليها علم الإسلام وخرجت من الظلمات إلى النور، وبذلك قامت أول دولة إسلامية في بلاد السند والبنجاب (باكستان حاليًا).

**نهاية مؤلمة...**

إن العين لتدمع دمعات حزينة حين تُفاجأ بنهاية محمد بن القاسم الثقفي الأليمة، فلو كان البطل الشهيد قد لاقى مصيره في معترك السيوف، لكان مصرعه مدعاة ارتياح لمن يقدرون البطولة، ولكنه يذهب ضحية للحقد، فتختلق الأكاذيب ضده لتلطخ بسوادها المنكر صحيفة بيضاء ساطعة بنور الفضيلة والكرامة والإباء، ويمضي الشهيد إلى ربه صابرًا محتسبًا، فلم يكن للبطل محمد بن يوسف الثقفي من ذنب لدى الخليفة سليمان بن عبد الملك إلا أنه ابن عم غريمه الحجاج بن يوسف الثقفي، فانتقم الخليفة سليمان من الحجاج الذي عزله من قبلُ عن الخلافة في شخص محمد بن القاسم.

ووصل محمد بن القاسم الثقفي إلى العراق، بعد أن لُفِّقَت له إحدى التهم، فأرسله والي العراق صالح بن عبد الرحمن مقيدًا بالسلاسل إلى سجن مدينة واسط، وهناك عذبه شهورًا بشتى أنواع التعذيب حتى مات البطل الفاتح في سنة ٩٥هـ، فخرجت الجموع الحاشدة لتوديعه باكية حزينة، لم يكن العرب وحدهم يبكون على مصيره، بل أهل السند من المسلمين، وحتى البرهميين والبوذيين، كانوا يذرفون الدموع الغزيرة، وصوّره الهنود بالحصى على جدرانهم ليبقى شخصه ماثلاً للعيون، وجزعوا لفراقه جزعًا شديدًا.

مات الأسطورة محمد بن القاسم الثقفي وهو لم يبلغ الرابعة والعشرين من عمره بعد أن فتح الفتوح وقاد الجيوش وضم الباكستان العظيمة إلى رقعة الإسلام، فاستضاء بجهاده وبمن جاء بعده مائة مليون مسلم![1].

obeikandl.com

١- محمد بن القاسم الثقفي.. أصغر فاتح في الإسلام للدكتور/ عماد عجوة بتصرف.

# هاشم بن عتبة

عجبًا لأمرِ المسلمين!، نَنْبَهِرُ ونُصَفِّقُ ونُشِيدُ بكلِّ شيءٍ يفعلُه الغرب، حتى وإن كان على سبيل التمثيل والخيال، ولا نلتَفِتُ حتى لما فعله أجدادُنا وأسلافنا من عظماء الصحابة والتابعين، وغيرهم من أساطير المسلمين، وإن كان ما فعلوه لا يقلُّ أبدًا، بل يفوق بكثير ما يفعله أو يصوِّرُه الغربيون، غيرَ أنه حقيقيٌّ واقعيٌّ لا تمثيليّ، أو بمعنى آخر (حدث بالفعل)!.

والحُجَّةُ والعذرُ في ذلك أنَّنَا لا نعرفه، أو لم نَرَهُ، أو لم نسمعْ به، وهو في الحقيقة (عذرٌ أقبح من ذنب)!.

رجلٌ يقاتِلُ الدُّبَّ فيقْتُلُه، فنطير ولعًا وشغفًا به، ثم يحصد الجوائز، ويكون النجم الأوحد... نعم، نسيتُ أن أقول لكم: إنَّ ذلك كان تمثيلًا لا حقيقةً، نعم.. على سبيل المثال لا الحصر، في فيلم هوليودي يُدعى (العائد - The Revenant)، حصد صاحبه بعد ذلك جائزة الأوسكار!.

والآن دعنا من العالم التمثيليِّ الخياليِّ، لننتقلَ إلى العالم الواقعيِّ الحقيقيِّ الأسطوريِّ...

فكما تحدثنا عن الأسطورة (القعقاع بن عمرو)، الذي تصدَّى للفيلَ فأرداه، فكذلك أسطورةُ هذا الفصل هو قاتلُ الأسد.. المقاتِلُ الأسد، (هاشم بن عتبة)!.

هو أبو عمرو هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، من بني زهرة، الشجاع المعروف بـ (المرقال)، ابن أخي سعد بن أبي وقاص. قال الدولابيُّ: لُقِّبَ بـ (المرقال) لأنه كان يُرقِل في الحرب، أي يُسْرِع، وهو من الإرقال الذي هو من صور الجري![1].

وفي معركة (فحل بيسان) أرى هاشمٌ الرومَ الأعاجيب...

قال هاشم بن عتبة – رحمه الله –: والله لقد كُنَّا أشفقنا يومئذٍ على خيلنا أول النهار، ثم أحسن الله، فما هو إلا أن رأينا خيلَنَا قد نصرها الله على خيلِهم، فدعوتُ الناس إليَّ وأمرتُهم بتقوى الله، ثم نزلتُ، فهززتُ رايتي، ثم قلت: والله لا أُرُدُّها حتى أركزها في صفهم، فمن شاء فليتبعني، ومن شاء فليتخلف عني، قال: فو الذى لا إله غيره، ما أعلم أن أحدًا من أصحاب رايتي تخلَّفَ عني، حتى انتهيت إلى صفِّهم، فنضحُونا بالنُّشَّاب، فجثونا على الركب واتَّقَيناهم بالدرق.

ثم ثُرْتُ بِلِوائي وقلت لأصحابي: شُدُّوا عليهم أنا فداؤكم، فإنها غنيمة الدنيا والآخرة، فشددتُ وشَدُّوا معي، فأستقبلُ – فاستقبلتُ – عظيمًا منهم قد أقبل نحوي فأوجِزُهُ الرمح، فخرَّ ميِّتًا، وضاربناهم بالسيوف ساعة في صَفِّهم، وحمل عليهم خالد من قبل ميسرتهم فقتلهم قتلًا ذريعًا، وانتقضت صفوفهم من قِبَلِ خالدٍ ومن قِبَلِي، ونَهَدَ إليهم أبو عبيدة بالناس، وأمر الخيل التي كانت تليه من خيل خالد، فحملت عليهم، فكانت هزيمتهم![2].

---

١- الإصابة (٦/٤٠٤، ٤٠٥).

٢- تاريخ فتوح الشام للأزدي (١٣٥).

**وفي يوم اليرموك:**

برز هاشم فدائيًا وقائدًا، فقد انتخب خالد فدائيين من أبطال المهاجرين والأنصار، وعددهم مائة فارسٍ فقط، للتأثير على معنويات الروم في ابتداء المعركة، وكان هاشمٌ أحد هؤلاء الفدائيين المنتخبين، فزلزلوا الروم وفعلوا بهم ما فعلوا [1].

وبعد أن فعل هؤلاء الفدائيون الأعاجيب، ولَّاه أبو عبيدة قيادة المُشَاةِ قائلًا: أوليها - إن شاء الله – من لا نخافُ نُكُوله ولا صدوره عند البأس، أوليها هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، فقال له خالد: وفِّقْتَ ورُشِدت![2].

وقيل إنه في هذه المعركة، فقد إحدى عينيه، غير أنه قاتل الروم بشجاعة فائقة، كان لها أثر ملموس في انتصار المسلمين في هذه المعركة الحاسمة[3].

**وفي يوم القادسية:**

أعاد عمر ﷺ إلى العراق كل الرجال الذين جاؤوا مددًا إلى الشام، وهم ستة آلاف، وأمَّر على هذا الجيش هاشم بن عتبة، وجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو، وعَّله أمامه كي يدرك سعدًا قبل فوات الأوان.

وفي اليوم الثالث من أيام القادسية وهو يوم (عماس)، أدرك هاشم وجنوده رجال القعقاع، فما جاء آخر أصحاب القعقاع حتى انتهى إليهم هاشم، فجعل أصحابه فِرَقًا، وأمرهم أن يتلاحقوا دِرَاكًا، فلا تسير فرقة حتى تغيب الأخرى عن نظرها، وسار

---

١- فتوح الشام للواقدي (١/١٢٠).
٢- تاريخ فتوح الشام للأزدي (١٨٨).
٣- فتوح البلدان للبلاذري (١٤١).

هاشم على رأس الفرقة الأولى، فأقبل هاشم حتى إذا خالط القلب كبر وكبر المسلمون وقد أخذوا مصافهم، وقال هاشم: أول القتال المطاردة ثم المراماة، فأخذ قوسه فوضع سهمًا على كبدها ثم نزع فيها، فرفعت فرَسُهُ رأسها، فخلَّ أذنها - قطعها - فضحك وقال: واسوأتاه من رمية رجل، كل من رأى ينتظره، أين ترون سهمي كان بالغًا؟ فقيل: العتيق، فنزَّقها وقد نزع السهم ثم ضربها حتى بلغت العتيق، ثم ضربها فأقبلت به تخرقهم حتى عاد إلى موقفه، وتوالت القوات تباعًا، وأبلى هاشم بلاءً عظيمًا، كان له عظيم الأثر في نصر المسلمين في هذه المعركة الفاصلة.

وبعد انتصار المسلمين في القادسية، وصل أمرٌ من أمير المؤمنين عمر، بالتوجه لفتح المدائن، فكان هاشم على رأس القوات، إذ جعله سعد نائبًا عنه، فسارت قوات المسلمين من نصرٍ إلى نصر، انتصروا في بُرس، وبابل، وفي ساباط... وفي ساباط جاءت اللحظة الحاسمة..

**هاشمٌ الأسدُ الأقوى، يقتلُ أسَدَ كسرى:**

تقدم الجيشُ إلى (ساباط) على ثلاثين كيلو مترًا من (المدائن)، بطريق (بهرسير)، وفي مكان اسمه (مُظلِم) بضواحي (ساباط)، التقى المسلمون بقوةٍ مجوسية، ذكرتها الأنباء على أنها (كتيبة كسرى) أو كتائب كسرى، وحملت اسم (بوران) بنت كسرى أبرويز، وهي عمة يزدجرد الثالث، وهي تمثل قوات الحرس الملكي.

انتهى هاشمٌ إلى مُظلِم ساباط، ووقف لسعدٍ ينتظرهُ حتى يلحقَ به، وفي مُظلِم ساباط كانت هناك بعض الحدائق الملكية، وكان كسرى قد اقتنى فيها بعض الأسود، ووافق ذلك رجوع (المُقَرَّطِ) وهو أسدٌ عظيمٌ كان لكسرى قد أَلِفه وتخيَّره من أسود المُظلِم، كما كانت بالمُظلِم كتائب كسرى التي تُدعى (بوران)، وكانوا يحلفون بالله كل يوم: لا يزول ملك فارس ما عشنا!.

لكنَّ الأهم، دارت المعركة، ووصل سعدٌ وهي دائرة، فأطلق المجوس أسدهم (المُقَرَّطَ) على صفوف المسلمين، فبادر (المُقَرَّطُ) الناسَ، فنظر هاشمٌ إلى الناس وقد أحجموا ووقفوا، فقال: ما لهم؟! فقيل له: أسدٌ قد منَعَهُم، ففَرَّجَ هاشمٌ الناس وقصد له، وتقدم إلى الأسد بقلبٍ لا يعرف الخوف، أو إن شئتَ قل: بقلب أسد!.

تقدَّم له كما تقدَّم إخوانٌ له من قبل إلى الأفيال بالقادسية، تقدَّمَ مُقبِلًا على الأسد في مشهدٍ لا يمكن تصوره، وأعتقد أنها لم تحدث في التاريخ أن رجلًا يركضُ نحو أسدٍ مفترس!.

الجيشان ينظرون ويتعجبون فكيف لرجلٍ مهما بلغت قوته أن يواجه أسدًا؟!

انطلق الأسطورة كالريح نحو الأسد لا يهابه، بل أعتقد أن الأسد هو من هابه!، ثم قفز عليه كالليث على فريسته، فثاوره الأسد، فضربه هاشم بسيفه فقطع موصله كأنما اجتلم به غصنًا، ووقعت الضربة في خاصرته، وقال بعضهم: على هامته، فقتله، وسمَّى سيفه (المَتَنَ)!.

فتملك الرعبُ من قلوب الفرس، إذ كيف سيقاتلون رجالًا لا تهابُ الأسود؟!..

فدَحَرَهُم المسلمون عن بكرة أبيهم!.

ثم ذهب سعد بن أبي وقاص ﷺ إلى الأسطورة هاشم فقبَّل رأسه، تقديرًا له على فعله وبطولته النادرة!، فما كان إلا أن انكبَّ الأسطورة بتواضع الأساطير على قَدَمِ عمِّه وأميرِهِ سعدٍ فقبَّلَها قائلًا: ما لمثلك أن يقبِّلَ رأسي![1].

فلله درُّك يا هاشم.

تمَّت

obeikandl.com

١ ( ) تاريخ الطبري (٣/٦٢٢، ٦٢٣) بتصرف.

## أمَّا رسول الله ﷺ

وأما النبي ﷺ فهو - بأبي هو وأمي ﷺ - أشجع الناس، وأقوى الناس، وأثبت الناس، وأصبر الناس، وأذكى الناس، وأحكم الناس، وأكرم الناس، وأزهد الناس، وأحلم الناس، وأرحم الناس، وألين الناس، وأعلم الناس، وأتقى الناس، وأصدق الناس، وأوفى الناس، وأعدل الناس، وأكرم الناس، وأجمل الناس، وأحسن الناس، وهو سيد الناس...

قال ﷺ: " أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ"[1].

وقال ﷺ: "أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[2].

فهو ﷺ ذُرْوَةُ سَنَامِ هذا الكون، ودُرَّةُ تاجِ الجنسِ البشريِّ كله، وهو أعلى من أن يُقْرَنَ أو يُقَارَنَ بأحد، وأسمى من أن يُوصَفَ بأنه أسطورة!.

صلى الله عليه وسلم

---

١- رواه مسلم ٦٠٠٤-(٣-٢٢٧٨) وأحمد (١٠٩٧٢).

٢- رواه البخاري (٤٤٣٥) ومسلم ٣٩٩-(٣٢٧-١٩٤) وأحمد (٩٦٢٣).



obeikandl.com

وأمَّا أصحابُهُ رضوانُ اللهِ عزَّ وجلَّ عليهم أجمعين، فكلهم أساطير، فهم خير الناس مطلقًا بعد الأنبياء، الذين اصطفاهم الله واختارهم لصحبة نبيه، ولإقامة دينه، وهم الجيل النبوي القرآني الفريد، الذين رباهم المصطفى وكفى...

قال ﷺ: "خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ"[1].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: إِنَّ اللهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ، يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ[2].

فهم الذين كانوا إخوانًا عاملين، لغيرهم نافعين، للوحي ناقلين، وعن الدين مدافعين، على الخير متعاونين، لرسول الله مُتَّبِعين، وبأمر الله قائمين، كلٌّ قائمٌ على ثغْرِه، غيرُ لائمٍ لغيرِه، ومُقْتَدٍ بِسَلَفِه...

ففي الوقت الذي كان فيه أبو عبيدةَ وسعدٌ وخالدٌ وعمرٌو لمصرَ والشام يفتحون، كان أبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ وعليٌّ يَرْعَوْنَ شؤونَ الأمَّةِ ويسُوسُون، ومعاذُ وابنُ عمرَ وابنُ عباسٍ يُعَلِّمُون ويُفتُون، وأبو هريرةَ وأنسٌ وعائشةُ يحفظون حديثَ رسولِ الله ويَروون ويفَقِّهُون، وابن مسعودٍ وأبيٌّ وزيدٌ يُقْرِؤون ويُعَلِّمون، وأبو ذرٍّ وأبو الدرداء يعِظونَ الولاةَ وينصَحُون، متعاونين جميعًا متناصِرين، ومُوقِنينَ أنَّ نصرَ اللهِ لا يتنزلُ على قومٍ مُتدابِرينَ مُتَباغِضين.

---

١- رواه البخاري (٢٥٠٩) ومسلم ٦٥٦٣-(٢١٢-...) وأحمد (٣٥٩٤).

٢- رواه أحمد (٣٦٠٠).

فاقْتَفُوهُم فهُمُ الأبُ والجد، إنما الشِّبْلُ من الليثِ وما يَلِدُ الأصيدُ يومًا غيرَ أصيد[1].

أولئكَ الذِّينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُم اقْتَدِه

عَنِ عبدِاللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: مَنْ كَانَ مُسْتَنًّا؛ فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ فَإِنَّ الْحَيَّ لَا تُؤْمَنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ كَانُوا أَفْضَلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، أَبَرَّهَا قُلُوبًا وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا، وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا اخْتَارَهُمُ اللَّهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ، وَلِإِقَامَةِ دِينِهِ، فَاعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ، وَاتَّبِعُوهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ، وَتَمَسَّكُوا بِمَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَسِيَرِهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهَدْيِ الْمُسْتَقِيمِ[2].

١- محاضرة ريًّا البشام لعلي القرني.

٢- مشكاة المصابيح (١٩٣).

obeikandl.com

أمَّا بعد/

فالحمد لله الذي خلقَ الخلقَ بقدرتِه، وسيَّرَ الكون بإرادتِه، وشرع الشرائع بحكمتِه، ووسِعَ الأشياءَ برحمتِه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في أُلُوهِيَّتِه، ولا مشارك له في رُبُوبِيَّتِه، ولا ندَّ ولا شبيه ولا نظير له في أسمائه وصفاتِ عظمتِه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله المُكَلَّفُ بتبليغ دَعوَتِه، ونشرِ رِسَالَتِه، صلى الله عليه وعلى آله وصَحْبِهِ وعِطْرَتِه، وأزواجِهِ وذُرِّيَتِه، وعلى من اقتفى أثره واستنَّ بِسُنَّتِه.

أمَّا بعد/

فهذا الكلامُ بعد الفراغِ من كِتابته، فكَّرْتُ في كيفيَّة اجتناءِ ثَمَرَتِه، فوجدت أنَّ هذا لا يتأتَّى إلا بعد أن يقفَ كلُّ إنسانٍ بعد قراءَتِه، مع نفسِهِ وقفةً ويُطيلَ في وقفَتِه، ليُعيدَ ترتيبَ أوراقِه ومراجعةَ حِسْبَتِه، ويُراجِعَ النظرَ في مَثَلِهِ الأعلى وقُدْوَتِه، ثمَّ يسألَ نفسه ماذا قدَّمَ لأمتِه؟!

obeikandl.com

وليكون ذلك عَوْنًا على إعْلَاءِ همَّته، والإصلاحِ من نيَّته، وتصحيحِ مساره ووِجهَته، والاجتهادِ في عَمَله ودعْوَته، ومِمَّا يُساعِدُه على الوصولِ لغايَته، وإدراكِ أمْنِيَّته، حتى يكونَ غَدُهُ بإذن اللهِ خيرًا من ليلته، مُستَثْمِرًا ما بقي من حياتِه قبلَ اقترابِ أجَلِه ودُنُوِّ مَنيَّته، ليظْفَرَ برضا الرحمنِ ومحَبَّته، ويفوزَ في الآخرةِ بجَنَّته، بفضلِه ومِنَّته.

راجيًا أن أكون قد وُفِّقتُ في عرضِ مادَّته، وسائلًا اللهَ الإخلاصَ والقبولَ وأن يتوبَ علينا بتوبَته، وأن يكون شافعًا لنا يومَ لُقْيَته، وأن يجمعنا بكم في مُستقرِّ رَحْمَتِه ودارِ كرامَته، والحمدُ للهِ الذي تتمُّ الصالحاتُ بنِعْمَته.

عبدالرحمن الوليلي

obeikandl.com

# المراجع


أبطال ومواقف – أحمد فرح عقيلان.

الاستبصار في عجائب الأمصار- غير معروف.

الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى – الناصري.

الاستيعاب في معرفة الأصحاب – ابن عبدالبر.

أسد الغابة في معرفة الصحابة – ابن الأثير.

الإسلاميون وتركيا العلمانية نموذج الإمام سليمان حلمي – هدى درويش.

أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب – الصلابي.

الإصابة في معرفة الصحابة – ابن حجر.

الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية – البزَّار.

الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله × والثلاثة الخلفاء – الكلاعي.

الإكليل – الهمداني.

أصحاب الرسول – محمود المصري.

الأعلام – الزركلي.

البداية والنهاية لابن كثير – ط إحياء التراث.

تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام – الذهبي.




obeikandl.com

تاريخ خليفة بن خياط – ط الرسالة.

تاريخ الدولية العلية العثمانية – محمد فريد بك.

تاريخ الرسل والملوك – الطبري.

تاريخ دمشق – ابن عساكر.

تاريخ فتوح الشام – الأزدي.

تاريخ المدينة – ابن شبَّة.

الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا – الصلابي.

حياة الصحابة – الكاندهلوي.

الدر المنثور في التفسير بالمأثور – السيوطي.

دلائل النبوة – البيهقي.

الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط – الصلابي.

الرحيق المختوم – المباركفوري.

سبل السلام من صحيح سيرة خير الأنام عليه الصلاة والسلام – صالح عبدالواحد.

سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد – الشامي.

سراج الملوك – الطرطوشي.

السلوك لمعرفة دول الملوك – المقريزي.

سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي – عبدالملك المكي.



obeikandl.com

السنن الكبرى – البيهقي.

سير أعلام النبلاء للذهبي – ط الحديث.

السيرة النبوية – ابن كثير.

سيرة ابن هشام – ط دار الجيل.

شعب الإيمان – البيهقي.

صانعوا التاريخ – سمير شيخاني.

صحيح البخاري – ط ابن كثير.

صحيح مسلم – ط دار الجيل.

صفة الصفوة – ابن الجوزي.

الطبقات الكبرى لابن سعد – ط العلمية.

العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر – ابن خلدون (تاريخ ابن خلدون).

العقد الفريد – ابن عبدربه.

العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية – ابن عبدالهادي.

فتح الباري شرح صحيح البخاري – ابن حجر.

الفتوح الإسلامية عبر العصور – العمري.

فتوح البلدان – البلاذري.

obeikandl.com

فتوح الشام – المدني (الواقدي).

فتوح مصر والمغرب – أبو القاسم المصري.

فرسان النهار من الصحابة الأخيار – سيد حسين العفاني.

الفروسية المحمدية – ابن القيم.

قادة فتح الأندلس – محمود خطاب.

قادة فتح الشام ومصر – محمود خطاب.

قادة لا تنسى – تامر بدر.

قراقوش المظلوم حيًّا وميِّتًا – صالح الجاسر.

قصة الحضارة – ويليام ديورانت.

القوة والشجاعة – محمود المصري.

الكامل في التاريخ – ابن الأثير.

كيف أصبحوا عظماء – سعد سعود الكريباني.

مائة من عظماء الإسلام غيَّروا مجرى التاريخ – جهاد الترباني.

محاضرة إياك والتلون – علي القرني.

محاضرة إيماض البرق في شجاعة سيد الخلق – علي القرني.

محاضرة الجادي المدوف في صبر النبي الرؤوف – علي القرني.

محاضرة ريَّا البشام في حياء وأمانة خير الأنام – علي القرني.

obeikandl.com

محاضرة السماء والسماوة – علي القرني.

محاضرة العرار المُشتار في حكمة النبي المختار – علي القرني.

المستدرك للحاكم – ط دار المعرفة.

مسند أحمد – ط الرسالة.

مشكاة المصابيح – التبريزي.

المعجم الكبير للطبراني – ط إحياء التراث.

معرفة الصحابة – أبو نعيم.

المغازي – الواقدي.

المغول (التتار) بين الانتشار والانكسار – الصلابي.

المنتظم في تاريخ الملوك والأمم – ابن الجوزي.

موجز التاريخ الإسلامي من عهد آدم عليه السلام إلى عصرنا الحاضر – أحمد العسيري.

الموسوعة العربية العالمية.

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – ابن تغري بردي.

نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر – الطالبي.

نوادر الخلفاء – الإتليدي.

وفيات الأعيان – ابن خلكان. ... وأخرى.

obeikandl.com

المواقع الإلكترونية:

موقع التاريخ.

موقع قصة الإسلام – راغب السرجاني.

موقع الموسوعة الحرة (ويكيبيديا). ...وأخرى.

obeikandl.com

## الفهرس


شكر وإهـــــداء..... 7

المـقــدمــة..... 9

كيف كانت البداية؟!..... 11

أبو بكر الصديق..... 15

محمد الـفــاتح..... 21

أبو إسحاق السُّرَمَارِي..... 39

أبو دُجـــانـــة..... 41

ســـــنـــجـــر..... 45

عمر بن الخطاب..... 47

ابن تـيـمـيـة..... 53

ابن صاحبة الضفيرتين..... 57




obeikandl.com

ابن فـتـحـون ..... 63
أحمد بن حنبل ..... 67
سيف الدين قطز ..... 75
خديجة بنت خويلد ..... 83
شامل الداغستاني ..... 91
عبدالله بن عتيك ..... 99
عثمان بن عفان ..... 101
أسماء بنت يزيد ..... 105
ألب أرسـلان ..... 109
أنس بن النضر ..... 111
أورنكزيب عالمكير ..... 115
البراء بن مالك ..... 123
بقي بن مخلد ..... 127
خالد بن الوليد ..... 131
سليمان حلمي طوناخان ..... 143
الزبير بن العوام ..... 147
خولة بنت الأزور ..... 155
ساموري توري ..... 165



obeikandl.com

سلمة بن الأكوع..... 171
صلاح الدين الأيوبي..... 177
ضرار بن الأزور..... 181
أبو بكر النابلسي..... 193
طليحة بن خويلد..... 195
عاصم بن عمرو..... 199
قراقوش..... 207
عبَّاد بن بشر..... 213
محمد بن إسماعيل البخاري..... 219
عبادة بن الصامت..... 225
عبدالله بن أُنيس..... 231
يوسف ابن تاشفين..... 235
عبد الله بن حذافة السهمي..... 249
عروج وخير الدين بربروسا..... 257
محمد بن مسلمة..... 269
علي بن أبي طالب..... 273
عمر المختار..... 277
عمرو بن الجموح..... 283



obeikandl.com

عمرو بن معد يكرب ..... 289
القعقاع بن عمرو ..... 297
مجزأة بن ثور السدوسي ..... 307
محمد بن عبدالكريم الخطابي ..... 311
محمد بن القاسم الثقفي ..... 325
هاشم بن عتبة ..... 329
أمَّا رسول الله ﷺ ..... 335
أمَّا بعد/ ..... 339
المراجع ..... 341
الفهرس ..... 347

obeikandl.com

obeikandl.com

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

---

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع
إلى الناشر

obeikandl.com